وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

تأملات في رسائل الأدباء



آفاق ثقافية
١٠٩

عبد اللطيف الأرناؤوط

تأملات
في رسائل الأدباء

آفاق ثقافية

تأمـلات

في رسائل الأدبـاء

عبد اللطيف الأرناؤوط

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقـافة - دمشـق ٢٠١٢م

آفــاق ثقافيــة
العــدد (١٠٩)
أيـار ٢٠١٢م

تأملات في رسائل الأدباء / عبد اللطيف الأرناؤوط .-
دمشق : الهيئة العامة السورية للكتـــاب، ٢٠١٢م .-
٢٧٢ ص؛ ٢٠ سم.

(آفاق ثقافية؛ ١٠٩)

١- ٨١٦,٠٠٩ أ ر ن ت ٢- العنوان
٣- الأرناؤوط ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

في البدء كلمة:

تأملات في رسائل الأدباء

الرسائل أوراق متفرقة فيها ودائع العمر «*يموت عنها الإنسان ولا تسخو نفسه أن تموت قبله، ولا تنقل إلى حيث تفتح وتقرأ في مدخل كل أرض مطروقة، كما لا تودع عند أحد، فلا موئل لها أكرم من التمزيق أو نار الحريق*» كما يقول العقاد.

وإذا كان بعض الأدباء في ساعات اليأس أو الخطر قد أقدم على حرق أعماله، فإنهم يتفاوتون أيضاً في تعاملهم مع الرسالة، فمنهم مَنْ لا يريد أن يكشف عن عالمه الداخلي النفسي، ويحب أن يضع حاجزاً ضعيفاً بينه وبين الناس، لا في رسائله فحسب بل في أدبه أيضاً.

ومنهم مَنْ يفضّل أن يكون قلبه صفحة مكشوفة للناس سواء في أدبه أو في رسائله.

والرسائل الخاصة: هي رسائل يكتبها صديق إلى آخر، لمشاعر متفاوتة تربط بينهما، إما (أب إلى ابنه، أو زوج إلى

زوجته، أو عاشق إلى معشوقه، أو أديب إلى كاتب)، غير أن لكلِّ إنسان صَفِياً يُودِعُه أسراره، ويختصه بالبوح.

كان الكاتب عباس محمود العقاد يتبسط مع صديقه عبد الرحمن صدقي في رسائله أكثر من سواه، وكذلك مصطفى صادق الرافعي مع صديقه محمود أبو رية، إذ ترتفع الكلفة بينهما، وقد لا يتحرّج الأديب من ذكر أسراره الخاصة وسردها لصديقه. وهذه الرسائل هي أهم ما يكشف لنا عن عالم الأديب النفسي الداخلي.

وإنَّ كثيراً من الرسائل الخاصة التي لا تدخل في عالم المشاعر والأحاسيس بل تعنى بأمور الحياة العامة، هي على بساطتها لا تقل أهمية عن الرسائل الذاتية الوجدانية، إذ نقف من خلالها على كثير من المعلومات التي تتصل بنتاج الأديب، واتجاهه الفكري، والمشكلات التي تعترض إبداعه، سواء أكانت صحية أم إدارية أم مالية، كما تكشف عن تفاصيل حياته، وانتمائه السياسي، وآرائه الاجتماعية، واهتماماته الثقافية، فهي من أهم الوثائق التي نجدها في السير والتراجم.

كانت الرسائل منذ القدم محط عناية الباحثين، حتى إن بعضها كان يكمل أدب الأديب ويوضحه ويغنيه.

ولا بد من الإشارة إلى أهمية الرسائل التي وجهها النبي **r** إلى الملوك والقادة في عصره، يدعوهم فيها إلى الإسلام،

كرسائله إلى المقوقس وهرقل وسواهما، ومع أن تلك الرسائل لا تدخل في باب الرسائل الخاصة، إلا أنها تعدّ وثائق تاريخية هامة.

وقد عرفت الرسائل الشخصية الخاصة منذ اختراع الكتابة.. وكانت من أبرز وسائل الاتصال، وفي الأدب العالمي احتلت الرسالة مكانة متميزة، فقد امتدت يد النشر إلى كثير من الرسائل الخاصة التي كان الأدباء والعظماء يتخذون منها وسيلة للتواصل، وفي ذلك يقول «البروفيسور ستارلنغ»: [**إنَّ دراسة رسائل العظماء، تبعث في النفس متعة كبيرة، وقليل منا مَنْ يكتب قصصاً أو روايات أو قصائد، ولكنا جميعاً نكتب الرسائل.**]. وتمتاز الرسائل الوجدانية الخاصة بأنها تعبر عن شخصية كاتبها، فهو لا يتكلّف ستر دخيلته كما يفعل في كتاباته الموجهة إلى الناس، فهي تعدّ خير وسيلة للكشف عن أعماق النفس.

كما تقاس قيمة الرسائل الخاصة بصدقها، لأنها تكتب بمداد القلب، بكل بساطة. إذ يستسلم الكاتب إلى مشاعره الحقيقية بلا تكلف أو مواربة، لذلك نلاحظ أن كتّاب الرسائل الخاصة من المبدعين، يتجنبون المجاملات الزائفة، والنفاق الاجتماعي في كتابتها، ويعكسون شجاعتهم، وعظمة نفوسهم فيها.

وقد جمعت رسائل كثير من العظماء في العالم، فكانت كنزاً أدبياً، ومرجعاً هاماً لفهم أفكار أصحابها. ولم يقتصر الأمر على جمع رسائل العظماء، فإنَّ بعض الناس العاديين شهّروا برسائلهم حتى صُنِّفوا في عداد الأدباء البارزين.

وفي التراث العربي الأدبي عني المؤرخون بجمع الرسائل الهامة، فحفظت، وعَرف الأدب مراسلات هي أقرب إلى الموضوعات العامة.

أما **الرسائل الخاصة**، فلم تكن تودع طي الكتمان لأنها كانت محدودة في موضوعاتها، كرسائل التعزية والتهنئة، فكان الأديب يثبتها في مؤلفاته كنموذج للكتابة الإبداعية، كما حفلت كتب الأدب بكثير من الرسائل الشعرية التي كان يتبادلها العشّاق، وكان بعضها من إبداع النساء، إذ تُظهر فيها المرأة مشاعرها الخفية والصريحة نحو مَنْ تحب، وكتب التراث حافلة بهذا اللون من الأدب الذي يثبت مدى الحرية الممنوحة للمرأة في مسيرة التاريخ العربي.

وعرف الأدب العربي ألواناً من الرسائل المتخيلة، يوجهها الأب إلى ولده أو الأم إلى ابنتها في معرض النصح والإرشاد.. ويمكن تصنيفها في باب الوصايا التربوية والخلقية. منها رسائل الشيخ إبراهيم اليازجي. ورسالة «إلى ولدي» لأحمد أمين، و«من والد إلى ولده» للكاتب أحمد عوض، وكتاب «ولدي»

لمحمد حسين هيكل، ورسالة الشيخ علي يوسف إلى روح ولده عمر، ورسائل «يحيى الجمل»..

ويدخل في هذا الباب ما يمكن أن نسميه بالرسالة المفتوحة، كرسالة عبد العزيز البشري إلى «جروزياني» في التنديد بجريمة إعدام الشهيد عمر المختار، كما اتخذت الرسالة إطاراً للسرد في القصص الفنية، فاستغلها الكاتب محمد حسين هيكل في روايته «زينب»، ومحمد السباعي في قصته «السمر»، وعباس محمود العقاد في روايته «سارة»، وإبراهيم عبد القادر المازني في كتابه «إبراهيم الثاني»، واعتمد مصطفى صادق الرافعي على خياله فأبدع «أوراق الورد» و«رسائل الأحزان» وسواهم كثيرون، جرياً على تقليد أدبي اعتمده الكتاب الغربيون والروس في العصر الحديث.

على أن أهم ما عرفه الأدب العربي المعاصر، احتفاء الأدباء بجمع رسائل الأعلام من شعراء ومفكرين، وهي رسائل خاصة تفاوتت غرضاً وأسلوباً. ومنها «رسائل الرافعي» التي جمعها «محمود أبو ريّة»، و«رسائل جبران إلى مي» التي جمعها «جميل جبر» و«رسائل مي إلى جبران»، التي جمعتها الأديبة «سلمى الحفار الكزبري»، أو «رسائل أمين الريحاني» إلى أهله وأصدقائه، و«رسائل طه حسين» الأدبية، و«رسائل العقاد» التي جمعها الأديب محمد محمود حمدان.

ويتفاوت الأدباء في حرصهم على نشر رسائلهم وحجبها عن الناس، فقد يرى «العقاد» أن هذه الرسائل هي ملك القراء، فمن حقهم أن يطلعوا عليها، وكذلك «ميخائيل نعيمه» الذي طلب من مراسليه أن يردّوا له ما كتبه من رسائل لنشرها.

ويذهب الكاتب الأديب «سامي الكيالي» في دراسة له عنوانها: «الرسائل الخاصة»(١)، إلى أن الرسائل شخصيات معنوية حيّة، ومن الظلم أن تعيش حياتها في سجن مظلم، أو يكون مصيرها التمزيق، ويطرح مشكلة قانونية نشر الرسائل الخاصة بعد وفاة صاحبها، ويستعرض القوانين الدولية المعتمدة بهذا الشأن، التي ترى أن الرسائل تكون ملك المرسل، وله الحق في استردادها، حتى إنَّ نظام البريد يسمح لصاحب الرسالة أن يستردها قبل وصولها إلى المرسل إليه، وأنها تصبح من حق المرسل إليه منذ تسلمها، وله الحق في تمزيقها، وليس للمرسل أن يرغمه على إعادتها، لكنه لا يستطيع نشرها إلا بعد إجازة صاحبها، وفق مبدأ حق كتم السر، إلا أن الدوائر القانونية ترى جوراً في ذلك، فإن بعض الرسائل الخاصة تدخل في دائرة الإبداع الأدبي، وقد لا يكون فيها أسرار خاصة... وإن في عدم نشرها خسارة للأدب.

---

(١) الرسال الخاصة ... دراسة للأديب سامي الكيالي - مجلة «المجلـــة» المصرية.

وأعتقد أن ما نشر من رسائل المبدعين من ردود عليها، لم تتناوله الأقلام بالدراسة، وأن فن كتابة الرسالة.. والخاصة بمعناها الضيق، لم ينل اهتماماً من الدارسين عبر تاريخ النقد العربي، وهذا مما يشي بقلة الاهتمام بالرسالة، وعدم الاعتراف بها في مجال الأدب، وإن ما كتب حولها لا يتجاوز إلماحات عابرة لا تقيم منهجاً ولا تستخلص سماتاً.

وخلال تحليل الرسائل، نلمس هواجس عاطفية ونزعات فكرية وآراء أدبية ونقدية قيمة، وفيها كشف داخلي لشخصية كاتبها، لاسيما تلك الموجهة إلى صديق مخلص أو أب ملتاع، فدراستها خير معين لفهم نفسية أصحابها وتفكيرهم لتقويمهم، وقد لا يسمح اتساع مجالها بالوصول إلى نتائج حاسمة أو تحليل ضارب في العمق، لكنه يفتح آفاقاً حديثة في الأدب العربي لدراسة شاملة وناجعة.

* * *

الرسائل الخاصة

للباحث سامي الكيالي

- ١ -

للرسائل الخاصة التي يكتبها صديق إلى صديق تجمع بينهما وحدة الفكر، وأب إلى ابنه، وولد نازح إلى أمه، وزوج إلى زوجه، وعاشق إلى معشوقته، ورئيس إلى مرؤوسيه، وأديب إلى شاعر، وشاعر إلى ناقد أديب - إن لهذه الرسائل ذات المنازع المختلفة أثرها في الكشف عن الكثير من مكنونات الصدور، وقيمتها أنها تعبر تعبيراً صادقاً عن أحاسيس تختلج في ضمير كاتبها.. ذلك لأن كلماتها تنثال من قلم مرسلها بصورة عفوية.. وكثيراً ما يبوح بأشياء قد لا يبوح بها إذا علم أنها ستذاع وتنشر. ولو أيقن أن أحداً غير الذي كتبت له سيطلع عليها لآثر أن تظل حبيسة في صدره.

وسرٌّ ذلك أن الإنسان يكتب إلى من اصطفاه بودِّه وائتمنه على سره، يشعر وكأنه يكتب إلى ذات نفسه.

هنا، ينطلق القلم ليرسم خلجات عواطفه وأحاسيسه، أمنياته وهواجسه، آلامه وشجونه - يكتبها بحرية وانطلاق، لوثوقه أنها ستظل دفينة لا يباح نشرها، وقد كتبت لتقرأ ثم لتمزق وتحرق.

وهذه الرسائل نوعان: بعضها يحتوي على أمور شخصية تافهة تقرأ ثم تمزَّق وترمى... وبعضها تفيض بالعواطف الزاخرة وتعبِّر عن آراء في الحياة والأدب، وقد ترمز إلى أشياء لها مساس بالمجتمع الذي عاش مرسلوها في خضمِّه، وصورت عاداته وتقاليده، انتفاضاته وثوراته - هذه الرسائل هل يجب أن تظل إلى الأبد؟.. في اعتقادي... لا...

وإذا سُجنت في أدراج المكاتب فيجب ألا يطول سجنها.. وليكن شأنها مثلاً - والقياس مع الفارق كما يقولون - شأن الذين يُنــزل القضاء بهم أحكامه الصارمة، فمهما طال سجن هؤلاء فلا بد من إطلاق سراحهم في يوم قريب أو بعيد.

وفرقٌ كبير بين شخص اقترف جريمة وبين فكرة حرة سجنت أعواماً ويراد أن تظل حبيسة إلى أمد طويل ثم تسلم للأيدي العابثة التي لا تدرك قيمتها لتصبح طعمة للنيران!..

إن الرسائل ذوات شخصيات معنوية حية، ومن الظلم الفادح أن تعيش حياتها في سجن مظلم حتى إذا رأت النور كان نصيبها التمزيق، ثم الموت. وما دام لمثل هذه الرسائل هذه الصفة

المعنوية الحية، فيخال إليَّ أنْ ليس في إذاعتها أي تجنٍّ أو جرمٍ.. ولاسيما إذا كانت تضم نزعات حرة وآراء جريئة، وأفكاراً حية لها صلة وثيقة بالحياة والمجتمع، وبما هو أوسع مدى من جميع هذه الآفاق.

وإذا عرفنا أن للرسائل أدبها الخاص المتميز، وكانت منذ القدم مادة خصبة لعدد كبير من كبار الأدباء - أدباء الغرب وأدباء الشرق الذين أودعوا الكثير من آرائهم المنطلقة وثقافتهم اللغوية الواسعة في رسائل خاصة - قدَّرنا قيمة هذا اللون من الأدب، ولنذكر على سبيل المثال «رسائل المعري». فقرَّاء الأدب يذكرون ولاشك، ما كان بين علي بن منصور الحلبي الملقَّب بدوخلة، والمعروف بابن القارح، وبين أبي العلاء المعرِّي من تراسلٍ.. وكيف ظفر الأدب العربي برسائل عدة أخلدها «رسالة الغفران». وهي في الأصل جواب على رسالة طلب إليه فيها أن يبدي رأيه ببعض قضايا الفكر وألح عليه بالجواب.. فلم يبخل أبو العلاء بالإجابة، ورآها فرصة سانحة أن يكتب آراءه الصريحة في البعث والنشور، في الشك واليقين. في أخلاق الناس وطباع البشر، وفي الكثير من نوازع نفسه التي انطلقت ترسم في هذه الرسالة الخاصة رحلته الفريدة إلى الجنة وإلى الجحيم يلقى في جنباتهما المؤمنين والجاحدين، من فازوا بالمغفرة ومن حُرموها بالدار الآخرة.

و«رسالة الملائكة» التي أملاها جواباً على رسالة سائل في موضوع صرفي بحت، وتكاد تكون صورة مصغرة لرسالة الغفران.

وقد اختلف النقاد هل كتبت قبلها أم بعدها. هناك من يقول: إنها كتبت بعد الغفران، وحجتهم على ذلك استدراكه ما فاته فيها من شؤون أدبية، تفصح عن ثقافته اللغوية الممتازة.

و«رسالة الشياطين» التي كتبها إلى أبي الحسن أحمد بن عثمان النكتي البصري والتي تناول فيها موضوع «شياطين الشعراء».

و«رسالة الآخرين» و«رسالة المنيح» و«رسالة الإغريض» التي بعث بها أبي القاسم المغربي، ثم رسائله إلى داعي الدعاة الفاطمي.

هذه الرسائل الخاصة ثروة ضخمة لو لم تنشر لافتقدنا الكثير من عبقرية أبي العلاء الفذة.

وقلْ مثل هذا عن رسائل ابن المقفع، ورسائل الجاحظ، ولا سيما رسالته الفريدة «التربيع والتدوير» آية الآيات في أدب الهزء والسخرية والتي صور فيها الطباع البشرية أصدق تصوير.

ورسائل ابن العميد التي بوَّأته مركزاً ممتازاً في فن الكتابة حتى قيل: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد، وهي

رسائل تميزت بالصياغة اللفظية، فأولى السجع الكثير من عنايته، واهتم بالمحسِّنات البديعية، وحرص على تزيين رسائله بالآيات القرآنية والأحاديث المأثورة والأمثال السائرة والأشعار المشهورة، فكان إماماً يُقتدى بهذا اللون من الكتابة ونسج على منواله كثيرون.

وعرف الأدب العربي بعد ابن العميد لونين من أدب الرسائل: الإخوانيات والديوانيات.

ونحن نقرأ في كلا اللونين طرائف عجيبة قد لا تستسيغها أذواقنا في عصرنا هذا، ولكنها تمثل أدب تلك العصور تمثيلاً صادقاً. فرسائل الصاحب بن عباد الذي احتذى حذو أستاذه ابن العميد ونسج على طريقته - أريدُ ولعه بالسجع والمحسِّنات اللفظية التي طغت طغياناً صارخاً على أدبه وعلى أحاديثه حتى قيل فيه، إنه لو رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبْل الدولة لما هان عليه التخلي عنها - أقول: إن رسائل الصاحب بن عبَّاد التي تجمع بين الإخوانيات والديوانيات - بين التهاني والتعازي والمداعبات والشفاعات والنوادر والفكاهات إلى البشائر والفتوح والمصالح والعهود، والثغور تُصوِّر لنا عصر بني بويه، وتصور التقاليد الفارسية في المجتمع العربي أصدق تصوير. فهي كما قال المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام الذي نشر هذه الرسائل مع الدكتور

شوقي ضيف: «وثائق تاريخية مهمة في أمور الدولة البويهية السياسية والاجتماعية».

- ٢ -

أسلوب الرسائل هذا قد ذاع وشاع بين صفوة من رجالات الأدب ولاسيما في القرن الخامس والقرن السادس إلى نهاية الفترات التي اعتدنا أن نسميها فترات عصر الانحطاط. وممن تميز بهذا اللون من الأدب (أبو بكر الخوارزمي والصابي وبديع الزمان الهمذاني والقاضي الفاضل وابن الأثير) وغيرهم.... من الذين جعلوا همَّ رسائلهم الزخرف والتنميق، والترادف والإطناب والطباق والجناس، ورصف الألفاظ، والاعتماد على السجع وكل ما يتصل بالمحسِّنات البديعية.

كان لهذا الأسلوب البياني أثره في أدباء الأندلس الذين اعتمدوا أدب الرسائل فتركوا رسائل تفصح عن ظواهر الحياة في الأندلس - طبائع الناس، أهواء الأمراء والملوك - الضغائن والأحقاد، الدسائس والمؤامرات، الحب والغدر، التزلُّف والرياء، وإلى ما شئت من خصائص النفس البشرية.

لقد صيغت تلك النفحات بقوالب ضيقة من مملكة السجع. فرسائل ابن الشهيد في الحلواء، ورسالته في وصف البرد والنار والحطب، ورسالة «حانوت عطار» وغيرها تصور المجتمع

الأندلسي في بعض ظواهره. على أن أخلد رسائله رسالة «التوابع والزوابع» التي نهج فيها نهج أبي العلاء في «رسالة الغفران» مقلداً أكثر منه مبدعاً ولم يبلغ شأوه.

وابن زيدون في رسالتيه «الهزلية والاستنطاقية».

ورسائل لسان الدين الخطيب التي جمعها في كتابه: «ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب».

وعشرات الرسائل ومئاتها تأخذ حيزاً غير صغير من أدبنا.

فإذا تخطينا تلك العصور إلى بداية عصر الانبعاث، رأينا غير واحد من الأعلام قد نهجوا نهج الأدباء القدامى، (أريد أدباء الصنعة)، نذكر في طليعتهم الشيخ إبراهيم اليازجي الذي اشتملت رسائله على مكاتبات في الشوق والتهاني والتعازي والاعتذار والعتاب..

وترك عبد الله باشا فكري مجموعة مكاتبات مما يستعمل في المخاطبات بين الإخوان والأصدقاء.

كما دبجت يراعة الخوري بطرس البستاني مجموعة رسائل في جميع المواضيع المألوفة في فن التراسل سمَّاها: «الرسائل العصرية»، وليس لهذه الرسائل الأخيرة من قيمة، وقد أراد منشِئوها، على ما يخيَّل إليَّ، أن يعلِّموا الناس طرق التراسل في فترة مظلمة كانت الأميَّة فاشية بشكل مريع.

على أن ظاهرة جديدة عرفها الأدب العربي في فنِّ التراسل، وهي التعبير عن الخوالج الذاتية بأسلوب غاية في البساطة. وكان لابد من الاطلاع على ما يتبادله أدباء الغرب من رسائل. فنقل محمد السباعي نماذج من هذه الرسائل في الأدب والحب لغير واحد من كبار أدباء الغرب. كما نشر سليم عبد الأحد رسائل غرام بين أعاظم الرجال الأوروبيين وعشيقاتهم.

واعتمد مصطفى صادق الرافعي على خياله الخصب، فأصدر «رسائل الأحزان» في فلسفة الحب والجمال، وهي تخرج عن مضمون الرسائل الخاصة وإن صبَّها في قوالبها.

وصدر لسامي الجريديني «الرسائل الضائعة» وهي موضوعة على لسان فتاتين فرنسيتين تسكن إحداهما في لندن والثانية في باريس، وقد أحب أن يكتب عن طباع الفرنسيين وخُلُق الإنكليز، ويعطى أمثلة عن طراز معيشتهم وخصائص خُلقهم، فأجرى على لسان الفتاتين آراءه في إطار لطيف من الرسائل المتبادلة.

وكان أحمد حافظ عوض صاحب جريدة «كوكب الشرق»، يبعث إلى ابنه جمال الدين تلميذ الكلية الأمريكية في بيروت، رسائل توجيهية ذات طابع أدبيٍّ وتربويٍّ جمعها ابنه في كتاب

ضم آراء طريفة وإرشادات حصيفة في السلوك وتعلّم اللغات والترجمة والتاريخ والأدب، واختيار المهنة بعد التخرج من المدرسة، وسبل النجاح في الحياة، ومع أنها كتبت قبل خمسين سنة تقريباً، فهي أقرب إلى روح عصرنا منها إلى عصر التزمت اللغوي، تتميز بسهولة أسلوبها، ونزعتها الفكرية المتحررة التي تماشي روح التطوُّر في بداية القرن العشرين.

وعلى هذا النسق رسائل أحمد أمين إلى ولده، وهي تفيض بالحكمة والحنكة والحنوِّ بأسلوب غاية في السهولة والإشراق، بل هي دروس تربوية رصينة صبَّ فيها صاحب فجر الإسلام خلاصة تجاربه في الحياة، وفي هذه المشاكل التي يواجهها الشباب في عصر اضطربت فيه القيم ولاسيما القيم الأخلاقية.

وقصة «القصر المسحور» لطه حسين وتوفيق الحكيم. إنها رسائل تبادلها الأديبان وهما في مصيفهما في ضاحية سالش الباريسية عام ١٩٣٥. وهذه الرسائل وإن خرجت عن موضوع الرسائل الخاصة إلا أن فكرتها جرت في إطارها الجميل.

ورسائل جميل صدقي الزهاوي إلى أحمد محمد عيش الذي نشر بعضها في مجلة «الكاتب المصري»، تفصح عن الكثير من حياة الزهاوي الخاصة، ونزعاته الفكرية المنطلقة.

ورسائل الآنسة مي وجبران خليل جبران، تفيض بالشوق واللوعة والحب والحنين - الحنين إلى لقاء يطفئ ما اضطرم

في فؤاديهما من عواطف، ولم يكن الحب المتبادل مادة هذه الرسائل، بل الآراء التي صبَّها جبران في رواياته ورسمتها ميّ في مقالاتها.. وعلى الرغم من تحفظ الأديبة في التعبير عن مشاعرها مراعية روح التزمت الذي كان يطبع المحيط الذي عاش جبران في جوه وهو في أمريكا - على الرغم من كل ذلك فإن قارئ هذه الرسائل يحسُّ بوقدة الحب التي كانت تلامس وجدانهما، وكل خالجة من خوالج نفسيهما.

وآخر ما صدر بهذا الشأن، رسائل أمين الريحاني إلى أهله وأصدقائه وأصفيائه من رجالات الفكر وهي ترينا لوناً جديداً من أدب الرسائل في فترة نصف قرن من حياتنا الفكرية، إذ تكشف عن أهواء الريحاني وأشواقه، عن همومه وآلامه، عن كرهه ومحبته، عن فشله ونجاحه، عن مبادئه وتناقضاته، عن كل ما جاش في روحه واعتلج في صدره.

حقّاً «إن الرسالة الشخصية هي مثال الصداقة الخالصة أو الكره المقيت، هي انطلاق وتحرر من كل قيد قد يلجأ الكاتب في غيرها إلى بعض التعمُّل والمسايرة، هي مرآة لروح الكاتب أكثر منها لأدبه».

- ٤ -

هذا وقد عرف الغرب هذا اللون من الأدب، واهتموا به اهتماماً بالغاً، وقد لا يمر شهر إلا وتقذف المطابع كتاباً يضم

رسائل لأديب أو شاعر أو سياسي أو قائد له مقام مرموق في عصره.

يقول البروفسور ستارلنغ أستاذ الأدب الإنجليزي بكلية الآداب بمصر سابقاً:

«إن دراسة رسائل العظماء تبعث في النفس متعة كبيرة، فقليل منا من يكتب قصصاً أو روايات أو قصائد ولكنا جميعاً نكتب رسائل.. ولذلك كان في وسع كل مثقف أن يفتح أي مجموعة من الرسائل الإنكليزية، ويشعر باستطاعته تقديرها وفقاً لاختباراته الخاصة.

والرسائل تعرفنا إلى الأشخاص لا إلى الإنتاج الأدبي، وهذا هو سرٌّ قيمتها وروعتها، فإننا نجد عظماءنا في رسائلهم على حقيقتهم، ذلك أنه عندما يكتب رجل إلى صديقه أو أبيه أو ابنه، لا يتخذ شخصية تخالف حقيقته، وإذا كان ذا طبع منطلق طائش كالشاعر بيرون Byron فلن يتكلف طبعاً تكلفاً، وإنما يرغب في أن يفهم لا في أن يترك تأثيراً في نفس قارئه، وإذا كان ذا طبع حيي متحفظ، كالشاعر غراي Gray فهو يظهر شخصيته في رسائله بشكل ليس من الممكن أن يظهرها فيه مع الجماعة».

«وفي بعض الأحيان تظهر الرسائل بعض الخصائص التي قلما يتعرض لها التاريخ في تصوير حياة الكاتب، خذ مثلاً

الطابع الرائع الذي يتجلى في رسائل اللورد ستافورد Staford إلى ولده وقد كتبها قبيل إعدامه سنة ١٦٤١، فالتاريخ يصور لنا اللورد ستافورد كشخص متكبر عاطفي، عابس، يحطم أصدقائه وخصومه دون شفقة إذا اعترضوا سبيله، أما رسائل اللورد ستافورد؛ فتصوره لنا أباً حنوناً محباً، يبذل النصح لولده، ويسأله ألا يسعى إلى التأثر لإعدامه ويأمره فوق كل شيء «بالعناية بشقيقته».

إذاً ، فرسائل أحسن كُتّاب الرسائل تلذ لنا بما تجلو من شخصيات كتابها، وهي أيضاً تكشف لنا أخلاق العصر الذي كتبت فيه وعاداته، وبما أن الرسائل التي وصلت إلينا كانت قد كتبت إلى الأقرباء أو الأصدقاء الحميمين فهي تطلعنا على لمحات وثيقة من صميم الحياة العائلية، فكثير من الرسائل كتبها الآباء إلى أبنائهم وضمنوها نصحاً رشيداً حول السلوك في الحياة.

ويتابع سترالنغ الحديث عن كتابة الرسائل بقوله:

«ومن الصعب تعريف السرِّ في كتابة الرسائل الموفقة، فأكثرية الرسائل التي بقيت لنا تمتاز برقتها وسهولة أسلوبها، غير أن ذلك وحده ما كان ليكفل لها الخلود، فقد عبر جيمس

هويل - (James Howell وهو من أسبق كتاب الرسائل الإنكليزية وأعظمهم في عصره) - عن آرائه في سرية كتابة الرسائل الجيدة، فقال فيما كتب سنة ١٦٥٥: (يجب أن نكتب كما نتحدث، فالرسالة الصادقة المألوفة، هي تلك التي تعبر عن خواطر كاتبها كأنما كان يحادث الشخص الذي وجه إليه الرسالة بعبارة قصيرة وجيزة، وخير الكلام ما قل ودل، إن كلا اللسان والقلم مترجمان عن العقل، غير أني أعتقد أن القلم أكثرهما وفاءً)».

وهناك كاتب عظيم من كتّاب الرسائل في الأدب الإنكليزي يخالف «هويل» في مادته مخالفة كبيرة، ولكنه يوافقه في تقديره لفن الرسائل، وهو الشاعر ويليام كوبر William Couper الذي يرى أن الرسالة يجب أن تكتب «كما تدور المحادثة» وأن تدور حول شيء أو لاشيء، كما قد يصدف أن يحدث شيء «أو لا يحدث شيء».

* * *

وتؤلف رسائل أدباء الغرب ثروة ضخمة من أدبهم، وهم شديدو الحرص حتى على الأسطر التي يجريها الأديب على بطاقة صغيرة، فقد يرون فيها ما يفصح عن الكثير من أخلاق الكاتب وأهوائه.

نشر بول سان كلير دافيل، منذ بضع سنوات رسائل لفولتير تدور حول أمور تافهة ليست ذات بال، ومع ذلك يراها النقاد ذات قيمة لأنها ترينا بعض خصائص هذا العقل الجبار حتى في تافهات الأمور، وإن دل هذا على شيء، فعلى ما يعلِّقه النقاد من أهمية على ما تنطوي عليه الرسائل الخاصة حتى التي تدور على أمور طارئة ليست ذات بال.

آنسة إنكليزية، أخت زوجة قنصل إنكلترة بطرابلس، عاشت في ليبيا فترة طويلة بين سني (١٧٨٣ - ١٧٩٣) كانت تبعث إلى أقربائها وأصدقائها رسائل خاصة تبثهم شوقها وتصف انطباعاتها عن هذه البلاد التي كان كل مظهر من مظاهر حياتها يثير دهشتها. وقد جمعت هذه الرسائل في كتاب يحكي «قصة عشر سنوات في طرابلس بإفريقية» طبع في لندن عام ١٨١٧ أثار ما فيه من قصص وصور إعجاب المؤرخين، فاعتبروها من الوثائق التي تلقي ضوءاً على جانب كبير من حياة ذلك القطر، وبخاصة حياة أمرائه وأميراته ومباذل القصر الذي كان يفرض سيطرته على البلاد، إلى دسائس الأمراء ومغامراتهم.

ورسائل الزعيم الهندي «جواهر لال نهرو» إلى ابنته أنديرا، ترينا ألواناً جميلة من حياة الهند، كانت ابنته تصطاف في جبال هملايا، وكان هو في زحمة النضال الوطني في سبيل تحرير

الهند.. فما يكاد يخلو إلى نفسه حتى يرسل الرسالة تلو الرسالة إلى ابنته الصغيرة يبصِّرها بهذه الدنيا ويزوِّدها بثقافة عامة في شتى أمور الحياة وتاريخ الأمم، وهي غير الرسائل التي كتبها في السجن ونشرت بعنوان «لمحات من تاريخ العالم» وهي على جانب عظيم من القيمة الفكرية.

- ٥ -

وبعد فإن الحديث طويل جدّاً عن هذا اللون من الأدب، وحسبي هذا لأعود إلى ما كنت بصدده.

إنني في هذه الإشارة العابرة لا أريد أن أبحث هذا اللون من الأدب، بل أردت من إلماعي، أن أدل على ما للرسائل الخاصة من قيمة - هذه الرسائل التي انبثق عنها الكثير من الكتب والروايات هي في صميم مضمونها نفحات تعبر أصدق تعبير عن نوازع النفس وهجسات القلب ولمعات الفكر.

لا أريد أن أقول إن الرسائل التي أملكها شبيهة بتلك الرسائل، سواء من حيث الشكل أو المضمون - شكلها الفني ومضمونها الفكري - إذ ليس ثمة مجال للمقايسة، فهي أجوبة لرسائل طارئة في شؤون طارئة.

ولكن من يتأمل مضمونها، وأكثرها من أعلام المفكرين، يراها على جانب غير قليل من القيمة الأدبية، لأنها تصور

فترات من حياتنا العقلية أعتقد أن تمزيقها أو عدم نشرها إثم وأي إثم.

* * *

هذا. وقد رأيت قبل نشرها أن أرجع إلى قاضٍ كبير يتذوق الأدب، أستطلع رأيه فإذا به يدلي برأيه الصريح حول حق ملكية الرسائل الخاصة، وأنا أثبت هذا الرأي هنا تتمة للموضوع من جميع جوانبه[١].

- ٦ -

إن ملكية الرسائل الخاصة بحث طريف ودقيق، ووجه الدقة فيه يرجع إلى قلة مصادره وندرة القوانين الصادرة في موضوعه، فهو حق غير مقنن، غير أن الفقه والاجتهاد استقرا فيه على عدة قواعد أصبحت تعتبر من النظام العام والآداب العامة.

إن الملكية قد تكون مادية كملكية الأموال المنقولة وغير المنقولة. وقد تكون معنوية كالملكية الأدبية والفنية، ولكن ملكية الرسائل الخاصة هي نسيجة وحدها فهي ليست مادية فحسب ولا معنوية فحسب، بل إنها تكون ملكية مادية من جهة، وملكية معنوية من جهة أخرى.

---

(١) الأستاذ بدر الدين علوش من كبار قضاة سورية.

إن الرسائل عبارة عن أشياء منقولة قابلة للتملك. وتكون الرسالة ملك المرسل مادامت في البريد حتى إن أنظمة البريد تسمح لصاحب الرسالة أن يستردها قبل وصولها للمرسل إليه، وتنقطع ملكيته لها منذ اللحظة التي تسلم فيها للمرسل إليه.

إن الرسالة تصبح ملكاً للمرسل إليه منذ تسلمها وله ملء الحق في تمزيقها وإحراقها ولا يحق للمرسل أن يرغمه على إرجاعها إليه، ولا يحق له أن يتقدم بالشكوى والمطالبة بالعطل والضرر بسبب إحراق رسالته أو تمزيقها أو عدم إعادتها، وحق المرسل إليه في ملكية الرسالة، يقوم على مبدأ الحيازة وتنطبق عليه القاعدة القائلة: «إن المال المنقول ملك حائزه».

على أن المعضلة تبدأ عندما نريد أن ننظر في مدى الملكية التي يتمتع بها متسلم الرسالة أمطلقة هي هذه الملكية؟ أيستطيع متسلم الرسالة أن يتصرف بها تصرفاً تاماً أم أن حقه محدود ومقيد.

لقد أجمع الفقهاء والمشرعون على أن حق متسلم الرسالة ليس مطلقاً وإنما هو خاضع إلى قيود مختلفة، ومن أبرز هذه القيود أن متسلم الرسالة لا يستطيع نشرها بدون إجازة من صاحبها، وهنا يتحتم علينا أن نبحث عن أسباب هذا التقييد ومصدره.

إن أول سبب يعلل به الفقهاء عدم جواز نشر الرسالة بدون إذن صاحبها هو مبدأ (عدم جواز إفشاء الرسائل) وهو ما يسمونه «حق كتم السر». فهم يقولون إن صاحب الرسالة لم يرسلها إلى متسلمها إلا تحت شرط مضمر، وهو عدم إذاعتها فلا يجوز للمرسل إليه أن يفشي لصاحبه سراً أو يهتك له ستراً لأنه أمانة، وهذا التعليل هو الذي حدا بلامارتين في عام ١٨٤١ إلى أن يعترض في البرلمان على سن قانون بشأن المراسلات.

إن مبدأ عدم جواز إفشاء سر الرسائل هو مبدأ تقليدي لا جدال فيه، وقد قررته الشرائع القديمة وتشددت به الاجتهادات الفقهية الحديثة، وتعليله الحقوقي هو أن علاقات الناس قائمة على تبادل الحقوق والواجبات المادية والمعنوية، فالسر ضرورة اجتماعية يقابله واجب الكتمان، فهناك حالات تقضي على بعض الأفراد أن يبوحوا بأسرارهم في رسائلهم إلى أشخاص آخرين لوجود ضرورة أو مصلحة تلزمهم بهذا البوح، وفي هذه الحالة يتوجب كتمان هذه الأسرار وتترتب العقوبة على إفشائها. لقد استقر اجتهاد أكثر المحاكم في العالم على أنَّ حفظ السر قاعدة من قواعد النظام العام، لأنه يقوم على مبدأ اجتماعي وقاعدة أخلاقية عامة، وإذا أردنا أن نضرب مثلاً على مبلغ احترام سرية الرسالة فيكفي أن نذكر رسائل المحامي على سبيل المثال، إن لرسائل المحامي حرمة كحرمة مكتبه فلا يجوز لأحد أن

يطلع على الرسائل التي يتبادلها مع موكله، كما لا يجوز لأحد مصادرة هذه الرسائل من السجن أو من دائرة البريد أو من شخص آخر حتى قبل أن تصل إلى المحامي، فقد قررت محكمة التمييز الفرنسية بتاريخ /٣/ أيلول عام ١٨٩٧ أنه لا يجوز لقاضي التحقيق أن يصادر رسالة الموكل إلى محاميه ولو كان يعترف له فيها بجرمه، فإذا فعل ووضعها في اضبارة التحقيق واستندت إليها المحكمة أو تأثرت بها في حكمها على أقل تقدير، فيكون حكمها باطلاً، ويجوز في هذه الحال الادعاء بالعطل والضرر على قاضي التحقيق أو على الشخص الذي صادر الرسالة، لأن سرية المراسلات من النظام العام.

على أن هذه النظرية (وهي عدم السماح للمرسل إليه بنشر الرسالة بدون إذن صاحبها بحجة سريتها)، ليست مقنعة على الرغم من تمسك كثير من الفقهاء بهذا التعليل، وأن الانتقادات التي توجه إلى هذه النظرية هي أن هنالك رسائل ليس فيها شيئاً سرياً وإنما تبحث في مواضيع علمية وأدبية وفنية، فلماذا يمنع المرسل إليه من نشرها بدون إجازة من صاحبها، وهذا ما حدا بكثير من الفقهاء ورجال الحقوق إلى إيجاد أسباب أخرى غير نظرية إفشاء السر، ألا وهي نظرية الملكية الأدبية.

إن أصحاب هذا الرأي يقولون: صحيح، إن موجه الرسالة يتخلى عن الملكية المادية ولا يبقى له حق في استرجاعها، غير

أنه بقي بينه وبين عمله رابطة متينة هو الحق الذي لكل امرئ في منع إذاعة فكره، وبكلمة مقتضبة، هو حق «الملكية الأدبية». والقانون الذي يحمي هذا الحق لا يبدي تمييزاً بين أنواع الكتابة، بل ويبسط حمايته على جميع الكتابات من أي نوع كانت.. ومن جملتها الرسائل الخاصة.

إن متسلم الرسالة يملك الرسالة التي أصبحت في حوزته والتي هي عنصر مادي: أي يملك تلك الورقة التي حررت عليها الرسالة ولكنه لا يملك حق نشرها في كتاب أو جريدة بدون إذن صاحبها لأن مضمونها يبقى ملك منتجها ومؤلفها.

المفروض أن يكون لديه صورة عنها لأن هذا الحق لن يكون للمرسل إليه، لأن الفكر شيء شخصي وغير قابل للحوالة بدون إجازة صريحة.

هذه هي الخطوط الرئيسية لملكية الرسائل الخاصة. وقد يتفرع عنها بعض الآراء التي لا نرى بداً من الإشارة إليها.

١ - إذا كان متسلم الرسالة لا يحق له أن ينشرها بدون إجازة، فهل يملك مرسلها هذا الحق أيستطيع المرسل أن ينشر الرسالة التي أرسلها إذا وقع اعتراض من المرسل إليه؟..

يقول البعض: إن صاحب الرسالة يستطيع ذلك تحت شرط مزدوج، وهو ألا يذيع اسم المتسلم، وألا يسبب له ضرراً ولو كان أدبياً.

٢ - هل ينتقل حق صاحب الرسالة إلى ورثته؟

إن الفقهاء مجمعون على أنَّ حق المورث ينتقل إلى ورثته وإن قانون عام ١٧٩٣ في فرنسا، اعترف للورثة بمثل حق المورث، وقد اعترف بذلك لورثة جورج صاند عام ١٨٩٧، ولورثة ماريميه عام ١٩٠١ ولورثة ليكونت دوليل عام ١٩٠٤ ولهؤلاء الورثة الحق كله في الاعتراض على نشر رسالة أودعها مورثهم أسراراً من شأنها المس بشرف العائلة.

٣ - بقي علينا أن نعلم، هل يحق لمتسلم الرسالة أن يعمد إلى بيعها؟..

وهذه المسألة حساسة للغاية وقد أجاب عليها الحقوقي الكبير: موريس كارسون بقوله: «إن المحاكم لم تصدر حتى الآن إلا أحكاماً متشابهة تلخص في أنه ليس ثمة قانون يحظر على المالك بيع الرسائل المرسلة إليه».

إن هذه القضية كثيراً ما أزعجت الكتاب والفنانين، وقد سمعنا عدداً كبيراً من الأدباء المعاصرين يتذمرون من تجاوز البعض حدود اللياقة والذوق ببيع رسائلهم حتى اضطر بعضهم إلى الامتناع عن كتابة رسالة خشية أن تصبح موضوع مساومة، وإنني أروي هذه القصة الطريفة على سبيل المثال:

لقد تبادل الأديبان الفرنسيان الكبيران: بيير لويس وبول فاليري رسائل عدة، وكان الأول في التاسعة عشرة من عمره

وكان الثاني في الثامنة عشرة من عمره، وقد بلغ عدد هذه الرسائل (٤٩) رسالة، منها (٢٥) رسالة لبيير لويس، و(٢٤) رسالة لبول فاليري.

وفي عام ١٩١٩ أحب بيير لويس نشر هذه الرسائل الأدبية، فطلب رسائله من بول فاليري، فبعث بها إليه ولكنه مات قبل أن يتمكن من نشرها، وقد أقدم ورثته على عرض الرسائل التي تبادلها الأديبان الكبيران في (أوتيل دروو) بباريس وعلى بيعها في المزاد العلني.

لقد كان إميل هنريو أحد الذين اطلعوا على هذه الرسائل، فكتب مقالاً ناقش فيه بعض الآراء الواردة فيها ولما اطلع بول فاليري على هذا المقال، تألم كثيراً، وأظهر استغرابه لهذا القانون الذي يجيز للغير بيع رسائله وهو على قيد الحياة. وقد أرسل احتجاجاً إلى الصحف جاء فيه: «لقد تأثرت كثيراً من رؤيتي وأنا حي رسائل لم تكن إلا لإنسان واحد تعرض عند الباعة وفي المزاد العلني ويشتريها من أراد، وإنه لمن الغرابة ألا يشمئز إلا نفر قليل من كراهة ما في هذه المساومة بالمال على أفكار الأفراد ومشاعرهم، فروح قوانيننا المدنية من الدناءة بحيث إن القانون لا يميز فيما يتعلق بحق الملكية وبين رسالة خصوصية وأية ورقة أخرى.

ويؤسفني أن أضيف إلى ذلك، أن التشريع لم يسع لوضع حدٍّ لإساءة استعمال الملكية. فقد استشير أحد كبار المشرعين في هذه المسألة فأجاب: ليس للمرء إلا أن يحسن اختيار مراسليه إذا خشي إذاعة رسائله، إذن، سأفكر من الآن فصاعداً في اختيار من يرث رسائلي.

وعلى إثر ذلك كتب الحقوقي الكبير: موريس كارسون مقالاً عالج فيه هذه القضية، وطالب بسن قانون صريح يمنع بيع رسائل الأحياء، لكنه تعرض نتيجة ذلك إلى حملة أدبية شديدة في ذلك الحين، وملخصها: أنه لولا المتاجرة بالرسائل لما وصلت إلينا رسائل (فواتور) التي كشفت ناحية جليلة من أسرار (أوتيل دور امبواية) ورسائل فولتير، وشاتوبريان، ومدام دو سافينيه التي ألقت أضواء كاشفة على حياة أولئك الأدباء ومؤلفاتهم.

هذا ما خطر لنا بحثه في موضوع ملكية الرسائل الخاصة. وإذا كان لهذا الحديث من خلاصة، فخلاصته أن الرسائل تؤلف موضوعاً لحقوق عدة:

(أ) حق الملكية المادية على الرسالة وهي لمصلحة المرسل إليه.

(ب) حق الملكية الأدبية على مضمون الرسالة وهي لمصلحة المرسل.

(ج) - حق (كتم السر) وهو لمصلحة المرسل والمرسل إليه والأشخاص الآخرين.

-٧-

هذه الرسائل الخاصة ما أكثرها...

هي عندي وعندك أيها القارئ، وعند الأدباء والشعراء بصورة خاصة. ومن الغضاضة على الأدب - في اعتقادي - أن تظل هذه النفحات مطوية، وأن يظل أكثرها طعمة للنسيان. مع أنها، كما قلت، تضم آراء وعواطف وحوادث لها قيمتها، ولها دلالتها، ولها مغزاها، وعظمتها، فهل يفكر أدباؤنا بنشر مالديهم من رسائل - أقدر أنها تؤلف مجموعة من أدب جديد - أدب نفساني يكاد يكون مهملاً الإهمال كله.

وها أنا إذ أحاول أن أفتح هذه الناحية المغفلة، فأنشر ما لديَّ من رسائل.. هي على قلتها، تضم سطورها الكثير من الهجسات والأفكار - هجسات عاطفية وأفكار أدبية، ونزعات سياسية، وتأملات شخصية.. وهي تتحدث عن وقائع وأشخاص لهم مركزهم، ولهم مقامهم في عالم الفكر والأدب والسياسة أرجع إليها فأقرؤها بلذة، وما أكاد أنتهي منها حتى أطويها، وكأني هذا السجَّان القاسي القلب، البليد الشعور والذي أدخل إلى سجنه طفل بريء حكم عليه ظلماً أن يعيش في السجن سنوات وسنوات،

فأسائل نفسي: أليس من الظلم أن يكون هذا الطفل الوديع في أقبية هذا السجن المظلم؟

وكما يبيح السجان لنفسه أحياناً أن يثور على الأنظمة والقوانين فيطلق لسجينه المظلوم حريته، فأريد أنا أيضاً أن أطلق لهذه الزهرات العبقة المحكومة بالسجن المؤبد حرّيتها.

فقد أغضب بعملي هذا بعض أصحاب الرسائل.. ولكن لا.. فلن أغضبهم، ولن أثيرهم لأنني سأحتاط: أي سأحاول طيَّ بعض الأسماء.. أما إذا نمَّ الأسلوب عن الشخصية فليس الذنب ذنبي، وعلى كل فلن أذيع إلا ماله صلة بالعبق الجميل من شذى تلك الأزاهير. ولا أفكر أنني ضقت بهذا الجو المظلم الذي تعيش فيه هذه الزهرات، وقد ذبل أكثرها وكاد يدرك بعضها الفناء. ومن بواعث الوفاء نحو صديقاتي العزيزات الأثيرات إلى نفسي، أن أنقذهن مما هن فيه - من سجنهن المظلم.. وأن أمكِّن لهن سبل الحياة.. فمن حقهن أيضاً أن يثرن على هذا السجان لينعمن بجو مشرق وحرية منطلقة.

إن لديَّ رسائل كثيرة من أصدقاء خلص - من باريس، من برلين، من القاهرة، من العراق، من القدس، من لبنان وسورية، ومن الصعب أن أنشر هذه الرسائل، فهي تؤلف مجموعة خصبة

من الأدب العاطفي جديرة أن تنشر في كتاب، وقد فكرت في أن أنشر هذه الرسائل لأدل على أنماط من العقول الكبيرة حين تخط رسائلها وهي منطلقة من كل قيد، ولكني رأيت أن أختار بعضها مما له صلة بحياة الفكر، وهي ترمز إلى الكثير من وجداننا الأدبي وحياتنا العقلية وهواجسنا القومية.

وبعد؛ فلا أريد أن أسترسل في هذه التوطئة أكثر من هذا، ويخال إليَّ أن القارئ العزيز أصبح في شوق لأن يطلع على لون هذه الرسائل، وكل ما أرجوه ألا يصدر حكمه على قيمتها قبل أن يتلو، أكثر من رسالة... وأنا واثق أن هذه الرسائل ستحفزه لأن ينشر بعض ما يحتفظ به من رسائل كبار الكتاب إذا كان يحتفظ بمجموعة منها.

ومن يدري فقد يظفر أدبنا العربي بناحية جديدة عرفتها آداب الأمم الحية، ولم يجهلها أدبنا العربي.

* * *

تطور كتابة الرسائل عبر التاريخ

تضاربت الآراء في كون عرب الجاهلية يعرفون القراءة والكتابة، وبعضهم رأى في التجارة العامل الأول لانتشار الكتابة، فهي تفرض وجودها بما تساعد عليه من الاتصال بالشعوب الأخرى، وتسجيل الشؤون التجارية دفعاً للنسيان.

وكانت بعض الديانات، منتشرة في الجزيرة، وكان لابدّ والحالة هذه مِنْ تعلّم القراءة والكتابة لقراءة الكتب الدينية. ذلك أن ترجمة تلك الكتب إلى العربية، قد تمت في الجاهلية. ولم يكن لتلك الترجمات طبعاً ما للقرآن الكريم من البيان المعجز والسبك اللغوي المتين والإيقاع الذي يسهل الحفظ على الناس.

ولا شك أن نفراً كبيراً من الحضر والبداة، كانوا على تماسٍ مباشر بمراكز الثقافة الهلينية قبل الإسلام، وكان قسم من أساتذة هذه المراكز الثقافية في بيروت والإسكندرية عرباً تأثروا بالثقافات السائدة باللغتين اليونانية والسريانية. فمن البديهي أن يلتفتوا لتعلم القراءة والكتابة بلغتهم إلى جانب اللغات التي كانت

سائدة آنذاك ومنها العربية، ويشير «أدلري» إلى أن مكة عرفت نوعاً من الحكم الجمهوري قبل الإسلام، وكان لها دار أو مقر حكومة تعالج فيها المشكلات السياسية والاجتماعية وتعقد المعاهدات بين الأحلاف وتوثَّق، وقد كثر ذكر الكتابة في الشعر الجاهلي، كما حثّ القرآن الكريم على الكتابة والتوثيق في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ**﴾ [البقرة - ٢٨٢]. وذكر القرآن الكريم أدوات الكتابة مثل القلم واللوح والقرطاس، ويبدو أنه كانت هناك مراكز لتعليم العربية قراءة وكتابة في الحيرة وسواها من المدن. وأن نفراً من الكتّاب تخرجوا من هذه المراكز، وإن كان يعوزنا الدليل المادي؛ إلا أننا نستنتج وجودها ممن تعلموا الكتابة وكتبوا في صدر الإسلام ومنهم كتّاب الوحي وآخرون ذكرتهم المصادر، لا يتجاوز عددهم، أصابع اليد، وقد أوصلتهم بعض المراجع إلى أربعين. وكتب ثمانية منهم للرسول **r** منهم: علي وعثمان وخالد بن سعيد... ومنهم من كان يكتب بين الناس كالمغيرة بن شعبة، والحسين بن نمير، إلا أن عددهم كان محدوداً لانتشار البداوة والترحل.

وتعددت أغراض الكتابة في صدر الإسلام، فكان منها كتب العهود والمواثيق، والصلح والأمان الشامل أو العام. وكتب الدعوة إلى الإسلام. وكانت مضامين تلك الكتب متفاوتة، بعضها

لا يتجاوز سطرين، كرسالة الرسول r إلى الحارث بن أبي شمر الغساني:

[بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر. سلام على من اتَّبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، ويبقى لك ملكك]. ومنها ما هو مفصّل كالرسائل والكتب المتصلة بأحكام الدين وما يتطلبه الشرع من عبادات ومعاملات، ومنها رسالة، الرسول ÷ إلى معاذ بن جبل عامله على اليمن، ومن أوفاها ما كتبه لعمر بن حزم الأنصاري، وقد بعثه إلى بني الحارث بن كعب يعلمهم السنة، وحدد واجبات الوالي، ومنها الكتب التشريعية المتخصصة، وأوفاها كتابُ النبي ÷ في الصدقات، كتبه أبو بكر لأنس بن مالك حين ولاّه البحرين، وفصّل فيه ما يتعلق بالزكاة، ومنها الرسائل المتعلقة بالإقطاع والغنائم، والكتب الإدارية والتنظيمية، والرسائل المتعلقة بشؤون الحرب واستطلاع أمور العدو.

أما الرسائل المتعلقة بالأمور الشخصية والإخوانية والوجدانية، لم يصلنا منها إلا رسائل محدودة، وبعضها موجّه من شخص إلى آخر تربطه به علاقات إنسانية كالقربى

والمصاهرة والصداقة، وتعبر عن المشاعر الوجدانية في مناسبات محزنة أو مفرحة، ويبدو أن الممارسات الشفوية كانت أبرز في التعبير عن الوجدانيات كالخطابة والشعر.

*   *   *

أما منهج الرسالة في صدر الإسلام، فكانت تستهل بالبسملة، ونقل بعض المؤرخين أن النبي r كان يفتتح رسائله بعبارة باسمك اللهم.. وبعد نزول قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[هود - ٤١]. فكان الافتتاح [بسم الله ماشاء الله]، ويعني ذلك أن صيغاً متعددة كانت تستهل بها الرسائل في الجاهلية، واستعيض عنها بعد الإسلام بصيغة البسملة كاملة...

ويبدو أن منهج الرسالة كان له تقاليد نلاحظها في رسائل النبي r منها ذكر اسم المرسل وصفته مثل: [هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب..] ويليها ذكر موضوع الرسالة.. مثل: [هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو]. وفي مراسلاته ÷ إلى الملوك والحكام. كان يرد ذكر المرسل قبل المرسل إليه، ولو كان ملكاً أو عظيماً، تعظيماً لشأن الرسول r ورسالته.

وقد ترد التحية بعد البسملة، يعبر عنها بسلام عليك... ويلي السلام حمد الله الذي لا إله إلا هو، وقد يخصُّ السلام بمن اتبع

الهدى، وآمن بالله وصدَّق، وندر أن تخلو رسائل النبي r من السلام والحمد لمقتضيات خاصة، كأن تكون الرسالة سرية ولها صفة الاستعجال، وتختم الرسالة بتعبير يكرر السلام المطلق المشترط إن كان المرسل إليه غير مسلم. مثل: [والسلام ورحمة الله، يغفر الله لك.].

ويلخص الباحث الدكتور جابر قميحة، منهج الرسالة النبوية بالبنود الآتية:

- البدء بالبسملة والحمد.
- ذكر المرسِلْ والمرسَل إليه بدءاً بذكر الرسول r موصوفاً بالرسالة أو النبوة أو بهما معاً.
- ذكر موضوع الرسالة.
- الختام بالسلام...

* * *

أما **الخصائص الفنية في تلك الرسائل** فقد غلب عليها الإيجاز، الذي يفي بالغرض، ويُعنى بإبراز الفكرة الأساسية التي تتناولها الرسالة، ولو اقتضى ذلك الترادف لتوضيحها...

ومن الخصائص أيضاً المقابلات الأسلوبية بين الفكرة ونقيضها بلا تكلف، وبغرض التأكيد والإيضاح...

إن رسائل النبي r اتسمت بالوضوح والسهولة، وسلمت من الغريب والحوشي، فقد كان يحرص على أن يفهمها الناس دونَ عائق. لأنها تخدم الدعوة، فهو إليها أحوج، لينفذ إلى عقول الناس ومشاعرهم، فليس مستغرباً أن يصف الكاتب عباس محمود العقاد أسلوبه بأسلوب الفطرة المستقيمة، وهو يضارع في ذلك الزمن ما طرأ على الترسل في عصرنا من تحرر وانطلاق من قيود الصنعة، ومراعاة مقتضى الحال في الإبلاغ والتبليغ أو ما سماه الجاحظ بالبيان والتبيين، فقد روي عن النبي r أنه كان يبغض التكلف والتصنع في الكلام.

والترسل الذي يقوم ويعتمد على العفوية وبداهة الطبع لا يتيسر إلا لمن ملك ناصية اللغة، واختار ما فيها من صدى الجرس والإيقاع دونَ إسفاف في التعبير.

فرسائل النبي r هي صورة عن حديثه الذي تنزه عن سجع كهان الجاهلية، وتفاصح خطبائها وتقعرهم وولعهم بالكلام الغريب، قال الجاحظ: [كانوا يتكهنون، ويحكمون بالأسجاع.. فوقع النهي عن السجع لقرب عهدهم بالجاهلية، ولتبعيتها فيهم، فلما زالت العلّة زال التحريم].

وإذا كانت رسائل النبي r لا تخلو من ترادف في العبارات أو سجعة عفوية غير مقصودة، فذلك لا يتنافى والأسلوب

المرسل، لأن من خصائصه أن يستعين ببعض ضروب التزيين الأدبي التي تجمّل النص وترقى به.

ومن ألوان ذلك التزيين في الرسائل النبوية، استخدام الصور البيانية والتعبيرات المجازية في الكنايات الشائعة.

وبعد صدر الإسلام، اتسعت أغراض الرسائل، وتنوعت أشكالها، فقد ترتب على إنشاء الدواوين ظهور الرسائل الديوانية التي كان يوجهها الخلفاء والأمراء لتصريف أمور الحكم، وأخذت بعض الرسائل شكل الدراسة أو البحث في موضوع ما، حتى صارت مرادفة لمفهوم الكتاب. من ذلك: رسائل ابن المقفع، ورسائل الجاحظ، ورسالة الكندي، ورسائل إخوان الصفا، والرسائل التي تتناول البحوث والدراسات الأدبية والعلمية كرسالة الملائكة ورسالة الغفران للمعري، ورسالة التربيع والتدوير للجاحظ، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد.

ثم تطورت الرسائل الوجدانية أو الذاتية كرسائل التهنئة والتعزية والإخوانيات، ولم يعرف التراث النثري رسائل المحبين والعشاق لأن الشعر كان وسيلة التراسل بينهم منذ عصر بني أمية.

كما فرض تقسيم العلوم والآداب في العصر الحديث أن ينفرد مفهوم الرسالة بباب أو بابين واسعين لأغراض متشعبة، فظلت

الدراسات الجامعية والأكاديمية تعتمد اسم الرسائل كالأطروحات الجامعية، وبعض الكتب القديمة، كانت تسمى رسائل إذا غلب عليها القِصر، وأما الرسائل القصيرة بمعنى المكاتبات المتبادلة، فتشعبت إلى رسالة وظيفية، فمنها في العصر القديم رسائل عبد الحميد الكاتب، كالمراسلات التجارية والرسمية التي تعدّ امتداداً للرسائل الديوانية مع تحررها من التزيين البلاغي والأدبي..

وتفردت الرسائل الوجدانية الذاتية بنقل المشاعر والأحاسيس المتبادلة بين الأصدقاء والمحبين، ولكل منها منهجها وأسلوبها، وإن كانت تتفق في بعض الخصائص المشتركة، كالاستهلال بالتحية أو تجاوزها، ووجود الخاتمة التي تعبّر عن مشاعر الودّ والتقدير نحو المرسل إليه.

وأما العرض فيشترك مع المقالة والخاطرة في كثير من خصائص التعبير عن الأفكار الخاصة، والاقتناع الشخصي حسب طولها وحجمها بعد اختراع البرق والبريد والانترنيت، فهي اليوم من أبرز الفنون الأدبية وأشكال التعبير، فقد كان من فروعها البرقية الإعلان الذي يُعدّ لوناً من ألوان الرسالة التي تهدف إلى الدعاية والترويج... ولمكانته في حياة الناس وأثره في أفكارهم، أمسى اليوم فناً متطوّراً له شروطه وتقنياته.

* * *

أضـواء
على أدب الرسائل عند المرأة

ما من فن من الفنون الأدبية يمكن أن يكشف عن وجدان صاحبه كالرسالة، وبصورة خاصة الرسائل الوجدانية، مع أن بعض النقاد يذهبون إلى أن الشعر والقصة هما أقدر على الكشف عن نفسية الأديب من المذكرات والرسائل، ذلك أن الأديب يُدرك أن رسائله هي مرآة نفسه في نظر الآخرين.

ومن هنا فإنه يحاول أن يزين صورته أو يتجاوز كثيراً من حقيقته، ليظهر من خلال مذكراته ورسائله بالصورة التي يحب أن يراه بها الناس.

ويتفاوت الأدباء في رسائلهم بين الصراحة والصدق والتكلف، ومع ذلك فإن الرسائل هامة جداً لأنها تكشف عن بعض الأسرار الذاتية في حياة الأديب، والعلاقات العاطفية الخاصة، والميول السياسية التي يتعذر البوح بها في أنواع الأدب الأخرى.

وفي أدبنا العربي الحديث، لا ينشر من رسائل الأديب الشخصية عادة إلاَّ ما يقدّر الناشر أنه لا يسيء فيه للأديب أو يشوّه سمعته، في حين أن الاهتمام البالغ بالرسائل عند الغربيين يصل إلى مرحلة مذهلة. فالغربيون لا يكتفون بنشر مسودات أدب الأديب وما لم ينشر من أدبه فحسب.. بل يلتزمون بنشر كل حرف كتبه، تقديراً لتراثه الثقافي والأدبي، واحتراماً للحقيقة والتاريخ، بل إن بعض الرسائل والمذكرات التي كتبها أناس عاديون، أصبحت وثائق هامة تُلقي الأضواء على عصر من العصور، وعلامات بارزة في الحياة الثقافية بوجه عام.

وبالنسبة للأدب النسائي، ففي الأدب القديم لم نجد أدباً نسائياً يتّسم بحرية التعبير والجرأة في رسم المشاعر الذاتية في مجال الحب، إلا ما أُثر عن شاعرات من الجواري أو ما روي عن ولاّدة بنت المستكفي، وكانت ابنة ملك تجاوزت في شعرها قيود المجتمع وكتبت متحررة من الخوف الذي تحس به المرأة من الإفصاح والصراحة، وهي صاحبة البيتين الشهيرين:

أنـــا والله أصـــلح للمعـــاني وأمشي مشيتي كِبراً وتيها

أمكِّن عاشقي من لثم خـــدي وأُعطي قبلتي مَنْ يشتهيها

ولم يخلف لنا الأدب إلا القليل من رسائل الأدباء الذاتية، وإن كان لدينا الكثير من السير الذاتية التي تنوب عن الرسالة في

رسم المشاعر والأحاسيس، ويُعَدُّ كتاب (طوق الحمامة في الإلفة والمحبة) لابن حزم الأندلسي من أبرز الكتب التي صوَّرت تجربة المؤلف الوجدانية في الحب والمرأة. ومع ذلك. فإن مؤلفه يحرص على التكتم والتحفظ، فلا يفصح بأسماء من أحب أو من أحبت إلا في القليل النادر.

وحتى عصر المعري، كان ينظر إلى تعليم المرأة الكتابة على أنه أمرٌ خطيرٌ، إذ قد تستغل مهارتها الكتابية في كتابة الرسائل الغرامية.

وفي الأدب الفرنسي نجد مثل هذا التحفظ من نشر الرسائل الذاتية، قبل أن تنشر رسائل /مدام دي سيفينيه/ خشيت حفيدتها من أن تتهم جدتها بعدم الرزانة والاتزان، وكانت تملك النسخ الأصلية لرسائلها، ثم أنبها ضميرها وآثرت أن تسلمها عام ١٧٣٧ وهي على فراش الموت لأحد أزواج بناتها، ورجته أن يحرقها قبل وفاته، وقد أحرقها، وضاعت بذلك ثروة أدبية تعدل أهميتها ماتم نشره من بعض رسائل هذه الأديبة الذاتية، ونال شهرة واسعة. وفي أدبنا العربي، نالت رسائل ميّ زيادة شهرة واسعة، ولاسيما تلك التي دبجتها للأدباء من معاصريها وعلى رأسهم جبران خليل جبران. ومن أدب الرسائل أيضاً مجموعة رسائل نشرتها الكاتبة /حبيبة الجبالي/ وأشارت في مقدمتها، إلى أن هذه الرسائل كتبتها لها صديقة أديبة لم تشأ أن تذكر اسمها،

فهل هذه المجموعة من الرسائل لصديقتها حقاً. أم هي لها، وشاءت أن تخرجها إخراجاً فنياً، فآثرت تقديمها بلسان صديقتها..؟؟

ليس من العسير إثبات حقيقة هذه الرسائل بالرجوع إلى الحياة الأدبية، ومطابقة الأحداث الواردة في هذه الرسائل بأحداث حياتها، ومع ذلك. فإن موقف الرأي العام من حرية تعبير المرأة يظل هو المسؤول عن هذه الإشكالات التي يخلقها الأدب النسائي، إذ تغيب الحقائق تحت ستار من التزييف والتستر، ومن الإنصاف أن يتاح للمرأة للتعبير عن ذاتها بصراحة، ويبدو أن هذه القيود ما زالت مفروضة أيضاً على أدب الرجال، فنحن حين نقرأ مذكرات العظماء المعاصرين من أبناء أمتنا العربية، لا نجد فيها ما يفصح عن حياتهم الوجدانية وكأن ستاراً صفيقاً مضروب بين الإنسان وعالمه الذاتي.

حتى الكاتب عباس محمود العقاد نفسه في تجربة حبّه مع /ميّ/، تلك التجربة التي ألهمته الكثير من الشعر والنثر، نجده في قصته /سارة/ وفي شعره، وهو يؤثر أن يبدل الأسماء الحقيقية لمحبوباته، فهو يسمي ساره - سعاداً ومي هنداً. وكأنه يعترف بالفيتو الذي وضعه المجتمع على الحب بحكم أنه في نظر الشرقيين علاقة خاصة لا يجوز الإفصاح عنها، لما يترتب على ذلك من نتائج أقلّها سقوط المرأة التي يتحدث عنها ، فما

زالت عقلية القبيلة هي السائدة، وكأن الإنسان العربي لم يتبدل سلوكه مع تطور الزمن، ولم يستطع أن يتحرر من ربقة المجتمع، على الرغم من أن الأديب هو أكثر الناس وعياً وقدرة على تجاوز الرقابة الاجتماعية على ذاته.

وإلى جانب رسائل حبيبة الجبالي ثمة رسائل كثيرة تتبادلها الأديبات بينهن أو يرسلنها إلى أصدقائهن من الأدباء، إلا أن هذه الرسائل ماتزال مخطوطة، وهي رسائل غنية بمضامينها، تلقي الأضواء على نفسيات الأديبات اللواتي كتبنها وهي حافلة بآراء ومشاعر لا نجدها في آثارهن، وهي رسائل تصور بأمانة عالم الأديبات الخفي وصلاتهن بزميلاتهن ومتاعب احتراف المرأة للأدب.

ولا تخلو هذه الرسائل من نظرات اجتماعية وأدبية مقيدة، ولهذه الرسائل خصائص مشتركة لأنها تعكس نفسية المرأة ودنياها التي تختلف عن دنيا الرجل، على أنها إجمالاً لا ترقى إلى مستوى أدب الرسائل الغربي، كما نجد ذلك عند [سيمون دي بوفوار] التي راسلت الأديب [جان بول سارتر]، ونشأت بينهما علاقة حب وصداقة متينة.

وتتفاوت أساليب هذه الرسائل، فيرقى بعضها إلى مستوى الأدب الرفيع، وينحدر بعضها إلى مستوى الثرثرة العادية التي لا تصلح للنشر، ولا تدخل في دائرة الأدب إلا من حيث فائدتها

في تحليل الشخصية التي كتبتها، وقد أتيح لي أن أطّلع على بعض رسائل الأديبات المعاصرات، فوقعت على رسائل للقاصة سميرة عزام والسيدة وداد سكاكيني والأديبة سلمى الخضراء الجيوسي والكاتبة مها غريب.. والأديبة ألفة الأدلبي وبعضها جدير بالنشر لأنه يؤرخ للحركة الأدبية النسائية العربية المعاصرة، ويلقي الأضواء على علاقة الأديبات ببعضهنَّ بعضاً.. وسماتهن الشخصية المميزة.

سأحاول أن أكشف عن السمات الخاصة لرسائل كل أديبة، ثم أستخلص منها جميعها ما يميز أدب الترسل النسائي من خصائص يفترق بها عن رسائل الرجال، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرسائل تختلف باختلاف الشخص الموجهة إليه. فحين تكتب المرأة إلى المرأة تختار آفاقاً وعوالم تفترق عما تتضمنه رسائلها إلى الرجال، ذلك أنها في مخاطبة بنات جنسها، تتبسط إلى حد ما وترسل قلمها دون قيد أو احتراز، وتجترئ على التصريح بأفكار لا ترد في مكاتباتها للرجال، وهو أمر بدهي، لأنها تعتقد أن بنات جنسها أصون لسرها، وأكثر ثقة لحمل همومها ومعاناتها، ومع ذلك فإن رسائل النساء إلى النساء تختلف أيضاً باختلاف العلاقة بين المرسلة والمتلقية، فإن كانت علاقة حميمة، بدت المصارحة أكثر، وإن كانت الصلة رسمية ظل التكلف والتحرز يسود تلك المراسلات.

* **رسائل مي زيادة: (١٨٨٦ - ١٩٤١):**

كانت ميٌّ مرهفة الحس، رقيقة المشاعر، عالية التهذيب، تؤمن بالتحرر والاختلاط، لكنها محافظة النزعة، عفيفة الخلق، كتبت رسائل عدة لأعلام الأدب في عصرها، وفتحت بيتها ليكون منتدى لرواد الأدب كل يوم ثلاثاء، وهي في رسائلها تعكس نفسية سيدة الصالونات الأدبية، تملك جمال الجسد والروح، ويتهافت الأدباء على طلب ودها، والتزلف إليها، ولكنها كانت تعرف كيف ترضيهم جميعاً، دون أن تقترب من لهب سراج الحب، أعجب بها ولي الدين يكن... فأهداها رسمه.. وكتب تحته هذا البيت:

كل شيء يا مي عندك غالٍ … غير أني وحدي لديك رخيص

ولم تبادله ميٌّ مشاعره لكنها ظلت على صلة حسنة به حتى آخر يوم من حياته، وأغرم بها إسماعيل صبري شيخاً، فلما فاتحها بغرامه بأبيات قال فيها:

أهاجرتي أطفئي … لواعج لا تنتهي

مضت في هواك السنون وما نلت ما أشتهي

إذا قيل مات الأديب بفاتنة : أنتِ هي

فأجابته مي ببيتين قالت فيهما:

زمانــــك قبلــــي انتهــــى ولا يرجــــع المنتهــــي

فحـــــسبي أن أزدهـــــي وحـــــسبك أن تـــــشتهي

ويُستشف من الجواب أن الكاتبة ميّ زيادة في رسائلها كانت ترد المعجبين بها دون أن تقسو عليهم، مع ميل لديها إلى تعذيب المحبوب، وتركه معلقاً بين الصد والأمل، فهي تريد أن يخلدها أدب عشاقها دون أن ترخص نفسها لأيٍّ منهم، «لم تحب ميٌّ حباً جسدياً لكنها أحبت حباً روحياً...»، وتجلى حبها الروحي في صلتها بمصطفى صادق الرافعي [الذي كتب إليها العديد من رسائل الحب.. وكتبت إليه رسائل تعبر فيها عن عاطفة صادقة..] وبجبران خليل جبران من خلال رسائل متبادلة لم تنته بلقاء، وحين صارحها بحبه في أكثر من رسالة كتبت إليه تقول بعد أن خاب أمله منها وانقطعت رسائله: «آلمني سكوتك، وأرهف انتباهي، فألقتني إلى نقط كلها غير مُسِرَة، منها أنك لم تشاركني ارتياحي إلى تلك الصداقة الفكرية، لأنك كنت سعيداً بها مثلي». على أن ميٌّ لم تستطع أن تقاوم مشاعرها الخفية، فبعد أن استبد المرض بجبران صارحته بحبها، واعترفت له أنه محبوبها الوحيد في رسالة كتبتها عام ١٩٢٤ تقول فيها:

«ولكني أعرف أنك محبوبي، وأني أخاف الحب.. إني أنتظر من الحب كثيراً، فأخاف ألا يأتيني بكل ما أنتظر.. كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا...!! وكيف أفرط فيه..؟؟ لا أدري..!!.

الحمد لله أني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به.. لأني لو كنت الآن، وكنت حاضراً، لهربت أنا خجلاً بعد هذا الكلام، ولاختفينا زمناً طويلاً...» وهكذا تعود ميٌّ إلى روحها الشرقية المحافظة التي رسخت في ضميرها إرثاً من عصور سحيقة، فالفتاة الشرقية لا تبادر إلى إعلان حبها ولا تبوح به، ولو كانت كاتبة..!! ولو قتلها ذلك الحب..!!.

وتتخلى مي عن شخصيتها في آخر حياة جبران وتعود إلى طبيعتها الأنثوية، فتستشيره في رسالة أخرى واصفة جمال شعرها الذي قَصَه المزين دون رحمة، وتصف سواده الفاحم الذي لا يرضي أديباً يعيش في بلاد الشقراوات، ولا يترنم إلا بجمال الشعر الذهبي، ورداً على هذه الرسالة يهديها جبران محفظة يد ومرآة وقلماً. فتكتب إليه:

(... مضت جميع الوجوه من المرآة، إلا أنها استبقت لي نظرة بعيدة قريبة من عينيك، فأتلقاها بنظري وأتملاها فأقول لها شيئاً يعرفه القرطاس كذلك...).

وترسل إليه رسالة أخرى، تكشف فيها عن حبها وشوقها. فتقول: (لا بد أن تكون مسراتنا مزيداً من المحسوس وغير

المحسوس، لذلك يروق لي أن ألتقي بك في الضباب وخارجاً عنه...! تعال يا جبران... وزرنا في هذه المدينة (القاهرة)، فلماذا لا تأتي.. وأنت فتى البلاد التي تناديك..؟ تعال.. فنورُ القمر يثير الرمل حول أبي الهول، ويمرح في موج النيل.. تعال يا صديقي.. تعال فالحياة قصيرة.. وسهرة على النيل توازي عمراً حافلاً بالمجد والثروة والحب..).

رسائل ميٌّ إلى جبران أدب رفيع يحفل بالرومانسية والرقة، وهي تختلف عن رسائلها إلى الأدباء الذين أحبوها، وتهافتوا لطلب ودها تهافت الفراش على السراج، ولم يسلم من تلك العدوى الشيوخ والشبان حتى **(لطفي السيد)** أستاذ الجيل الوقور، فقد كتب إليها رسائل تحفل بالحب الروحي لكنها كانت تنظر إليه كصديق ومرشد وشخصية أدبية وسياسية كبيرة تسهل لها سبل النفوذ لبلوغ أهدافها الأدبية والاجتماعية، فهي تلومه في الحفلة التي أقيمت بإشرافه لتأبين فتحي زغلول على عدم إشراك النساء في التأبين قائلة: «نبذتم ذلك الجنس الذي يعيش بعيداً في يوم النصر الشامل، يوم يكرم الرجل غالباً وقاهراً..» فاعتذر لها بلباقة، ودامت المراسلات بينهما زمناً دون أن تهبط إلى مستوى المصارحة، وإن كانت تتضمن التلميح بالحب والتقدير.

وكتب لها **(أنطون الجميل)** رسائل تشعر بالتقدير والتدليل غير أنها كانت تعامله معاملة الطالبة لأستاذها، وراسلها **(أمين**

الريحاني) في رحلاته وأرسل إليها كتبه، واتصل بها العالمان **(شبلي شميل، ويعقوب صروف)** ولكن صلتهما بها كانت صلة أدبية علمية بحتة يمازجها الإعجاب والتقدير. وأما **(عباس محمود العقاد)** فكانت علاقته بها أبعد من ذلك، فقد كانت تكّن له الإعجاب والتقدير، وفهم هو هذا الإعجاب حباً، فراح يكتب بها شعراً عاطفياً، ويلمح إليها برسائله مصارحاً، فكانت تبادله الودّ بلباقة وبصيغ غامضة تجمع بين التشجيع والتقدير، وكانت تتهمه بالغيرة من جبران خليل جبران، ويتهمها بالغيرة من /سارة/. لكن هذه الصلة ظلت غير محسوسة. يقول العقاد: «كنت أغازلها فتومئ إلي بإصبعها كالمنذرة المتوعدة، فإذا نظرت إلى عينيها لم أدر أتستزيدني أم تنهاني، ولكنني أدري أن الزيادة ترتفع بالنفحة إلى مقام النشوز.. وكنا أشبه بالنجمين السيارين في المنظومة الواحدة، لا يزالان يحومان في نطاق واحد، ويتجاذبان حول محور واحد، ولكنهما يحذران التقارب.. لأنه اصطدام..».

لم تكن مي امرأة لعوباً تعبث بقلوب الرجال، لكنها كانت تداري ظروفها، فهي أول فتاة تفتح بيتها ليكون منتدى أدبياً في فترة لم تكن النساء فيها تختلط بالرجال، ولم يقدّر للأدباء أن يفهموا طموحها ورسالتها الأدبية والاجتماعية، فنظروا إليها بمنظار الجسد، لأن واقعهم الاجتماعي المحدود جعلهم يحسبون تحررها ترخيصاً، وكانت في الوقت ذاته تخشى إن هي صدت

أولئك الذين انتسبت إليهم في دنيا الأدب والثقافة أن تقضي على حلمها في الظهور الأدبيَ، فبدت من خلال سلوكها مرنة متقلبة بين الدل والتمنع والتشجيع. وكانت مي عصبية المزاج لكنها في واقع الأمر كانت أقرب إلى النموذج العاطفي، فهي تمتلك ترجيعاً بعيداً للأحداث وتمتاز بانفعالية ملحوظة وفعالية تجلّت في طموحاتها الأدبية، فليس غريباً أن تنجح في علاقتها مع الوسط الذي تعيش فيه، لكنها لم تكن سعيدة في حياتها لوحدتها وتفردها، وكان حبها لجبران الملاذ الأخير، وكان تعويضاً عن المرارة التي تحس بها، إذ نذرت نفسها للأدب، وجنت من نزعتها التحررية المرارة والأشواك ولم تنل منهما إلا الأمل بالخلود، فكان جبران علاجاً لآلامها، وحلماً في بناء أسرة وحياة عائلية دافئة تعوضها عن فقد أهلها، وخيبتها الاجتماعية، ولعل آخر سهم صوب إليها هو الحجر عليها في آخر حياتها من قبل أهلها بتهمة المرض النفسي، ولعلهم بادروا إلى هذه الخطوة طمعاً بثروتها أو بسبب ما كان ينشر عنها من غزل يمت أكثره إلى عالم البراءة والمداعبة، ولم تكن هي تستطيع دفعه، وهكذا دفعت الأديبة ثمن تحررها، وتقدميتها، لكنها تضحية رفعتها إلى مستوى الرائدات، وأدبنا العربي والحركة التحررية يدينان لها بالعرفان والفضل.

* * *

* رسائل سميرة عزام (١٩٢٧ – ١٩٦٧):

في الفترة الواقعة مابين (١٩٦٠ - ١٩٦٦) وجهت القاصة سميرة عزام إلى الأديبة ألفة الإدلبي عشرين رسالة بعد تعارف تَمَّ إثر استدعاء ألفة للكاتبة سميرة لأمسيتين أدبيتين عقدتهما في دمشق، ورسائل سميرة عزام لا تختلف في أسلوبها عن قصصها، فهي تجيد تسجيل المواقف الفكرية والحياتية، والانطباعات الذاتية بحيوية ودقة، وكأنها تصوغ قصة لها حبكتها، مرحة وخفيفة الظل، ذات شخصية مستقلة، وحضور متميز في التعبير عن الذات مع مزاج حارّ، وصراحة محببة، ونفس مرهفة، تتأثر من النقد، فقد كتبت عن أحد النقاد الذين قسوا عليها في تعليقاته حين قدمت إلى دمشق قائلة: «ابتسمت وأنا أستمع، ليلة أمسية الندوة الثقافية، من صديقتي سلمى إلى ما بلغها من تعليقاته.. ولكن يجب ألا يغيب عن الناقد الحصيف شيئاً اسمه «الخلق» قبل أن يكون هناك شيء اسمه «النقد»».

وهي في حياتها الشخصية متحررة، تدخن، وتشرب، وهي تقرأ لكتاب القصة الغربيين مبدية إعجابها بالعمالقة منهم أمثال كافكا وفوكنر وتنسي وليامز. تتحدث عن مشاريعها الأدبية وتشرح طريقتها في كتابة القصة، وهي طريقة عفوية لا تخضع لتخطيط مسبق، وسميرة عزام كانت تعاني من إحساس رهيب

بالموت العاجل، وكأنها كانت تتوقعه.. تقول في إحدى رسائلها: (أشعر يا ألفة.. بأنني أبدد أيامي، وأنني سأموت دون أن أقبض إلا على العبث... وإزاء هذا الشعور يخطر لي أن أسأل ولم كل هذا العناء.. الموت يضع نهاية لكلِّ شيء فلماذا أحمل هذا الصليب الثقيل على كتفي، وأعتقد أن عليّ أن أفعل الكثير، وأقيم كل ما أفعله بميزان قاس..؟؟) ولا غرابة في إحساسها بالموت، فقد كانت تعاني من الأمراض المتواصلة. وأما عن سببها، فهي تقول:

(إنَّ ضعف الإرادة عندي يتجلى في مظهرين: الحب والسيجارة.. وأنا قوية الإرادة فيما عداهما.. ولست أتبجح بهذا الكلام فقوة الإرادة ليست فضيلة الفنان... وبعض هذه المزالق ضرورية للفن...) على أنها قليلة الحديث عن تجربة حبها إلا ما ورد من تلميحات عن زوجها الذي كانت تحبه وتقدره.

وفي موقفها من الجنس، كانت سميرة تقرُّ إدخال الجنس في القصة والأدب ولكن بذوق، تكتب قائلة:

(حاولت قبل أسبوع أن أعيد قراءة قصة «عشيق الليدي تشارلي»، فلم أشمئز من الجنس فيها وتساءلت: لماذا نتقزز من الجنس الذي يعالجه بعض كتابنا مع أنه قد يكون أقل صراحة. وأضعف تلميحاً؟؟ ذلك أنه هنا مسخر لشرح فكرة فلسفية، لشرح

موقف من الجنس والحياة وهو في أدبنا غاية لذاته.. فما من رواية إلا وترتمي مجهدة عند بطن امرأة....).

ونلمح في رسائل سميرة عزام تواضعاً عجيباً، فهي تحب أن تقوّم وتقدر بحدود حجمها الأدبي: (نحن يا ألفة... صغار وصغار جداً في عالم الأدب الرحيب، وما فعلنا بعد ما يجعلنا نطمح إلى القمم..). وسميرة مؤمنة بالصداقة.. تقول: (فأنا من المؤمنين بأن الصداقات انتصارات الحياة..) على أنها كانت انفعالية المزاج، تمتاز بترجيع قريب للحوادث في نفسها، سريعة الثورة، عنيفة في ردود فعلها تجاه الوقائع.. كتبت عن زميلة أديبة تقول:

(أعلنت جمعية أصدقاء الكتاب.. نتائجها، ففزت مع شريك بجائزة القصة القصيرة، أما «فلانة» فقد «فشلت» وسلطت لسانها في مقال «داعر» على جمعية أصدقاء الكتاب، وهي لا تقصر في أن تعضني في مجالسها، وبما أنني لا أحترم أصلاً مجالسها، فمثل هذه العنعنات لا تهزني إطلاقاً..).

وهي تميل إلى السخرية والفكاهة في رسائلها، كتبت عن موت كندي.. تقول: (في كل ليلة يعرض التلفزيون مشاهد عن مصرعه.. فيبكي الناس... الرجل كبير بلا شك، ولكني أتساءل: لو كان أكبر بعشر سنوات وزوجته أقل جمالاً، وأطفاله أقل

تألقاً، أكان الناس يشعرون بالكارثة على هذا المستوى من التفجع.).

وتكتب سميرة عزام عن زوجها، وقد أهداها قطعة قماش: (للمرة الثانية في حياتي، أشهد له بالذوق، أما المرة الأولى كانت حين اختارني..) وهي تحس بسوء تقدير المجتمع للأدب. وأدبها بصورة خاصة. كتبت تقول: (حياتنا الأدبية، مستنقع غريب.. تافهة تكتب ديوان شعر مليء بالأخطاء العروضية، فضلاً عن ركاكة الخيال، والمواضيع.. ومع ذلك تجد من يقيم لها حفل كوكتيل في الفينيسيا.. يحضره رئيس الوزراء..!!

وقضيت حياتي أكتب وأقرأ وأترجم، ولم أجد من يكرمني بسندويتش...!! .. من الآن سأحاول أن أكون أنيقة، ومتفذلكة.. واجتماعية.. سأحاول أن أحضر عشر حفلات وأغازل عشرة رجال.. وأتحدث في كل ما يخطر في البال، فقد أجد نفسي في هذا المستنقع..).

ولا تهادن سميرة في حملتها على الأديبات اللواتي ينفذن إلى الشهرة بأسلوب غير مشروع.. تقول: (قد تكون بيروت مرتعاً لألوان من الأديبات، ولكن من المؤكد أنني أكره جانب الزيف في أكثرهن.. كل واحدة ترفع هويتها الأدبية كأنها داعرة تدلل عن بضاعة. أفتش فيهن عن عفوية، فأصطدم بألف عقدة غرور.. ولكل منهن حوارسوها يمهدون وينفشون ويسخرون..).

ولا يخفى أن رسائل النساء، تحفل بمواقف الغيرة والتنافس أكثر من رسائل الرجال، والمرأة يطيب لها أن تحكم على الأشخاص وتقومهم أكثر مما تحب أن تحكم على الوقائع والأحداث، ومع ذلك فإن سميرة عزام موضوعية أحياناً في أحكامها على الأديبات، كتبت في رسالة لها عن الكاتبة /غادة السمان/ في أول بدايتها، تقول: (قرأت قصة بعنوان: «رجل في الزقاق» لفتت نظري حقاً.. لفتاة سورية تُدعى غادة السمان، يهمني أن تطلعي عليها، فإذا كانت هذه هي بداية الفتاة، فثقي بأنها بداية قوية حقاً...).

وصدق حدس سميرة في غادة فهي اليوم من أبرز الأديبات العربيات.. رسائل الكاتبة سميرة عزام قطع أدبية رائعة، يتجلى فيها الصدق والصراحة، وتزينها رشاقة الأسلوب القصصي، وهي وثائق ثمينة لتحليل نفسية المرأة...

* * *

*** وداد سكاكيني (١٩١٣ - ١٩٩١)**

في رسائل وداد سكاكيني تتجلى شخصية المرأة الرصينة الوقورة، فهي لا تتدفع كثيراً وراء عواطفها بل تترك حاجزاً رقيقاً بينها وبين من تراسلهن، وغالباً ما تستهل رسائلها بـــ(سيدتي الأديبة).. ونادراً ما تبدؤها بصديقتي، وتظل رسائلها

تتميز بأسلوبها الأدبي المتين، والديباجة الصافية، فهي تنهل من معين ثقافتها اللغوية الكلاسيكية...

تكتب وداد سكاكيني معزية الأديبة ألفة الأدلبي بوفاة أخيها... فتقول: هالني والله أن يقتحم الحزن نفسك، وأنا التي بلوت الحزن منذ تفتح وعيي.. فما أكثر ما أصابنا من الهم، وما كان يهدهد وقعها وينسينا بلواها إلا الموت، هذا السر الرهيب الذي نذعن له راضين...). وهي صريحة في نقدها وتقويمها آثار زميلاتها، تكتب إلى /ليلى بعلبكي/ بعد أن قرأت كتابها /الآلهة الممسوخة/ فتقول: (أما الأسلوب فأنيق جداً، فيه جهد بيّن، فالكلمة مختارة منتقاة، وإن كانت تأتي أحياناً في غير محلها، أما شخوصك، فاسمحي لي أن أقول إنني ما أحببتهم أبداً، كرهت «نديماً» وأظنك أردت لنا أن نكرهه، فرغم تمزقه المحزن ونهايته المأساوية.. لم أشفق عليه أنا التي أحببت «راسكولينكوف» بطل «الجريمة والعقاب» أما «عائدة» فقد أشفقت عليها رغم بلادتها، كم تمنيت أن أجد لها موقفاً ثورياً واحداً تجاه «نديم» تلك التي درست في لندن، ونشأت بلا شك في بيئة متحررة، ولكنها تصرفت تصرف المرأة الشرقية، المغمّضة العينين، الضعيفة، فطوت الجنح على كسر، وخفضت جناح، وظلت تجتر مأساتها إلى النهاية..).

وهذا هو تقويم ناضج يكشف عن وعي /وداد سكاكيني/ لرسالة الأدب، واطمئنانها إلى قلمها.

رسائل /وداد/ تكشف عن شخصيتها الأدبية الناضجة، وأسلوبها يعيد إلى ذهن القارئ نصاعة البيان العربي الأصيل، يرفده الخط الأنيق، وهي على تعقلها واتزانها لا تتخلى عن انفعالية المرأة أحياناً، فتعلق بمرارة على ظهور أدباء جدد في دمشق.. كادوا لها ولزوجها، وتسخر من أدبهم، وتتألم لمواقفهم باندفاع يخرجها أحياناً عن هدوئها. وهي تصر أبداً أن تنفي عنها الغرور والترفع حين تتحدث عن نجاحاتها أو توجه نصائحها الأدبية لصديقاتها، لكنها تظل مرموقة بسبب تعقلها وهدوئها وأسلوبها الرصين، تحتل مكانة تذكرنا بمكانة النابغة في سوق عكاظ يحتكم إليه الشعراء، فيوجه ويرشد وينصح ويقوم.

وهدفها من ذلك كله أن تشق المرأة طريقها في عالم الأدب، تكتب مخاطبة السيدة ألفة الإدلبي وسلمى الخضراء: تقول: (لو كنتما من الرجال لعدكما النقاد متعجلين في الظهور فكيف وأنتما من النساء..؟؟ لأن الأدب المكتوب في عرف العارفين يحتاج إلى مراس طويل وخبرة عميقة، ولا عبرة في تشجيع بعض الطيبين... دون النقد الصحيح، وقد تغيرت مفاهيم الأدب، وتطور وعي القراء.. فأصبح الظهور قريناً بالجدارة والكفاية)

وفي رسائل وداد مرارة مبعثها الغربة عن الوطن، وهي غربة فرضتها عليها الظروف، فظلت تحن إلى دمشق ولم تلهها عنها باسقات النخيل وضفاف النيل في القاهرة.

* * *

* **سلمى الخضراء الجيوسي**:

في رسائل الكاتبة سلمى الخضراء الجيوسي بساطة محببة، فهي تكتب من القلب، ولا تعنى كثيراً بتنميق أسلوبها، ويبدو أنها تحتل بين صديقاتها الأديبات مكانة مكينة، فهن يتحدثن عنها دائماً في الرسائل، ويتبادلن التعليقات حول رحلاتها الكثيرة، وتحولاتها السريعة من بلد إلى بلد، وهي تحب السفر والفنادق والتجوال، وتميل إلى الثرثرة العابرة وتعنى بحوادث الحياة اليومية وأخبار الناس أكثر من اهتمامها بتسجيل تأملاتها الأدبية وخواطرها الذاتية، فهي أكثر الأديبات التصاقاً بالحياة، غير أن هذا التسطح في رسائلها أبعد هذه الرسائل عن أن تعد نصوصاً أدبية جديرة بالنشر.

وسلمى.. تمتلك ميولاً اجتماعية غيرية قوية، تتجلى في اندفاعها للعطف والمساعدة. وقد سبب لها عطفها على أحد الصبيان حادثة مؤلمة تذكرها في رسالة من رسائلها.

وتبرز عواطفها الدافقة بعد محنتها بفقد عزيزين عليها هما: أورخان وبدر، فلا نرى في بعض رسائلها إلا وجه المرأة

الثكلى، تقول: (زرت قبر أورخان قبل سفري، وبكيت حتى كاد يغمى عليّ، ومع أني لمست قبره، فإني لم أصدق بعد أنه مات. كيف يعقل..؟؟ أورخان الذي كان يحمل روعة الحياة، وكبرياءها ودفقها، يا إلهي..!!)، إنها تعود إلى طبيعتها الأنثوية دون قيود.

وأكثر ماكان يضايق /سلمى/ العوائق التي يقيمها القيمون على النشر من أصحاب المجلات، وهي تسميهم «سجان الأدباء» تقول:

(إن الأدب في بلادنا كالسياسة بالضبط، لا قواعد له ولا هو صرح شامخ... بل تكايا وزوايا.. ومنذ طفولتي وأنا أكره الزوايا التي يلجأ إليها الضعفاء... فهل تريدين لي أن أحب زوايا الأدب وتكاياه وأنا مع الريح وفي قلبها وحدي...).

* * *

*** ألفة الإدلبي:**

من خلال الرسائل القليلة التي وقفت عليها، تظهر السيدة ألفة الإدلبي مركز التلاقي، ونقطة التواصل بين الأديبات، ويبدو أنها سيدة اجتماعية فيها من الصفات الاجتماعية والعملية ما يجعل الأديبات يجمعن على مراسلتها، ومصادقتها، وليس غريباً أن ترأس اللجنة الثقافية للندوة النسائية في دمشق، وهي تتمتع بلباقة

فائقة في معاملة صديقاتها.. تكتب لسميرة عزام بعد أن وجهت إليها نقداً لإحدى مجموعاتها تقول: (سرني كثيراً أن أكون فوق غربالك، ولكن إياك أن تتسع ثقوبه ذات يوم فتبتلعني..).

غير أن السيدة ألفة على ما يبدو كانت تؤثر بصديقاتها من خلال سلوكها وشخصيتها أكثر مما تعنى بإبراز ذاتها في رسائلها، فهي تكتب ببساطة.. ولا تحتفي كثيراً بتدبيج رسالة أدبية بالمعنى الفني.

* * *

*** مها غريب:**

تلك الأديبة العربية ينضح من رسائلها الإحساس بعدمية الحياة، قضت ردحاً طويلاً من حياتها تدرّس في بلاد المغرب العربي، وكتبت رسائل إلى صديقتها الأديبة السورية / عفيفة الحصني/ مفعمة بمشاعر الصداقة والوفاء، ويصدق فيها قول لارشفوكولد: (إن العاطفة الهادئة لا يخامرها عنصر درامي، لا يمكن أن ترضي حاجة النساء إلى الانفعال إلا قليلاً...).

والكاتبة مها غريب تؤمن بالصداقات الكبرى التي تقارب الحب، والصداقة عندها أكثر حرارة وحماسة من صداقات الأخريات، وتتركز في شخص واحد، وقد أسلمها القلق أخيراً إلى كآبة قاتلة، أحبطت طموحها في المجال الأدبي تكتب قائلة:

(تضافرت عوامل كثيرة على فكري ومشاعري، ونجحت في تحقيق فعل الإحباط، لفّ نفسي بليلٍ من العدمية لن أستطيع الخروج منه إلا بزلزال نفسي عنيف..).

*   *   *

تلك لمحات من ترسّل الأديبات العربية في عصرنا، تكشف عما يمكن أن يستخلصه الناقد الحصيف من حقائق حول نفسية المرأة، وشخصيات الأديبات اللائي كتبنها، وآرائهن في الحياة والأدب، وتلقي أضواء قيمة على ظروف إنتاجهن الأدبي، ومحاولتهن شق الطريق الأدبي الوعر في مجتمع لم يتهيأ بعد لقبولهن، ومع أنَّ الرسائل هي أكثر الفنون الأدبية على المصارحة، فإننا نقع كثيراً على حقائق في هذه الرسائل، تتناول الحياة الوجدانية للمرأة الشرقية، فإن الرعب الاجتماعي ينفذ إلى سطور تلك الرسائل، ويقيد قلم الأديبة عن الإفصاح ولو همساً. ولعل قيمة هذه الرسائل تتجلى في كونها وثائق حية قابلة للتحليل النفسي لفهم عالم المرأة، فالأديبة امرأة.. إنها قدر من الانفعالية والمشاعر العاطفية والمزاج المتقلب والحاجة إلى التغيير والميل إلى التجمل والمباهاة والاستعداد للإيحاء ويبرز في رسائلها ضعف الاستدلال العقلي وغلبة التفكير الحدسي والاندفاعية،

والتعصب للرأي، وحب الظهور الذي يلفَّع بالتواضع، وشدة الميل إلى العطف والمبالغة في الاستجابة للأحداث، والرغبة في السيطرة.

وفي هذه الرسائل كثير من تلك السمات التي تميز أدب المرأة وتعكس شخصيتها.

* * *

أدب الرسائل عند الشيخ
عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري

إن كتاب «**رسائل خفت عليها من الضياع**» للشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، يثير تساؤلات عن أهمية تلك الرسائل، وحرص الكاتب على حفظها، وتقديمها للقارئ العربي. وهي رسائل تبادلها مع بعض أعلام الفكر والأدب والثقافة، فألّفت ملفاً نفيساً جديراً بالنشر، وإن كانت يد الزمن عبثت ببعضها فضاعت.

ولعل «التويجري» لم يُقَدِّر بادئ ذي بدء قيمة تلك الرسائل التي لا يخطر على الذهن أنها ستكون جزءاً من التراث الأدبي يكمل ما بدأه السلف من فن الترسل أو الرسالة.

يقول الشيخ «التويجري» :

[شعرت بمسؤوليتي من هؤلاء الإخوة - «الذين راسلوه» - وخوفي على أدبهم وفكرهم وتجربتهم من يد عابثة لا تعرف قدرهم، فقامت في ذهني خاطرة مليئة بالحيوية تقول لي:

ليست هذه الرسائل شيئاً يورث، حررها من مكتبك قبل أن يقابلك الأجل، فما قيمة الأدب والفكر والتجربة إذا لم يتواصلوا وأديب اليوم والغد ومفكره؟؟

نعم.. إذا لم يتواصل الأدب والفكر اتسعت الفجوات الفكرية فيما بين الأمس واليوم والغد، وتقطّعت أواصر النسب].

ولم يشأ «التويجري» ذلك «البدوي المهذّب المتواضع» الذي صقلته مدنية البداوة بقيمها، أن يشير إلى رسائله بين تلك الرسائل بحكم أنها تمثل طرفاً من التواصل إرسالاً أو استقبالاً وجواباً، تواضعاً منه، وكأنه يريد أن يقول: [لو تمت الفائدة بإحياء ما كتبه الآخرون منها دون ما كتبته، لاستغنيت عنها ولم أنشرها، لكن طبيعة التبادل بين المتراسلين تقتضي أن يكون ردّ وجواب وألا يفهم القرين إلا بقرينه].

الشيخ «التويجري» بعد عطائه الإبداعي المتميّز في كتبه، وتسليم الناس له بمكانة الكاتب المتميّز، لا أحسب أنه يتوخى من وراء نشرها شهرة أو ظهوراً في عالم الأدب بين المناكب التي تتزاحم على الشهرة، فقد تحقق له ذلك منذ زمن، ولا يتوخّى من ورائها مكانة اجتماعية لأنه يحتل موقعاً وظيفياً واجتماعياً من أبرز المواقع في المملكة العربية السعودية. وفي اعتقادي أنه أقدم على هذه المبادرة خدمة للأدب العربي ولفن الرسالة.. ذلك أن هذا الفن العريق في التراث العربي الإسلامي كان وما يزال ينهل من واحات متفردة وبيئات أدبية خاصة، خلافاً لفنون الأدب

الأخرى، فللشعر في التراث العربي استمرار وتواصل لعناية الناس به، أما الرسالة فتاريخها يرتبط بروادها البارزين الذين يستثيرون برسائلهم من حولهم بعد كل ركود في مسيرتها، وهكذا كان تاريخها خلال التراث العربي مديناً لروادها، يحرك سكون بحيرتها الراكدة أديب مبدع «فيتمدرس» عليه من حوله ومن جاء بعده، لأنها نمت وترعرت على هامش الفنون الأخرى، ولم تكن هدفاً أدبياً يرمى إليه إلا عندما كان لها مدلول مغاير يلتبس بمدلول الكتاب أو الدراسة. وقد يتفاوت الأدباء بالرغبة في التواصل مع الآخرين حسب انفتاحهم على الآخرين أو انطوائهم على النفس، والرسالة الذاتية لم تكن من قبل تولي تلك الأهمية التي مُنحت لفنون الأدب الأخرى، ومن المؤلم حقاً ألاَّ نجد في تاريخ الأدب وتراجم الأدباء والشعراء المشهورين كالمتنبي وابن الرومي وجرير والفرزدق محاولات من ذلك... وأعتقد أن تواصلهم مع الناس كان مقصوراً على الشعر وحده، والقليل منهم من أدلى بدلوه في هذا المجال.

ويلتمس الشيخ التويجري مسوغاً عاماً لنشر لتلك الرسائل، فيراه في ذلك التفاعل الحي بين أبناء المملكة الذين ينهلون من مبادئ الدعوة الإسلامية «فالعزلة والوحشة وسوء الظن بالناس شيء ترفضه الدعوة، وينفيه عن روح الإسلام رسالته الإنسانية التي هي للبشرية».

كما يلتمسه أيضاً في أهمية نشر تلك الرسائل التي لم يكن «انحيازاً لأحد دون أحد، ولكن غلب على الاختيار قِدَم بعضها،

وكبر سن أصحابها، مؤكداً أهمية أدب الرسائل الذي شكل جزءاً من الأدب العربي قديمه وحديثه.».

* * *

رسائل الأديب الشيخ التويجري متنوعة الأغراض، والدوافع، منها ما وقع إليه موقع الرجل لوظيفته، ومنها ما يدخل في باب الرسائل الفكرية والتأملية أو الرسائل الذاتية التي يتداولها الأدباء، ليعبّروا عن مشاعرهم الخاصة واهتماماتهم وخياراتهم في الحياة عقيدة ومبادئ وتطلعات وتأملاً يخالطه اليأس والرجاء. وبحكم انفتاح الشيخ التويجري على الآخرين، وحرصه على أن تكون الرسالة.. رسالة بالمعنى القيمي والخلقي والإنساني، اتسمت مراسلاته بسمات مخصوصة تتميز بها، واتسعت دائرتها. لكنه لم يثبت من تلك الرسائل التي تبادلها مع الآخرين في كتابه، الذي بين يدي، سوى نيف وخمسين رسالة، فقد استبعد كثيراً من الرسائل الشخصية التي لا تدخل في دائرة الفكر والأدب، ولا تحقق الغرض الفني من نشرها، فالذين اختارهم ممن راسلوه هم من أعلام الفكر في عصره.. في مجالات الأدب والسياسة وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا والفلسفة، وبذلك أتاح للقارئ أن يطلع على ما وراء نتاجهم الأدبي والفكري من عوالم ذاتية وفكرية متنوعة، تجمع بينها وحدة الإنسان في الجوهر، ذلك أن أدب «التويجري» وفكره في

كل ما كتب، كان ينصبّ على جوهر الإنسان، ويسعى إلى ترقيته روحياً، واكتشاف أعماقه الدفينة التي تنزع مهما تنوعت المشارب إلى الاتحاد بالمطلق خالق هذا الكون، من خلال تعاليم الإسلام، دين الفطرة، والدعوة إلى عودة هذا الكائن المتغطرس إلى صفائه الروحي، وعفويته، إلى جدّه البدوي ساكن الصحراء، الذي علّم البشرية غنى الروح، وارتقى إلى عوالم من المثل السامية، بينما أخفقت الحضارة الحديثة في نقله إليها، بل جعلته حشرة تسعى للطعام والشراب واللذة، وبهيمة علقت أهدافها في الحياة بنوازع الإنسان الدنيا دون التطلع إلى السماء ورسالتها.

الشيخ «التويجري» في هذه الرسائل... صاحب رسالة نبيلة وعقيدة راسخة لا يتزحزح عنها، ومن المثير للعجب حقاً أن فكره وتأملاته وكشوفه الروحية في الرسائل لا تختلف عن فكره وتأملاته في مؤلفاته. بل ليس ثمة فرق في أسلوبه بين مؤلفاته المتعددة.. ومن النادر أن نعثر على مثل ذلك التوحد في الفكر والتعبير لدى الكتّاب المعاصرين، خاصة حين تتنوع كتاباتهم. إن وحدة الروح والنفس الأدبي لدى الشيخ التويجري في مؤلفاته ورسائله هي ثمرة نظرته الموحدة إلى الوجود والمصير، ورسالة الإنسان فيها.

لنأخذ أي رسالة من رسائله.. فإننا نجد فلسفته تصب في مجرى واحد وتنبع من ينبوع واحد.

فقد كتب إلى الأديب محمد جلال كشك بعد صدور كتابه: «السعوديون والحل الإسلامي»... [هذه الصحراء، وهذه الوديان، وهذه الجبال، وهذه الآلاف من الأميال، كلها كتاب واحد.. ولكن مَنْ يقرؤه؟ لا أدري.. ولكي أتصوّر قارئه آتٍ إليه من رحم ليلى وبثينة أو عزة، وأرحام الأمهات والجدات هي التي ملأت هذه الصحراء بالصور المتعاقبة جيلاً بعد جيل... وإلى أن يحين قدرنا مع القارئ والكاتب، نظل في انتظار البشير بالمولود الجديد..].

إن الشيخ التويجري في عصرنا هو الذي ظلّ وفياً لهذه الصحراء، متوحداً فيها في عصر قليل فيه من البشر من يكلّف نفسه عناء السفر إلى النبع فيَرِدُه، ويعترف بفضله في تجرد ونزاهة.

* * *

وفي رسالة موجهة إلى الكاتب يوسف إدريس.. يفنّد «التويجري» سبب ضياع الإنسان في عصرنا.. فيكتب: [ألا يمكن أن نرد كل ما يعانيه إنسان هذا العصر من عذاب وألم وفقر ونزف دماء وتجاوزات على القيم والمثل العليا سببه أن منبر «الفضيل بن عياض» والشيخ الجليل «ابن الجوزي» وغيرهم نزل عنه الوعّاظ الأتقياء، فصارت قفراً موحشاً نفس الإنسان؟]. ويندد بالذين تحولوا عن قيم الأجداد ومثلهم، وقيم

الصحراء.. فيقول في رسالة أخرى وجهها إليه [نحن نعيش اليوم في هذا العصر مفاهيم جاءت إلينا من رعاة البقر ورعاة الخنازير، أنجفل منها كما تجفل الربد، ونتركها جملة وتفصيلاً؟.. أم نفتح كتابنا في التاريخ، ونقرأ فيه دورنا في عصر ارتياد الفضاء، ونُذكر سُرّاق الفكر وسُرّاق لقمة العيش من فم الجائع؟.. أننا شركاء ولسنا طفيليين على مائدة العلم، فإذا أصابنا جور الزمان، وحاول أن يضعنا في سلة المهملات، تجاوزنا عثرات الطريق وفلسفة المادة ونظرتها إلى الحياة، ومؤسساتها المرابية التي يقطر اللؤم والخبث من جمجمة مشرّعها، إلى ذلك اليوم الأمثل الذي نزلت فيه آيات الله سبحانه على رسوله r].

* * *

ولا يتوانى «التويجري» عن لوم أولئك الذين تشعبت بهم دروب الفكر الخرافي أو المستورد والهجين، فجعلوا من أنفسهم أبواقاً له، يظلمون بذلك أنفسهم وأمتهم، كتب إلى الكاتب «لطفي الخولي» رسالة يقول فيها:

[فأمتنا أمة عظيمة في التاريخ البشري، لا أتصور أنه قد غاض معينها أو جفّت مصادر الخير فيها، ربما كدّرت الأيام البعيدة هذا المعين ببعض التخريفات والمذاهب الأخلاقية والسياسية، وصارت إلى مواريث يدحرجها الزمن من جيل إلى

جيل، يتعصب لها فقيه المذهب، فيتعصب معه قطيعه، وهذا ما نشهده، مضافاً إلى ذلك أن فكراً متطفلاً على التجديد، أفرز فكره شرائح جديدة من الحزبية، قال عنها: إنها آمالكم الجديدة...

هذا الواقع اختلط معه تفكير مع الجمجمة، وصارت شعوبنا العربية في كل لحظة، تخرج من محنة إلى أخرى، ومن ظروف قاسية إلى ماهو أقسى على العقل والتفكير والحياة العامة].

* * *

وفي رسالة إلى الدكتور راشد المبارك، يتمنى «التويجري» لو أنه لم يشهد هذه الحضارة الوافدة، ويود لو كان أحد هؤلاء الصعاليك الذين أفرزتهم صحراء العرب، فذلك خير لنا من أن نخدع أنفسنا ببريق هذه المدنيّة، ونعيش على هامشها أذلاء متجاهلين و... فيقول:

[إن رمال هذه المدنية وكثبانها التي تهب علينا، أترانا مخدوعين بليونتها، ورقتها، وانسيابها إلينا؟..

أترانا نميل إليها وندفن فيها وعينا مثلما تفعل النعامة؟

لماذا نتجافى عن الجبل ونهجره؟.. ألِئَن أقدامنا لا تقوى على الصعود إلى قمم الجبال الشامخة؟؟].

* * *

و«التويجري» لا يهادن أعداء أمته، وقد ارتدى بعض هؤلاء لها ثوب الخديعة مدعياً أنه يناصرها، فنراه في مقابلة له مع «كلوب» القائد الإنكليزي جرت في «لندن» بعد تقاعده، يكذب مزاعمه بأنه يسعى لنصرة العرب، فيقول له بصراحة: [إن ماضيك وظروف ماضيك وتحركاتك في الماضي هي ملك لأمتك وما تمليه عليك سياسة هذه الأمة... فاتق الله إن مكنتك الحياة من محاسبة نفسك ومحاسبة السياسة، فتقول عنها بصراحة وأمانة مالك وما عليك..].

ويعلّق في هذه الرسالة على بعض مزاعم «كلوب باشا» فيقول له: [أبشرك أنك آخر رجل في أرض العرب يمكن أن يجد فرصة يخفي فيها وجه سياسة بلده].

ويرد عليه كلوب: أنت قاسٍ..

فيجيبه «التويجري» : [لأني بدوي من أبناء الصحراء، في طبيعته الجفاء والغلظة، فسامحني، أنت من أذكى من دخل البلاد العربية، وكُلف بمهام، هل تتصور أننا نصدقك أنك قاتلت إسرائيل كما تقول..؟؟ أية سذاجة هذه لو قبل بها طفل من أطفال العرب..].

* * *

ويهدي إليه الأديب باسم الجسر ديوان شعره في الغزل، فيبتسم ويكتب إليه متخيلاً - كالمعري - أنه يرحل في ماضي الجزيرة العربية مستعرضاً عشق العذريين وكرم حاتم وصحوة امرئ القيس انتقاماً لأبيه، ثم يعلّق على ديوان الشاعر فيكتب له: [رجل مثلي لاشكّ أن أحلامه لا تأتي إلا من هذه البيئة التي عاشها، وقد يجد في حلمه الجميل والخيمة والغدير وظباء الفلاة، وجمال القمر وليلى وبثينة وقد... وقد... ولا يجد عارية السيقان والأكتاف فيه..!].

*

في موقفه غير المتحول عن مبادئه الفطرية في الحياة، فرض «التويجري» على مراسليه ومحبيه احترامه لثبات فلسفته ومعتقده ووفائه لهما، حتى أولئك الذين كانوا يعارضون مبادئه، وينهلون من معين مستورد أفكارهم واتجاهاتهم كانوا يستسلمون أخيراً، ويسلّمون بصحة مبادئه واستقامتها، يتراجعون لا لأنه بدا لهم واعظاً ومرشداً، بل لأن تجارب الحياة وتعب الروح على دروب الغربة والضياع قادتهم إلى الاقتناع بأنهم تعلّقوا بخيوط العنكبوت، ولابدّ أن تنقطع بهم، وقد أيقنوا أن المتمسك بحبل الله يتمسك بأمراس متينة لا ترمي في الهاوية، ولا تطوّحه في لجة الفراغ والوحشة، يذكر «التويجري» في مقدمة الرسائل أنه كان بين مَنْ وفدوا إلى مهرجان الجنادرية صحفي معروف بميوله

اليسارية، ورآه وهو يقبّل الحجر الأسود ثم تنهمر من عينيه دموع غزار، فأراد أن يداعبه فقال له:

- يا صديقي... أنت معروف بميولك اليسارية والإلحادية، فما الذي جرى لك وأنت تقبل الحجر الأسود..؟

ومما قاله الرجل: وجدت في الكعبة المشرّفة صورة حيّة لمعاني الرحمة والتضامن والمساواة بين الناس، وأعتقد أن هذه التجربة قد علمتني الكثير، وأقنعتني أن بعض الشطحات الفكرية التي كنت أحوم حولها لا معنى لها..].

إن ذلك التهيب الذي أبداه مراسلوه حيال فكره التأملي لم يكن سببه موقع «التويجري» من السلطة، إنه أشبه بامتحان في التحدي الإبداعي، يقوم على تهيب الذين كتبوا له من أن يجاروه في فكره البسيط المتوحد الضارب في العمق، فكر يستمد عظمته من عظمة توحده وشموله وهو يخفي وراء بساطته عمقاً متجذراً في تربة فكر الأمة.

أما طريقة التعبير عنه لدى «التويجري» فهي نمط جديد من الكتابة تندمج فيها طرق البيان مع المعنى اندماجاً متواشجاً حتى ليغدو المجاز نفسه متوحداً مع ما يعبر عنه في وحدة كلية لا تنفصم، بعض الكتّاب يتحايلون على تسطيح الفكرة بالتزيين البلاغي الذي يبهر، وبعضهم على نقيض ذلك يفهمون الأسلوب

تعبيراً مباشراً. أما «التويجري» فثمة توحد في كتابته بين الدال والمدلول في نسيج واحد لا ينفصم، وإذا كان لكل كاتب نهجه ومدرسته في التعبير، فإن «التويجري» يجمع في عبارته بين العقل والشعور، والحس والروح. والحقيقة والمجاز، والذات والموضوع، والواقع والحلم في ديباجة أصبحت وقفاً عليه، وعزّ تقليدها.

اعتقد أن روّاد النثر الذين سبقوه أمكن مجاراتهم والتفوق عليهم، ونلاحظ أن نهجه الكتابي عَصّي على التقليد، وبذلك نستطيع أن نفسر حيرة أصدقائه وترددهم في الكتابة إليه بسبب شعورهم بالتقصير أمام بيانه المبتكر الذي لم يألفوه.

*

كتب إليه الأديب الشيخ أحمد محمد النعمان وهو أحد أعلام النضال السياسي والأدباء المبدعين في «اليمن» يصف موقف أحد أعلام الكتابة من رسائل التويجري.. فقال:

[وسأعود بك مرة أخرى إلى كلمة ذلك العملاق الجبار الذي هالنا بفكره في شبابنا، كما أذهلتنا أفكارك في شيخوختنا، والذي رُمِيَ منك بداهية، وقف أمامها خاشعاً مأخوذاً عاجزاً عن مجاراتك، يردد على أسماعنا قوله: «المراسلة مع الشيخ عبد العزيز ورطة، فإما ألاّ نرد عليه وهذا شيء مخز ومخجل وفاضح، وإما أن نحاول الرد فنعجز ولا ندري ما نقول...».

ويضيف «النعمان»: [وإني لأستعين عليك اليوم في الردّ على رسائلك بأول رسالة لك، قرأتها قبل عام مضى... ولن أقول إني كنت كالباحث عن حتفه، ولكني كنت كالظمآن في ظل إنسان... أغرقني بأفكاره وعواطفه ومشاعره...].

*　*　*

ويكتب إليه الكاتب المصري لطفي الخولي: [تبدو كلماتك في هذه الرسالة البليغة بلاغة السهل الممتنع كما يقولون، بسيطة كالنهر الجاري، أو كالشمس حين تصعد بالشروق، رغم أنها مثقلة بهموم من اتحدت معاناته مع معاناة البشر في أمته، فإنها تمنح لا بل تزرع الأمل في الإنسان العربي المعاصر الذي يكابد هزيمته ويغالب أخطاءه...].

*　*　*

ويكتب إليه الكاتب يوسف إدريس: ***[إحساس عميق يربطني بالكاتب المبدع فيك، ذلك الذي تذهلني قدرته على الإبداع التلقائي الفوري، وهو الشيء الذي لا أستطيع أن أفعله.].***

*　*　*

نستنتج من ذلك أن هناك تدفقاً وطواعية في التعبير لدى الشيخ «التويجري» وبساطة وراءها عمق غور، وفكر يُقدّم بأسلوب غير مباشر يستعير ضرورات الصحراء التي تتكلم

بلسانه أو يتكلم بلسانها.. إنها فلسفة الرجل العادي البسيط الذي يلاحظ بذكائه الفطري ما يصعب ملاحظته على المثقف الذي طبعته الثقافة..

يقول عن التاريخ:

[رأيت أكثر مافيه تاريخاً للأقوياء، وربما الطغاة، ولكني لم أرَ فيه فلسفة الرجل العادي، بل في أكثر الحالات، أشهده رماداً في الحريق ساقه إليه طاغية جبار...].

إنه يبصر التاريخ بعين زرقاء اليمامة، التي تنذر قومها بالخطر، فوق مرقبها، أو يجوس في ثناياه. حصان امرئ القيس، ببساطة البدوي، ليعلم ويعظ ويردنا إلى جادة الصواب.

*

رسائل الكاتب الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري قد يستهلها بالمجاملات الوجيزة، أو يتحرر منها إلى إبراز مشاعره أو تأملاته حول ما يكتب إليه... يقول: [.... لا أعرف كيف استقرئ رسالتك الكريمة على هوامش بشرية، فهي لم تكن رسالة كلماتها عجائز خاملات الذكر، تصابين على مفترق الطرق، ولكنها نجوم تناثرت على ورقي...].

ثم يكون العرض المسهب والمفصل الذي يضمّنه «التويجري» عصارة فكره ومشاعره وسحر بيانه، وقد يعزّز

رحلته الفكرية بشواهد من الشعر أو القرآن الكريم، وكثيراً ما يعتذر إلى المرسل إليه من استطراداته وسبحاته بتواضع، أو يستسمحه من تشاؤم يقوده إليه واقع الأمة، وتتألق صوره المبتكرة كقوله: [ليس هذا مني عنصرية يابسة أضلاعها، لا أعرف هل سخرت مني الأماني، وأخلت بتوازن الرسالة، أنام ليلة الحلم على كثب من الرمال، رقد عليه البدوي في ليلة مقمرة في أودية نجد.].

ويأتي ختام الرسالة متألقاً، وفيه من الطرافة والجدة مالم نألفه: [لا تخف عليّ من جنون قيس، فذاك قلبه، لا يشم غير روائح الربيع تحمله إليه صبا نجد، أما اليوم فلم تعد لنا صبا، وتبدلت الروائح، وحريق النفط أحرق القلوب، وغيّر ملامح الطبيعة في مياه الخليج، وفي الصحراء لم نجد لنا ملجأً نجادل فيه الأحداث وسأم الذات غير الورق مع من نحب، ولك اعتذاري وتحياتي..].

إن أسلوب الشيخ عبد العزيز التويجري مدرسة تُضاف إلى مدارس كتّاب النثر العربي المبدعين كالجاحظ وابن العميد وابن المقفع والتوحيدي، وإن الأديب العربي اليوم إذا أراد أن ينهج طريقة «التويجري» ويجاريه، يجب أن يمر بتجربة حياتية تماثل تجربته، وأن يكون في حياته ونظرته إلى الحياة بدوياً على

الفطرة، وأن يظلّ متمسكاً بقيمه الموروثة، متطلعاً إلى نهضة أمته، مبدعاً، جمع أجمل ما في التراث بعين الفاحص للماضي، ليبني المستقبل، صادقاً، بعيداً عن التكلف والمداورة والنفاق.

وربما عزّ وجود مثل هذا الإنسان في عصرنا الذي يطوي منا أنفس ما فينا، ليصوغنا وفق مشيئته لا مشيئتنا، ونحن مستسلمون لقدرنا لا نثور عليه كما ثار التويجري وتحداه...!! ولا يعني ذلك أن «التويجري» يريد أن يعيدنا إلى عصر الناقة و الركائب، - كما قدمت - فهو يؤمن بالتطور، ويريد لأمته في هذه الرسائل أن تواكب العصر، ويأسى لها أنها لم تردُ الفضاء مع الرائدين، ولم تمارس دورها الحضاري الذي كان لها، ويرى سرّ تخلّفها في تخلّيها عن قيمها وتبعيتها للغرباء في التواكل والكسل اللذين لا تحسد عليهما.

* * *

أدب الرسالة
عند طه حسين

رسائل طه حسين[١] التي اعتمد عليها الباحث «إبراهيم عبد العزيز» وغيرهم من الذين ترجموا له محدودة جداً، إذا قيست بالرسائل التي وجهها أبناء عصره إليه من مفكرين وطلاب تتلمذوا عليه، ومريدين أعجبوا بعبقريته، ولعلّ سبب قلة عدد رسائله يُعزى إلى اهتمامه بالنتاج الفكري والأدبي، وضيق وقته الذي لم يسمح له بالردّ على ما يتلقاه من رسائل، إضافة إلى ذلك ظروف حياته، فقد كان مضطراً أن يملي رسائله بسبب فقد بصره على سكرتيره، وربما كان يتحرج أن يطلق لنفسه العنان للتعبير عن مشاعره الخاصة لهذا الوسيط الذي يقف بينه وبين من تربطه بهم علاقة حميمة.

مرت في حياة «طه حسين» مواقف قاسية، إضافة إلى المآسي التي ذكرها عن فقد بصره في كتابه «الأيام» فحين

---

(١) رسائل طه حسين... جمع وترتيب: إبراهيم عبد العزيز... منشورات «مكتبة الأسرة» القاهرة في (٢٧٠) صفحة من القطع الكبير.

رفض رئاسة تحرير جريدة «الشعب» الناطقة بلسان حزب رئيس الوزراء آنذاك «إسماعيل صدقي» ضيّق عليه وسدّ أمامه سبل العيش حتى لقد فكر في الانتحار. لولا أن احتضنه حزب «الوفد» فحرر في صحيفة «كوكب الشرق»، ورحب به «مصطفى النحاس باشا» زعيم الحزب، وجرت بينهما صداقة ومراسلات.

مع أن «طه حسين» كان قد حمل على مؤسس الحزب «سعد زغلول» وذلك لعدم احتفائه به حين التقيا، وموقفه من كتابه «في الشعر الجاهلي» وما أحدثه من أزمة...

ويبدو أن «طه حسين» كان حريصاً على الاحتفاظ بالرسائل الرسمية لأهميتها، ففي رسالة من «النحاس باشا» يُبلّغ «طه حسين» بفرحه لمعاهدة ١٩٣٦م، ويتمنى أن يكتب له «طه» باستمرار [لأن مثل هذه العواطف الخالصة التي بلغت الغاية في التعبير عنها، هي راحة النفس المكدود، وعون على أشق المجهود، وزاد في مواقع الجهاد.]. وهذه المكانة لـــ «طه حسين» في قلب النحاس، تبرز إعجابه بفكره وأدبه، كما يكتب له بعد صدور «الأيام»..[... ولا أكتمك أن كتابك زاهر بالصور الفنية الطريفة، والوقائع الحقيقية الرائعة، فهو جدير بأن يُقرأ ويُقتنى]. وكذلك يبدي إعجابه بكتابه «على هامش السيرة» فيكتب له: [ولا ريب أنك أحدثت في الأدب العربي ألواناً من الفن].

ولا نجد في رسائل «النحاس باشا» وهو الزعيم السياسي ذلك التعالي على «طه حسين». بل نراه يعامله معاملة الند، فيكتب له عام ١٩٤٨م: [أما بعد.. فقد تسلمت كتابك الرقيق فلمست بين سطوره صدق الأخوة وحدب المحب وعاطفة المخلص المكين.. إني معترف بفضلك، مقر بعلمك وأدبك.]. ويعتذر لتقصيره في الكتابة إليه لأن من كان مثله [لا يمكن أن يقصر أو يتغاضى بل هو معذور لأنه يقدم للعلم والحضارة والثقافة أجلّ الخدمات وأخطرها].

ومثل ذلك الإعجاب والتقدير نلمسه في رسائل الشخصيات التي راسلته كلها، ولاسيما طلابه الذين كانوا يجلّونه ويحفظون له التقدير مهما بلغوا من التبريز.

ويدخل «طه حسين» الوزارة - وزيراً للمعارف - وكان «النحاس» يستشيره ويحاوره.. فقد اقترح عليه أن يهدد الملك باستقالة الوزارة إن ظلّ على إصراره بأن يلغي مجلس الدولة.

ولم يكن «طه حسين» في منصبه حريصاً على كرسي الوزارة، فكتب إلى «النحاس» بعدما راجت إشاعة أنه سينحى عن وزارة المعارف: [أكتب هذا ومقامك الرفيع يعلم أني أزهد الناس في الوزارة، وأبغضهم لها، وأحرصهم على فراقها، ولكني أحب مخلصاً أن تثق مني بالودّ المحض والإخاء

الصرف، وبأن بقائي في الوزارة أو تركي لها رهن برأيك، فأي الأمرين أحببت، فإنه سيقع مني موقع الرضى].

فيجيبه النحاس باشا: [أنت أخ الود، وصديق النفس، وما كانت العلاقة بيننا علاقة وزارة نشترك فيها، أو حكم نتقاسم همومه وآلامه، ولكنها أكبر من ذلك وأسمى، وأبقى على الزمن وأخلد].

وفي رسائله إلى أصدقائه بعد تخلّيه عن الوزارة، نقف على محاولته المستميتة لشقّ طريقه في العمل الصحفي، فاشترى امتياز جريدة «الوادي» ولكنه على نجاحه كاتباً، كان مخفقاً كإداري، واضطر إلى الاستدانة من «نجيب الهلالي» الذي أصبح وزيراً.. فيقول في رسالة إليه: [أنا أعلم أني ثقيل، ولكني أعتقد أنك تحتمل ثقلي الذي أرجو أن يخف قريباً... ولعلي لم أبتسم كما ابتسمت في هذه الأيام المظلمة... وإذا كان في حياتي شيء محض، فهو احتياجي كثيراً إلى أن أستدين وإشفاقي المتصل من العجز عن أداء الدين].

ويخاطب «الهلالي» في رسالة أخرى متجاوزاً الصيغ الرسمية، ويقترح عليه بعض الإصلاحات في وزارة المعارف، ثم يختمها بقوله: [والآن أعترف أني أطلت، ولكني أرجو ألاّ تكون هذه الإطالة مانعة لك من قراءة هذا الكتاب، وأنا أعفيك

من الردّ عليه، وإذا وضعت عنواني في آخره، فليس معنى ذلك إلا أني أنبئك بمكاني لعلك تحتاج إليَّ في بعض الأمر].

ويبادر «الهلالي» إلى تكليفه العمل في عدد من اللجان، لكن «طه حسين» لم يكن نفسياً مهياً لتسلم أي عمل بعد الأزمة التي مرّ بها.. ففاجأ صديقه الوزير بكتاب استقالته من أي عمل كلفه إياه، وعلل ذلك بقوله: [أكتب إليك راجياً منك في صدق وإخلاص، ألاَّ تغضب حين تجد في الوزارة كتاب استقالتي من اللجان.. فأنت تعلم حق العلم أن أثقل شيء على نفسي، وأبغض شيء إليّ أن تطلب إليَّ شيئاً فأجيب: بـــ "لا".. ولو أن حالتي النفسية - كما يقولون - صالحة لما اعتذرت عن عمل مهما كان شاقاً ثقيلاً...]. واعترف طه حسين بفضل صديقه الوزير عليه، إذ ردّه إلى الجامعة، وحمل الحكومة على إنصافه ومكّنه من السفر إلى أوروبا. وقابل «الهلالي» استقالة طه حسين من اللجان بالغضب والثورة فيكتب إليه «طه حسين» ثانية: [أنبئت أن ظنك ساء بي، فقدرت أني حين استقلت من اللجان التي تفضلت فوضعتني فيها، إنما قصدت ألاّ أتعاون معك.. وكنت أعتقد أن مكانتي في نفسك أرفع من هذا... فصدقني إن قلت لك، إن سوء ظنك بي يؤذيني في كرامتي، ويجرحني في مروءتي...]. ثم يتحدث عن الوشاة الذين سعوا لدى الوزير، ليثيروا سخطه على صديقه.. ويختم رسالته المؤثرة بقوله: [إن

كنت حريصاً على مودتي مستبقياً، فَمُرْ أحد كتابك بدعوتي إليك، وإلا فلن أكلفك ما لا تحب، ولن أريك وجهي الذي تكره.. وأحب أن تذكر هذا البيت القديم، فهو أصدق وصف لما بيني وبينك:

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني

يمينــك فانظر أيّ كفّ تبــدّل]

ويضيف: [لم أحب أن أسعى إليك، لأني لا أحب أن أتكلّف السعي إلى الوزراء، وهم يظهرون الغضب والإباء، وأنا أتمثل دائماً قول الشاعر القديم:

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتهــا

خرجت مع البازي عليّ سوادُ

وقد تسألني : لم أكتب إليك..؟

فأجيبك بأني أكتب إليك، لأن غضبك يؤذيني، ولأن سوء ظنك بي يقضّ مضجعي..].

وفي وزارة «الهلالي» الثانية، يرضى طه حسين، أن يكون مستشاره الفني، لكنه يخاطبه مخاطبة الندّ للندّ، وحين يترك الهلالي الوزارة يمر بأزمة نفسية يشجعه فيها طه حسين فيكتب إليه: [هوّن عليك فليس في حياة الناس ما يستحق أن يعرّضك

لأزمة معنوية عسيرة أو يسيرة، اصبر وما الصبر إلا بالله... ولا تحزن عليهم ولا تَكُ في ضيق مما يمكرون].

ولا يتورع طه حسين عن السخرية والتفكه ليسري عن صديقه فيذكره بأنه وأمثاله خلقوا لأمر عظيم، عليهم أن يجهدوا في تحقيقه، وليس لهم أن يضمنوا نجاحه... ويقول له: واقرأ معي قول أبي تمام:

وركب بأطراف الأسنة عرسوا

على مثلها والليل تسطو غياهب

لأمر عليهم أن تتم صدوره

وليس عليهم أن تتم عواقبه

ومن أجمل تعريضاته في هذه الرسالة أنه ختمها بقوله: [أتمنى لك من راحة الجسم والقلب والعقل، أما راحة الضمير فحظك منها موفور].

ومن أبرز الشخصيات التي راسلته، تلميذته الدكتورة سهير القلماوي، والأديب أحمد أمين، فهو يذكر فضل «طه حسين» عليه، إذ نقله إلى الجامعة، وكان يعمل قاضياً في المحكمة الشرعية، وتشجيعه إياه على مزيد من الإبداع بعد صدور كتابه «فجر الإسلام» وضحاه، إلا أن العلاقة فسدت بينهما، فاتهمه «طه حسين» بأنه يتآمر عليه مع السنهوري باشا، والواقع أن

«طه حسين» كان مرهف الحس، كثير الشكوك والهواجس، وكان «طه حسين» يفسر فتور الناس عن زيارته - كما يقول أحمد أمين - بقلة الوفاء، ويُعزَى ذلك الفتور إلى زوجته التي كانت تحول بين الناس وبينه بحجة تردّي صحته، وهو لا يستطيع إغضابها.

ولعل رسالة المفكر «علي عبد الرازق»، إلى «طه حسين» تعكس محنة رجل الفكر في الشرق العربي، وهي محنة عاناها «طه حسين» إذ حورب فكره وصودر حقه في حرية الرأي بعد أزمة كتابه «في الشعر الجاهلي» يكتب إليه عبد الرازق: [إن بلادنا لم تَنْضَجْ بعد ليشتغل فيها أمثالك بالعلم، فمثلك ينتج بشرطين:

الأول: أن يشتغل في بلد حرّ حقاً يحب الحرية كما يحب الحياة، ويحرص عليها كما يحرص على الهواء والماء، وما تزال أمام مصر مسافة بعيدة جداً يجب أن تقطعها قبل أن تبلغ هذا الطور.

والثاني: أن يشتغل في بلد قد بلغ الرشد، وجاوز الصبا، ومازلنا والحمد لله في العلم أطفالاً وصبياناً.].

ويطلب الشيخ مصطفى عبد الرازق، وهو شيخ منفتح العقل متأثر بنهج جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده الإصلاحي، أن يعمل «طه حسين» بنصيحة «ثروة باشا» خلال أزمة «الشعر

الجاهلي»، ووقف فيها الأحرار والدستوريون إلى جانبه، وذلك بأن يتوقف عن الرد والرد المضاد على الذين أثاروا عليه الزوبعة من رجال الدين والفكر المحافظ، لتحجيم الهياج والحدّ من نتائجه.. يقول: [ومالي لا أهجع وتهجع معي مادام «ثروة باشا» يوحي إلى «السياسة» ألا نكتب لك شيئاً، ويوحي إليك ألا تكتب في الصحف أي أن تهجع..].

ويفسر الكاتب «توفيق الحكيم» شكوى «طه حسين» من تنكر صديقه «السنهوري باشا» الحقوقي المشهور بعد أن أحسن إليه في أكثر من موقف، فيقول: [إن الحساسية عند «طه حسين» كانت بسبب وشاية أو سوء فهم من «طه حسين» لآراء وتصرفات بعض أصدقائه دون أن يقصدوا الإساءة إليه، وهذه الحساسية كانت تضخم له الأشياء وأمثالها مما كان يتراكم في نفسه دون أن يظهره، فلا يعرف أحد مشاعره إلا بعد زمن، فقد صرح بأن «السنهوري» يكيد له، ويتآمر عليه، وهو لا يدري مع أنه كان وزيراً].

ويصفه الكاتب أحمد أمين فيقول: [صداقة طه حسين متعبة وعداوته متعبة أيضاً، ويزيد الأمر التباساً وتعقيداً قدرته على كتم مشاعره المؤلمة تجاه أصدقائه]. وكان السنهوري يختلف في الرأي مع «طه حسين» حول مسائل تربوية منها: تقليد المرأة المناصب، فقد كان السنهوري محافظاً للرأي العام، بينما كان

«طه حسين» ينادي بحق المرأة في تقلد أرفع المناصب العامة. وإن كان الرجلان جهدا في فتح أبواب الثقافة بمعناها الواسع للجماهير.

ومن الأدباء الذين شجعهم «طه حسين» الكاتب أمين يوسف غراب، ذلك الأديب الذي لم يكن يعرف القراءة والكتابة حتى الخامسة عشرة من عمره، ثم بنى نفسه وأصبح روائياً ناجحاً، وشجعه «طه حسين» ولقّبه بـــ «موباسان الشرق»، وظل هذا الأديب يكنّ له الولاء.

ولم يكن «طه حسين» في عمادة كلية الآداب أقل تعرضاً لأذى خصومه في الفكر، ففي عام ١٩٣٩ حدثت أزمة أثارها هؤلاء بسبب تدريس كتابين مقررين لقسم اللغة الإنكليزية هما: «محادثات خيالية»، تأليف: و. س. لاندر، ورواية تمثيلية عنوانها «جان دارك». واحتج هؤلاء على ورود ما يسيء إلى الدين، فحقق «طه حسين» بالأمر كعميد للكلية، ورفع تقريره إلى مدير الجامعة «أحمد لطفي السيد».

لأنه لم يجد مطعناً.. وكشف عن عقلية المتعصبين..

كان «طه حسين» يبرهن في رسائله ومواقفه على ثبات في رأيه، ودفع حرية الفكر إلى آفاق تفتح باب الحوار ولا تسدُّ النوافذ، ولو كلفه ذلك أقسى التضحيات. ومن المؤسف ألا يصل

إلينا من رسائل طه حسين إلا القليل، ولكنه كشف عن كثير من جوانب حياته ومواقفه وشجاعته، وصموده أمام مبادئه الفكرية، وما تعرّض له من محن، وإن كانت تلك الرسائل لا تكوّن جانباً هاماً من جوانب فكره الشامل قياساً إلى ما أنتجه من فكر مبدع.

* * *

أدب الرسائل عند:
عباس محمود العقاد

تُعّد رسائل الكاتب عباس محمود العقاد[١] وثائق أدبية هامة، لأن أسلوبه فيها هو نفسه في كتاباته الأدبية، فقد كان يملك الوعي بأنَّ ما يكتبه من رسائل يجب ألاَّ يخرج عن دائرة الأدب والفكر، ولاسيما الرسائل الذاتية التي هي أخصّ أنواع التعبير المستخدمة عن للكشف عن شخصية صاحبها، لأنه يبوح بها بما لا يبوح به في نتاجه الفكري والأدبي، بحكم الصلة التي تربطه بمن يوجهها إليهم كالأهل والأصدقاء والأقران في العمل أو في التنظيمات السياسية والجمعيات الأدبية والثقافية.

ورسائل العقاد التي حفظها الزمن من الضياع، جمعها الأديب «محمد محمود حمدان» في كتاب عنوانه: «من رسائل العقاد»

---

(١) من رسائل العقاد.. جمع وترتيب: محمد محمود حمدان.. منشورات الدار المصرية اللبنانية عام ١٩٩٧م. في (٤٤٧) صفحة، من القطع الكبير.

أكثرها موجّه إلى أقرانه من رجال الفكر والأدب، وهي رسائل متفرقة لا تؤلف منظومة فكرية واحدة، إلا أن أهمها تلك التي وجهها إلى الأديبة «مي زيادة»، التي كان يكنّ لها مشاعر الحب والعطف والإكبار، لكنها تظل رسائل من طرف واحد. تختلف عن مجموعة الرسائل المتبادلة بين مي وجبران.

ورسائل العقاد الرسمية محدودة جداً، فقد كان عزوفاً عن المناصب والسياسة، ولم يسلم من تورط في الصراعات السياسية والحزبية التي سادت المجتمع المصري حينذاك.

وفي رسائله إلى أقرانه من الأدباء والمفكرين، يبدو عباس محمود العقاد شديد الأنفة، معتداً بنفسه، لا يهادن، ويقسو في رسائله، وقد فطر على الصراحة والجراءة، لا يجامل حتى أصدقاءه الذين تربطه بهم علاقة ودّ.

وقد غذّى تلك النزعة الهجومية لديه طبعه الطموح، وإخلاصه للحقيقة، واحترامه للنقد النزيه الذي اتخذه منهجاً له في حياته، فكثر خصومه، وإن كانوا يعترفون له بسعة الثقافة والعلم الغزير والعقل الراجح، من ذلك أنه بعدما توقفت جريدة «الدستور»عام ١٩١٠م، وكان ينشر فيها مقالاته. أصبح العقاد دون عمل، فكتب إلى صديقه «محمد لطفي جمعه» يطلب مساعدته، فتوسّط له لدى مجلة (البيان). إلا أن العقاد لم يجامل

صديقه (جمعه) الذي ترجم كتاباً عن (نابليون). فنشر مع الكاتب إبراهيم عبد القادر المازني مقالات قاسية في نقد الكتاب، فاتهمها (جمعه) بأنهما مدفوعان من الكاتب «إبراهيم رمزي» الذي نشر ترجمة أخرى للكتاب. وأظهر «العقاد» عيوب الترجمتين وحسناتهما بلا مجاملة، وأثنى على دقة ترجمة «رمزي». فأغضب ذلك «جمعه» إذ رأى في ما كتبه العقاد جحوداً ونكراناً لصديق مدّ له يد المساعدة أيام الضيق، لكنه لم يشهر به، مع أنه كان يحتفظ برسالته التي طلب فيها المساعدة.. وفيها يقول:

[أبثكم تحياتي وأشواقي.. وبعد: فأذكر أني سمعت منكم يوم لقيتكم أنكم تسرّون بتقديم المساعدة إليّ عند الحاجة إليها. ولقد سمعت هذا الكلام من كثير غيركم، فما خطر لي أني سألجأ يوماً إليهم أو أقول شيئاً عليهم، ولكنني فهمت من كلمتكم غير ما فهمت من كلماتهم، وبعثت إليكم بهذا الخطاب لأقول لكم إني في حاجة إلى تلك المساعدة بل لا أظن أن هناك شيئاً مما يحتاجه الحي في حياته، لست أنا في أشد الحاجة إليه الآن، وكفى بذلك تصريحاً وإيضاحاً.. فإن كانت مساعدتي في وسعكم، فأنا أنتظرها منكم اليوم].

تعكس الرسالة أنفة العقاد حتى في أقسى ظروف حياته، لكن إخلاصه للنزاهة في النقد، وحرصه على طلب الحقيقة، كان يقابلهما انفعال وغضب شديدين إن تعرض هو للهجوم أو النقد،

وفي ذلك مجانفة للموضوعية، من ذلك أن صلته بالكاتب طه حسين كانت تقوم على الودِّ وتبادل الإعجاب، فقد خطب «طه» في الاحتفال بتكريم العقاد عام ١٩٣٤م. وتنصيبه أميراً للشعراء بعد وفاة«شوقي» [.... حين أسمع شعر العقاد، أو أخلو إليه، فإنما أسمع نفسي.. أو أخلو إلى نفسي..].

وأثنى العقاد على طه حسين عند صدور كتابه «الأيام» ١٩٤٣م وعدّه من روّاد القصة الواقعية.. فقال: [طه حسين كاتب مستقيم الفطرة، وإن لم يكن في فطرته عمق وخيال، قوي الرأي، وإن لم يكن رأيه بالواسع المتعدد الجوانب].

نلاحظ أن نقد العقاد لم يكن مجاملة، بل كان موضوعياً لا يخلو من صراحة، إلا أن العلاقة بين العملاقين لم تكن تخلو من اهتزاز فرضته المطارحات النقدية، فقد أنكر العقاد في كتابه «مطالعات في الكتب والحياة» الخيال الشعري لدى «المعري» في «رسالة الغفران» الذي أعجب به طه حسين. ذلك أن العقاد لم يرَ في رسالة المعري سوى «كتاب أدب وتاريخ، وثمرة من ثمرات الدرس والاطلاع ليست بالبدعة الفنية ولا بالتخيل المبتكر».

فردّ عليه طه حسين بمقال جاء فيه: [ولكن الذي أخالف فيه العقاد مخالفة شديدة، هو زعمه أن أبا العلاء لم يكن صاحب

خيال في رسالة الغفران... وهذا نكرٌ لا أدري كيف تورّط فيه؟...].

فلما قرأ العقاد الردّ لم يشأ أن يطيل أمد الجدل المعلن للناس بل أرسل رسالة إلى طه حسين، لا تخلو من نزعة هجومية قاسية على عادته.. استهلها بقوله: [أشكر لك ثناءك واهتمامك، وأبادلك التحية مدحاً وقدحاً بالصاع صاعين، وبالباع باعين... وأعجب بشجاعتك في تقريظ كتابي ونقده في صحيفة السياسة... وإن كنت أسأل نفسي: هل هي شجاعة حقاً؟].

ويتهم العقاد طه حسين بأنه يتلذذ متسرعاً في نقده، ويضيف [كأنك تحتاج أحياناً إلى شجاعة]، ويعيب عليه أنه يهتم بالفلسفة والفن اهتمام متفرج لا متعمق، ثم يؤكد رأيه في ضعف الخيال الشعري لدى المعري، ويختم الرسالة بالعبارة القاسية: [وأقول لك أخيراً: حسبك، فقد عرفت صوت نفسك، وإنه لصوت يسمع على مافيه من نشوز...!. وتقبل مني التحية والسلام.].

*

على أن هذه الخصومات النقدية والفكرية التي عرفتها الأوساط الأدبية بمصر آنذاك، كانت تتغذى من الصراع السياسي، وتستغل لترويج الصحف الناطقة باسم الأحزاب السياسية، فكانت المعركة الأدبية جزءاً من المعركة السياسية،

وعلى الرغم من المعارك الأدبية القاسية، فإن العقاد ظلّ يحتفظ بعلاقات المودة والصداقة مع معارضيه. فقد هنأه «طه حسين» بعد خروجه من السجن عام ١٩٣١م. بسبب حكم صدر عليه بتهمة طعن الذات الملكية، وكان العقاد يراسله في أكثر من شأن بعد أن تولّى طه حسين وظيفة مستشار فني في وزارة المعارف، ومع أن رسائله في الشؤون العامة كانت وجيزة، إلا أنه كان يميل إلى الإسهاب حين يضطر إلى ذلك... ففي رسالة يوصي بها طه حسين بالفنان الموسيقار «حسن الشجاعي»، يستهلها بالتحية، ثم يقول: [يسرني أن أتوسط لديكم فيما يسركم أن تتجزوه، وهو تمكين الثقافة النافعة، ورعاية الفن الرفيع، والأخذ بيد ذويه،]. ثم يذكر جهود الموسيقار «الشجاعي» الفنية، ويتوسط لدى «طه» ليرده إلى وظيفته، ويحرص العقاد على أن يسوّغ توصياته بالحرص على المصلحة العامة، أو تحقيق العدالة الاجتماعية... يقول: [ولولا ثقتي بأني أتوسط لفن قبل أن أتوسط لصديق، لما شغلت وقتكم بالكتابة].

ويعرض دوافعه، ويبسط التماسه بصورة مقنعة وببلاغة تجعل رسائله جامعة مانعة على قصرها. كتب مرة إلى «طه» يطلب إنصاف المترجمين في وزارة المعارف... فوصفهم قائلاً: [وقد سلخوا في عملهم هذا عشر سنين، لو سلخوا بعضها في طلب لقب علمي لأدركوه... أو في طلب مال لحصلوا منه ما

يغني... ولكنهم خدموا العلم فتخلفوا، وفاتهم باسم العلم زملاء لهم لم يخدموه مثل خدمتهم، ومن حقهم أن يطمعوا في رعايتكم.].

والعقاد في رسائله، يكشف عن ثقافة واسعة وغزيرة، كتب إلى «محمد طاهر راشد» الذي احتفظ برسائل العقاد، مبرزاً اطلاعه الواسع على الثقافة الهندية، فكتب معلقاً على كتاب للشاعر «طاغور» [أسئلة كثيرة في قدرة سواد الغربيين على فهم وجهة النظر الهندية، لأن القوم مغرورون بمدينتهم غروراً لا يفيقون من سكرته.. وعندي أن هؤلاء الذين يتهجمون على أساطين الآداب الشرقية، ولا يدينون بالشاعرية لغير الغربيين، لا يدلّون على حرية فكرية أو جرأة أدبية].

ويفسر هذا الحكم في رسالة أخرى، فيقول: [الذي أقصده، أنني لا أقيس مدنية الغرب بعدد مخترعاتها الحديثة، ولكن بالملكات والمواهب التي أنتجتها، فهل بين هذه الملكات ماهو أعظم وأجلّ وأرفع من الملكات التي أبدعت صناعات المدنيات الغابرة وعلومها وفنونها...

وأنا أعتقد جازماً أن القمة الروحية التي ارتقى إليها نُسّاك الشرق لم يبلغها غربي ممن نعرفهم أو نقرأ عنهم].

*

ولا تخلو رسائل العقاد من سخرية، لكنها سخرية جارحة متشائمة مشفوعة بالنقد اللاذع... يكتب إلى صديقه «الراشد» الذي ألمح إلى خوفه من البحر: [أعذركم في خوفكم من البحر، فإن البحر إله مخيف لمن لا يؤدي صلاته الواجبة، وما صلاته الواجبة إلا حركات جسمانية يسمونها السباحة... وكم من أناس غرقوا في بحر الحياة، لأنهم لا يحسنون أداء بعض الحركات... حركة سلام مثلاً، أو إشارة رضى وامتثال..!!].

وتنطوي رسائل العقاد إلى الأديب «طاهر الجبلاوي» على فكاهة طريفة وخفة دم، وقد لازمه «الجبلاوي» مدة، وتمتنت بينهما الصداقة. أرسل إليه الجبلاوي مسرحيته «الرواية الضائعة» لبيان رأيه فيها، وكان قد أرسلها إلى عدد من الشخصيات، فكتب إليه العقاد: [روايتك الضائعة رأيناها في كل مكان، عند الزعماء والفضلاء، فيالها من رواية ضائعة توجد في كل مكان..!!]. وعلّق على رواية له عنوانها: «ديك الجن» شعراً فقال:

يـــا طـــويهر الأدب   والخبيـــر بالكتـــب

هــل فرغــت ويحــك مــن ديــك جنــك الجَــرِب

الــــديوك صــــائحة   وهو بعــد لــم يجــب

فارم في الطريــق بــه   أو فكلـــه وانقلـــب

كما لا تخلو بعض رسائله من تندر ومزاح... كتب إلى «أحمد الشريف»: [من حقك أيضاً أن تذكر أن المواعيد قسمان: برانية وجوانية، ولعل نصيبك كان أكثر من البرانية... وعليك بعد الآن أن تفرزها عند الاستلام..!!].

وفي رسالة أخرى.. يكتب له معرضاً بتأخر القطار... يقول: [سنصل إلى القاهرة صباح الأربعاء بإذن الله.. وبعد الظهر بإذن سكة الحديد، إلا إذا شاءت أن تتقي الله على الصبح، فنصل في الميعاد]. وفي رسالة أخرى يكتب معتذراً: [ترد إلينا أخبار على فترات كفترات الوحي، ولا ندري متى نصل إلى خاتمة الرسل.].

ويعرض بتقصير البريد في وصول الرسائل فيكتب: [إذا وصل إليك الكتاب بعد وصوله إلى مصلحة البريد، فاعلم أن عهد الخوارق والكرامات لا تزال له بقية في القرن العشرين!].

*

ولا يُظهر العقاد مشاعره النفسية في رسائله: إلا نادراً حين يبثها إلى صديق اختصّه... بالبوح الوجداني أو إلى امرأة عزيزة على قلبه... وكان هذا الصديق الشاعر «عبد الرحمن صدقي» فهو يتبسط معه في البوح، ويكشف له عن أسرار قلبه، يكتب له: [عندنا هنا فتاة بولونية يهودية من السائحات، وهي

وحدها تقدر بعشرة مواسم كاملة من مواسمنا الأسوانية، الله أكبر، أأقول فتاة..؟ وماذا في هذه الكلمة..؟ ألا لعنة الله على اللغات كلها، فإنها أضيق من أن تمثل ما تراه العين، فما بالك مما يتصور الوهم ويترسمه الخيال..؟].

ويكتب له في رسالة أخرى:[أصبحت يوم الأحد على مناوشات صبيانية من قبيل ما تعلم: وقفة خلف الباب تتسمّع، ثم خطوة عند النافذة، تتراءى لي بالقميص الذي تعرف أنني أحب أن أراها فيه.. ثم ذهاب وجيئة.. وحركة وابتدار في غير طائل..].

وقد أجاد [عبد الرحمن صدقي] في وصف شخصية العقاد حين كتب: [قامة باسقة مديدة كالعملاق في غير عنف ولا بدانة، سمرة كماء النيل في مستهل فيضانه، فوقها شفة مقوسة تنم عن استخفاف وسرعة انفعال.. يسير بخطوات واسعة وإحساس بالوحدة.. لكنه يحس جميع ما حواليه، ويشعر معه..... ووحدته كأنه مالك الحزين على ضفة النيل القديم..].

ويكتب العقاد إليه من «دمشق» التي لا تعجبه قياساً إلى بيروت، فيقول: [تدخل دمشق فينعكس المنظر، ويركد النهر، ويفسد الهواء، وتحسّ الكآبة تخيم على المدينة، وتقبض الصدور، وأبشع ما رأيته في هذه المدينة «مشنقة» في أشهر ميادينها معلقاً عليها خمسة رجال يقال: إنهم من الثوار..!].

ومن الغريب أن العقاد يشاهد إعدام شهداء السادس من أيار، فلا يوحي مصرعهم سوى الانزعاج من المنظر والهرب منه..!!.. .

*

وللعقاد مراسلات مع الكاتب «ميخائيل نعيمة» فقد كان يجمع بينهما فكر تجديدي، ودعوة متشابهة لتحرير الأدب وتجديده، طلب منه «نعيمة» أن يقدم لكتابه «الغربال» فكتب له العقاد: [إنها أريحية منك ومودة كريمة، أن تعهد إليَّ بهذا الواجب الأدبي، لتريني كيف لا تعدني غريباً ولا بعيداً. وأقول: إنني مغتبط بهذه الروح الأخوية السمحة، بل كنت أستحلّ لنفسي العتب عليك لو خطر لك تكليفي كتابة المقدمة، ثم عدلت لأي اعتبار...].

وكتب العقاد المقدمة التي تصدرت الطبعة الأولى من «الغربال»... كما قرظ مجموعة «مختارات من أدب المهجر» نشرها «محيي الدين رضا» فقال: [قرأنا فيها نثراً وشعراً، أخص ما يذكر لهما من المزايا نزعة التجديد وروح النقمة على التقليد والبعد عن اللفظ وتعسف المعنى]. ويمدح نهج «نعيمة» في الغربال لكنه لا يتورع عن مخالفته حين يدافع «نعيمة» عن حق الشاعر المهجري في الخروج عن اللغة لمقتضيات الحال...

فيقول: [ومتى وجدت القواعد والأصول... فلماذا نهملها أو نخالفها إلا لضرورة قاسرة لا مناص منها؟؟].

كما مجّد في الوقت نفسه حرية الفنان في رسالة ردّ بعثها إلى «نعيمة» قال فيها: [لا فن بغير تطلع إلى الحرية، ولا تطلع بغير حرية...].

*

ويبرز العقاد مشاعره الخاصة التي نادراً ما تبرز أمام سيطرة العقل التي تسود أعماله، في رسائله إلى الشاعر «عزيز أباظة» الذي فقد زوجته وبكاها بديوان شعر كامل عنوانه: «أنّات حائرة»... فكتب العقاد إليه: [من الحق أن تغبطوا على مافي هذه الصفحات «الديوان» من آيات الإنسانية والوفاء، وأن تفيضوا به من شمائل القرين الوفي والأب البار والرجل الكريم].

وهكذا يطالعنا العقاد الإنسان بقلب نبيل ندر أن يكشف عن أحاسيسه. وليس غريباً أن يرثيه «عزيز أباظة» وهو الذي تسلّم بعد وفاته رئاسة لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب...

والعقاد في رسائله دائب البحث عن مصادر الثقافة ومناهلها الحديثة، ففيها الرسالة التي يوجهها إلى الأديب أحمد إبراهيم

الشريف، يلتمس منه تزويده بكتب صدرت حديثاً، وينسق معه لإرجاء بعض الدراسات ريثما تصل المراجع التي يمكن أن تغنيها، شأن العالم المتابع والحريص على الإحاطة والشمول.

وهكذا تبدو رسائل العقاد غنية بالكشف عن أسرار حياته وعالمه الخاص، وتغني آراءه وأفكاره، وتبرز علاقته بأعلام عصره، وهي شهادة وفاء لأصدقائه وإخلاصه في الدفاع عن الحقيقة ولو تحمّل من أجلها رهقاً، فقد استبعد بسبب قلمه غير مرة، وطرد من عمله، لكن شجاعته وعلمه كانا محط إعجاب الناس بشخصيته المتميزة.

* * *

رسائل عباس محمود العقاد
إلى ميّ زيادة

هي مجموعة من الرسائل احتفظ بها الكاتب عباس محمود العقاد في حياته ولم يعلن عنها، ولم يذعها للناس ضناً بها أن تعلن، وإن كان يرى أنه لا مانع من أن تعلن هي ومثيلاتها، فمنها كما يقول: [مايهم أن يطلع إلى عالم النور... لكن لا ندري أين موضعها الآن... والذي بقي منها في موضعه أو عند أصحابه يساوي الجهد الجميل الذي يبذل في جمعه وإنقاذه، وتسليمه لأصحاب الحق الأخير فيه، وهم قرّاء الأدب ومحبّو الفنون...].

ولا يخفى أن «العقاد» لا يشير إلى الرسائل المتبادلة بينه وبين الكاتبة «مي زيادة» فحسب، وإنما إلى جملة الرسائل التي كانت تتبادلها مع عدد من الأدباء وأعلام عصرها ومنهم «العقاد». وقد نشرت بعض رسائل العقاد إلى «مي» بعد وفاته.

يعود أقدم هذه الرسائل إلى عامي (١٩١٥ - ١٩١٦) يوم كان العقاد في السابعة والعشرين، ومي في الحادية والعشرين،

وأحدثها في عام ١٩٢٥ أي في مدة زمنية تمتد إلى عشر سنوات.

وتجدر الإشارة إلى أن رسائل العقاد إليها هي التي حُفظت لأنه كان على ما يبدو يحتفظ بنسخ مما يكتبه إليها، في حين أن عدد الرسائل الموجهة إليه من «مي» أقل عدداً، وهي أميل إلى الإيجاز، ولهذا دلالته، ولاسيما إذا قارنّا ذلك بالرسائل المتبادلة بين «مي زيادة» و«جبران خليل جبران»، فهي أكثر اتساقاً واكتمالاً، إذ نجد لكل رسالة جوابها من المرسل والمتلقي، وقد نفسر ذلك بعلاقة جبران بمي المتأخرة نسبياً، إذ ألفت «مي» عالم التراسل ولم تلق فيه حرجاً، خاصة أن «جبران» كان يعيش في مجتمع منفتح وناء، فلا تسبب مثل هذه المراسلات لها أي حرج بالقياس إلى مجتمع مصر المحافظ، والذي تحرص فيه المرأة على سمعتها.

لم يكن الكاتب عباس محمود العقاد الأديب الوحيد الذي أظهر مشاعر الحب والحنان والعطف تجاه الأديبة مي زيادة، فقد أعجب أدباء مصر الذين كانوا يترددون إلى «صالونها الأدبي» بشخصيتها وأدبها وتحررها، وقد عبّر كثيرون منهم عن ذلك الإعجاب نثراً وشعراً، ويُجمع عارفوها على أنها كانت على انفتاحها ومخالطتها الأدباء واستقبالهم في صالونها الأدبي - آنسة - راقية التهذيب، مصونة في تربيتها، تخرجت من

مدارس الراهبات في الناصرة، وهي مدارس تعنى كثيراً بإعداد الفتاة على العفة، وتُبصِّرُها بعواقب الإثم والخطيئة، وفي نهاية حياة «مي» المأساوية دليل واضح على أنها كانت تغالب مشاعرها، وقد دفعها الكبت إلى مرض نفسي هزّ كيانها، إلا أن رقيّها وتسامحها وغريزة الأنوثة فيها كانت تدفعها إلى تقبّل الإطراء من الذين أعجبوا بها، وحاولوا التقرب منها بدافع الحب، كالأديب «جبران خليل جبران» لكنها كانت تضع حداً لجماحهم إن اشتطوا، وتُشعرهم أنها لا تقبل التمادي إلى أبعد من حدود الإعجاب والتقدير.

*

من خلال الرسائل العشر التي احتفظ «العقاد» بنسخ منها، وبعض الردود عليها من «ميّ»، يمكننا أن نكوّن فكرة عن طبيعة تلك العلاقة التي أوضحها العقاد بكل صراحة في روايته «سارة» فكتب ما يلي: [كان همّام... «بطل الرواية» [وهو العقاد نفسه] يحب امرأة أخرى حين التقى «سارة» في بيت «ماريانا».. يحبها الحب الذي جعله ينتظر الرسالة أو حديث التلفون، كما ينتظر العاشق موعد اللقاء، وكانا كثيراً ما يتراسلان أو يتحدثان، وكثيراً ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطويل إيثاراً للتقية، واجتناباً للقال والقيل، وتهدئة من جماح العاطفة... لكنهما كانا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسانين،

يتلاقيان وكلاهما على جذوره، ويتلامسان بأهداب الأغصان، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق إلى تلك الأوراق].

ولو سلّمنا بأن المرأة المقصودة هي «ميّ» فإن صدق «العقاد» في تحليل تلك العلاقة، يثبت أنها علاقة حب عفيف متبادل يمازجها الإعجاب والتقدير، فهو يقول: [ينتظر منها الرسالة أو الحديث كما ينتظر العاشق موعد اللقاء.].

ويعني بذلك أن العلاقة بينهما كانت أشبه بالعشق لا عشقاً متبادلاً، ويضيف «العقاد» : [كانا أشبه بالشجرتين يتلاقيان وكلاهما على جذوره،] ويعني أن التواصل ظلَّ في دائرة المشاعر، ولا يتحوّل إلى اندماج عميق، ويتابع العقاد: [كان يغازلها، فتومئ إليه بإصبعها كالمنذرة والمتوعدة، فإذا نظر إلى عينيها، لم يدر أتستزيده أم تنهاه.].

ويُفهم من ذلك أن «ميّاً» كانت تصدّه دون أن تجرح شعوره مع تأكده أن الاستزادة تدفع بها إلى نغمة ناشزة، أي تضع حدّاً لجماحه العاطفي كما كانت تصدّ «جبران» حين يتمادى برسائله.

إلا أن «العقاد» خُيّل إليه أنها في أعماقها تكنّ له ما كان يكنّ لها من حب، وقد فاجأته بزيارتها بعد أن شاعت صلته بسارة، فرحب بها وأبدى استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسؤالها عنه، بعدما تحدرت دمعتان من عينيها حين سألها عن سبب الزيارة،

وفهم من ذلك أنها لم تكنّ له من المشاعر مالا تقدر أن تبوح به، فما تمالك أن قبّل يدها، فمانعته ولم تكفّ عن النظر إليه، ونهضت منصرفة.. ثم يضيف العقاد: [وفسح لها الطريق أن «هماماً» لم يكن يوغل في العلاقة مثقلاً بتبكيت ضميره، لأنه لم يخن «هنداً» ولم يقصر في حقها عليه، ولا وَهَمَ أنها تغضب من أمر لا عهد بينه وبينها فيه].

ونلاحظ اعتراف العقاد بأن العلاقة لم تكن تتجاوز المشاعر المتبادلة، ويتحدث عن ندوة ميّ. فيقول: [كم كان زوار تلك الندوة العالية، وكم كان كتّاب الرسائل منها وإليها...!! إنني أعدّ منهم غير مرة نحو الثلاثين...

ويتساءل: أكلُّ هؤلاء عشاق؟؟

مَنْ من هؤلاء تصطفيه ميٌّ إذا أجابت جواب المحبوبة التي تتقبل العشق ممن يدعيه؟؟؟

هذا هو الخاطر العاجل الذي يسبق الوهم، كلما ذكرت تحيات الرسائل أو القصائد أحياناً من هذه الزمرة المختارة...

ويضيف أيضاً: [إن فات أحداً من هؤلاء واجب التحية المناسبة للمقام فما هو بزائر صالح لمثل هذه الزيارة، ولو لم تكن زيارة عشق ومناجاة. وإن فات «ميّاً» أن تتقبل هذه التحيات أو وجب عليها كما قد يخطر على بال الأقدمين أن تصدها

بالعبوس والغضب، فليست هي زيارة ندوة إذاً... ولكنها زيارة واحدة قد تنتهي كما تبتدئ عند الباب...!! وكنتُ أشعر بحنان هؤلاء الأفاضل، فإنهم ولا ريب كانوا يقصدون التسرية عنها، ويدركون من بواكير صباها أن فرط التزمت في طويتها يجاوز حدَّه المأمون، وأنها توشك أن تعاني كثيراً من العزلة النفسية التي جَنَتْ عليها في أخريات حياتها.].

*

إن رسائل العقاد إلى مي على ما فيها من حب أو مصارحة بالحب، لم تكن تتعدى ذلك الحنان، والنبل الذي تفرضه الرجولة تجاه فتاة وحيدة لا سند لها، تحاول أن تُثبِّتَ لها وللمرأة مكاناً تحت الشمس، ولو كان في هذه الرسائل ما يتعدى اللمح إلى البوح، فقد أَلِفَتْ «مي» أن تتقبل تلك المشاعر وهي كما يقول «العقاد» : [تغالب شجناً كميناً لانطوائها الشديد على ذاتها، يُخيّل إليّ أنه مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق في سليقتها الدينية]. ويُمكن أن يُضاف إلى ذلك معاناتها الاجتماعية، وردود الفعل لاقتحامها عالم الرجال في مجتمع لم يتهيأ بعد لهذه الخطوة.

*

في رسالة «العقاد» الأولى .. يُخبرها أنه يقدم إليها نسخة من كتابه «الفصول»، وسيُتبعه بنسخة من «الديوان» في جزأيه،

ويختم رسالته قائلاً: [وسأبحث عنهما، وأحضرهما إلى الآنسة إذا سمحت بزيارة تكون وصلة للتعارف وإعراباً عن احترام وإعجاب].

*

وفي الرسالة الثانية لها المؤرخة في آذار عام ١٩٢٣م، يكتب إليها أنه تلقى رسالة منها سرت كما تسري نسمات الشمال في بلدته المشهورة بحرّها، ويشكر لها ثناءها على كتابه «الفصول»، وضرورة التواصل بين الأدباء، وهذا مما يوسع نطاق التعاطف الأدبي، ويُشير إلى بعض نقاط الاختلاف في الرأي بينه وبينها في مضمون الكتاب، ويعترف بأن الاختلاف مزيّة، ويذكر أن الخلاف في المعاني الرمزية، ويبرز لها شوقه إلى محاورتها.

والعقاد في كل رسائله يخاطب «مي» بالسيدة أو السيدة الآنسة احتراماً، ولا يخرج عن هذه الصيغة حتى في رسائله الأخيرة.

وفي الرسالة الثالثة.. يتابع «العقاد» الجدل في مفهوم المعاني الرمزية، فهو يرفض الغموض في الأدب الذي لا داعي له، فالرموز في الأدب أشبه بما يتعاطاه الكهان من رموز حول أمور لا يفهمونها، ثم ينتقد رموز «جبران خليل جبران» في

كتابه: «المواكب». ويختم رسالته بتحيتها من أسوان [التي مرت بها الدهور وهي باقية]. وسينوب عنها في إبلاغها تحية عاطرة من كل هيكل فيها يزيده النسيان جلالاً وطهراً. ولا ينسى في كل رسالة أن تبلغ تحيته إلى والديها.

*

وتليها رسالة رابعة من «أسوان» لا تخلو من طول، يخبر فيها «العقاد» «ميّاً» أنه تلقى رسالتها التي تسأله فيها: هل كان قومه يقدرونه كما ينبغي، فيفلسف جوابه عن عادته.. ويقول: [فإذا كان في أثر من آثاري ما تجود عليه الآنسة بساعات من وقتها، ونفحات من عطفها، فهل آسى على العطف من جمهور يُحرمون فلا يُرثى لمحرومهم، ويُمنحون فلا يغبط صاحب الحظوة بينهم؟].

*

وفي الرسالة الخامسة لها.. يرد على رسالة تلقاها منها تُندد فيها ببيت شعر لحافظ إبراهيم ترى فيه أن لفظاً حكيماً في مجرى المفاوضات يَعْدِل ألف فدان من الأرض، فيكتب لها العقاد أنه لم يعتدّ بفدادنيه، وهو يرشح نفسه للنيابة عن أسوان بأدبه، ويعدُها بحضور ندوتها في اليوم التالي.

*

وفي الرسالة السادسة.. يعلّق «العقاد» على كتابين لها تلقاهما هدية منها.. ويصف مي قائلاً: [ربما تكون ابتسامتها هذه مما يجنّب الخطأ إلى أهله، فيتعمدونه ليفوزوا بالسخط.. ولا أخشى أن أقول إنها تشف عن قلة مبالاة في غير قليل من المواضع.. لا أخشى أن أقول ذلك لأنني أقرأ ما وراء المعاني، فأعلم أنها قلة مبالاة لم تأتِ إلا من المبالاة، بما هو أجلّ في النفس وأولى باشتعال الخاطر]. وفي هذا التلميح يضرب «العقاد» على وتر مشاعر الحب التي يعتقد أنها تكنّه في أعماقها ولا تظهره نحوه، ثم يشبه فكرها بفواكه الجنة لا يشبع منها المتناول.

*

وفي الرسالة السابعة المؤرخة في عام ١٩٢٤م يهدي إليها كتابه «مطالعات في الكتب والحياة»، فيقول: [ولا تحسب سيدتي أني خال من الغرض، بتقديم هذا القربان، فإنما أردت أن أريها كيف ينهزم الرجال، ولا يثبتون أمام الأنوثة المقدسة التي يحترمونها ويحبونها في المرأة بغير التجاء إلى سلطان الشريعة! وبذلك أحمي فكرة من الأفكار التي تعوّدنا أن نسميها بنات القرائح، وإن كنت تعلمت أخيراً أن هناك شيئاً أحلى من بنات القرائح].

*

وفي الرسالة الثامنة، يشكرها لتهنئتها بالعيد، ويرسل إليها أبياتاً من نظمه منها:

هنئــــت بالعـــام الجديـــد وعيـــده
يا خير مــن زان الجديــد وزِيْنــا
لك فـــي ســمائك كــل يــوم رحلــة
تطوينهـــا علـــواً وتبتـــدئينا
وخذي التحية من أخ لــك لــم يكــن
في طي نفــسك حــافلاً ميمونــاً
يرجــو لقلبــك كــل موقــع نبــضة
عيــداً جديــداً بالــسرور قمينــا

*

وتسافر «مي» إلى روما، فيكتب لها رسالة مطوّلة، يتخيلها بين آثار روما ومعابدها، وأنه سبق له أن تخيّلها في آثار أسوان... ويضيف: [وأعبد «مي» في تلك الهياكل، وأحب إيزيس أو أعبد إيزيس وأحب مي وأقول لها: نعم أنا مستعد لعقوبتها الرحيمة، ولن أندم عليها.].

ويلمّح في الرسالة إلى عينيها الجميلتين، ويلتمس منها أن تريه بهما [شيئاً مماتوهجُ به تلك العينان الجميلتان، وتتأرجح به تلك النفس الطهور.].

ويبدو العقاد من خلال تلك الرسالة عاشقاً مفتوناً، يتمنى [لو أن طيفه يقف إلى جانبها هنيهة في مسارح روما تحت ضوء القمر الحالم الفريد].

وتلي هذه الرسالة قصيدة عنوانها «حورية البحر» تثبت مشاعر حبه لمي.. وبوحه بمشاعره، وكأن سفرها أجّج مافي أعماقه، في مرحلة كان فيها على مفترق طريقين بين الحب لمي... والحب لسارة. وهو حبٌّ ربما كان من طرف واحد، ومما يثبت ذلك أبيات يقول فيها في «مي»:

علمتني الصبر الجميل ولـــذ لـــي
صبري وطالت في هواك أنـــاتي

لا أشتكي أبـــداً وهـــا أنـــا قائـــل
مـــا فـــات مـــات وكـــل آتٍ آتِ

إن كان أفضلُ مَنْ أحبُّ وأرتجـــي
يقسو عليّ ولا يجيب شـــكاتي.

فبأي حق أشـــتكي مـــن محنـــة
يجري بها قدري وظلم عـــداتي

*

ولعل صدّها وتمنعها كانا من أهم العوامل التي أدت إلى تحوله عنها وتعلقه بسارة التي استبدت بقلبه وسيطرت عليه، فأسرعت «مي» إلى زيارة «العقاد»، وفي قلبها صراع بين البوح والتمنع.

لكنَّ العقاد على الرغم من يأسه، لم ينقطع عن مراسلة «مي»، وظل يكنّ لها أسمى مشاعر الودّ الدفين، فيراسلها في عام ١٩٢٥م، ويكتب لها أنه تذكّرها في صحراء «ألماظة» المجاورة، وناجاها بقصيدة منها:

حيّاك يا مي مـــا غنّـــى ومـــا عبقـــا
وفاض حولـــك بـــشراً كـــلُّ مـــا شـــرقا

أتعلمـــين بـــه؟ بـــل أنـــت عالمـــة
بـــالودّ فـــي هـــذه الـــدنيا إذا صـــدقا

طوبى له ألف طـــوبى إن وثقـــت بـــه
فإنه بك دون الناس قد وثقـــا

*

وتجيبه مي برسالة موجزة تقول فيها:

[سيدي الأستاذ العزيز

أبكيتني بهذه القصيدة، أبكاني صوتك الحنون، فشكراً..

حبّذا كلمة تطمئنني عن صحتك، كيف أنت..!!].

ونلاحظ من صيغة الرسالة أن «مياً» تخاطبه بالسيد الأستاذ، وتشير إلى صوته الحنون محوّلة عاطفة الحب البارزة في الأبيات إلى أنها لون من العطف.

*

وتتعرض «مي» لعملية ابتزاز، إذ يدعي عليها مدعٍ ديوناً باهظة وبموجب سند وقعته وهي في مرحلة البواكير من مرضها النفسي، فيقف العقاد إلى جانبها، ويوكل لها أحد المحامين، ويكتب لها آخر رسالة قبل موتها.

*

ويشير العقاد إلى بوادر مرضها النفسي الذي بدأ بشكوك وأوهام، فيذكر أنه زارها، فرآها مضطربة تشكو جيرانها في البيت المقابل، وأن بيتهم ظل مغلقاً زمناً، ولكنهم الآن ينيرون أضواءه لمراقبتها، وتنفيذ أمر يؤذيها، فذهب إلى حارس البناء وسأله عن الحقيقة، فأعلمه أن أصحابه يعدونه للكراء «أي للإيجار».

عندئذٍ أدرك العقاد الواقع... وقلبه يعتصره الحزن وعرف أن «مي» تعاني اضطراباً نفسياً، وعقدة اضطهاد توشك أن تعصف بحياتها.

وتموت «مي» فيرثيها «العقاد» رثاء الوامق المفجوع:

أين مي؟ هل علمتم أين مي؟

الحديث الحلو واللحن الشجي

والجبين الحرّ والوجه السّني

أين ولّى كوكباه؟ أين غاب

كل هذا للتراب

آه من هذا التراب

*

وهكذا انطوت صفحة تلك العلاقة الرائعة التي جمعت بين عبقرية عباس محمود العقاد وتألق «مي زيادة» ... وانطوى معهما سرّ الحب العذري إلى الأبد.

* * *

فن كتابة الرسالة
لدى الكاتب أحمد أمين

رسائل الكاتب «أحمد أمين» إلى ولده الذي كان يدرس في إنكلترا، وقدّم له فيها نصائحه، ثم جمعها في كتاب عنوانه (إلى ولدي)... ليست رسائل حقيقية شأن رسائل الأدباء المشهورين، بل هي مقالات في إطار رسائل، وهي لا تلتزم فن الرسالة المألوف من حيث الاستهلال والعرض والختام، هي أشبه بكتاب مفتوح يهدف إلى تربية الأجيال وتوجيهها. نفذ فيها «أحمد أمين» إلى معالجة أزمات الجيل الجديد ومشكلاته الاجتماعية في مواجهة التغير الذي طرأ على الحياة العربية في عصرنا إثر الاحتكاك بالحضارة الغربية وغزوها الشرق العربي.

يرى «أحمد أمين» في مقدمة الرسائل أنه بكتابة هذه الرسائل يتابع خطة درج عليها التراث العربي، فقد نصح «لقمان» ابنه في قصص القرآن الكريم، ونصح الخليفة عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري لما تولى القضاء، ووجه الكاتب «محمد حافظ

بك» ولده بنصائحه القيمة، فآثر أن يسير على سنة آبائه مراعياً اختلاف الزمان وتطور المفاهيم.

إلا أن «أحمد أمين» يشير إلى أن ولده عارض هذا اللون من تدخل الآباء في حياة أولادهم بالنصح والإرشاد، ورأى أن لا فائدة تذكر منها، وإنما الأثر الأكبر يعود للبيئة والوراثة، فأقنعه والده أن النصائح الأبوية جزء من البيئة الاجتماعية. فتجارب الآباء زاد ثمين للأبناء، ولهم أن يستجيبوا لها أو يعرضوا عنها.

إنّ موقف الابن من رسائل أبيه ينكر أنها رسائل حقيقية وجهت إليه، بل لعله اطلع عليها بعد تأليفها جملة، فأبدى رأيه فيها. لاسيما أنها كانت تكليفاً من مجلة «الهلال» المصرية لكتابتها، وليست عملاً ذاتياً قام به الكاتب «أحمد أمين» برغبة منه، إنها أشبه برحلة «تيليماك» الفرنسية التي كتبت لتوجيه ولي عهد فرنسا وتبصيره بشؤون الحياة والحكم.. وكان هدف «أحمد أمين» منها التوجيه العام للشبّان في زمانه.

وإذا كانت رسائل الأدباء أمثال: مي زيادة وجبران خليل جبران تحفل بالتأمل الفكري والوجداني، ورسائل توفيق الحكيم تسلط الضوء على موقف منحاز للحضارة الغربية التي أعجب بها فدفعه ذلك إلى سوء التكيف مع البيئة المصرية بعد عودته من فرنسا. فإن رسائل «أحمد أمين» ذات صبغة عقلانية وعملية نفعية، تقوم على نزعة توفيقية معتدلة في محاولة منه للمواءمة

بين التيارات الشرقية والغربية التي تعصف بالأجيال الصاعدة، وهذه النزعة التوفيقية تتجلى في كل ما كتب.. فهو يؤمن إيماناً جازماً بالاعتدال، وإن الشباب في عصرنا قادر على اختيار موقف وسط يأخذ من الحضارتين اللباب، ويطرح القشور. والكاتب «أحمد أمين» أدرك أن الجيل الجديد خلق لزمان غير زمان الآباء، ورُبيَ تربية تختلف عن تربية السلف، ونشأ في بيئة مغايرة ترفض القديم ولا تلتمس بديلاً له، لكن على الرغم من هذه الفروق، فإن التطور يظل سطحياً عارضاً مهما اختلفت الظروف، فالإنسان في جوهره واحد، ونزعاته الأصولية ترتد إلى أصول واحدة تكاد تكون ثابتة، ومن النصائح التي يطرحها «أحمد أمين» للجيل المعاصر.. الشجاعة في قول الحق وتحرّي العدل، ولو أدّى ذلك إلى احتمال الألم وإغضاب بعض الناس، ففي ذلك راحة للضمير وثقة بالنفس. إلا أن ذلك الجهر بالحق لا يجوز أن يتم بسماجة وعدم لباقة.

والاعتدال بطلب الكسب والمال مبدأ آخر لدى «أحمد أمين»، فالمال وسيلة للحياة السعيدة، لا غاية في حد ذاته، فإن الإلحاف في طلبه يتعب صاحبه ولو أثرى. وأسعد الناس من وضع المال في موضعه اللائق به، وكسبه بشرف وإباء وإلا فإن المال يخزيه ويذلّه، ويجعله عبداً له.

والمبدأ الذي يركّز عليه الكاتب هو الإيمان الديني، فالدين عنصر من عناصر سكينة النفس، والاتكال على الخالق، وليس الدين تزمتاً وتشدداً وانغلاقاً، فهو ضروري لحياة القلب ضرورة العلم لحياة العقل.

و«أحمد أمين» مؤمن بالانفتاح على الحضارة الغربية، لكن ليس ذلك الانفتاح الأرعن ولا التقليد الأعمى الذي يمارسه الشبان الذين بهرتهم متع الحياة الغربية، فهجروا عاداتهم وتقاليدهم، وأولعوا بالمظاهر، ففي الغرب عملٌ وجدٌّ بقدر ما فيه من لعب وعبث، والشاب الذي تجرفه إغراءات التحرر الغربي لا يُعجب «أحمد أمين» مثلما لا يعجبه الشاب المتزمت الذي يرفض هذه الحضارة تزمتاً، فعلى الجيل المعاصر الذي يغترب أن يراقب سلوك الغربيين وعاداتهم، ويدرس حياتهم الاجتماعية بعمق، فيختار ما يلائم ويرفض ما لا يلائمه من تلك الحضارة. وبهذا تتجدد نفسه وترتقي ملكاته، ويعود إلى وطنه وهو أكثر إيماناً بقيمها الروحية وضرورة تطعيم الروح الشرقية بمزايا الحضارة الغربية من نظام وعلم وحرية واعية، ويجب أن لا يدفعه واقع بلده المتخلف إلى اليأس وسوء التكيف، فإن عليه رسالة لأمته يجب الوفاء لها ولو اصطدم بالعقبات، فالرجل العظيم يفرض إرادته ويحول التيار قبل أن يجرفه..

وينصح «أحمد أمين» الشبان أن يرتقوا بأذواقهم، فالعلم دونَ ذوق كالفاكهة التي لا طعم لها ولا رواء، فالذوق يصقل الأفراد والأمم، ودوره أكبر من دور العقل، وما لذة الحياة إذا خلت من كل ما يلبي ميل الإنسان إلى الجمال. جمال الطبيعة، فليس الجمال وقفاً على المرأة، إنه يتجلى في كل تصرف، جمال المعاني والكرامة والعدل، وأي إصلاح يقوم على العقل وحده لا نفع فيه إن لم تصلح الأذواق، والذوق إذا شاع في التعامل وفي مظاهر الحياة كلها كانت السكينة والطمأنينة مكان الخشونة والعنف والعدوان، وبالذوق تستميل الناس إليك وتوجههم بعيداً عن القسوة، والنصيحة - الرابعة - للجيل أن يكون للشاب هدف يسعى إليه في الحياة، وأن يشارك في الحياة العامة لأنه جزء منها على أن هذه المشاركة ليست اندفاعاً أهوج في التيارات السياسية حيث يصبح الشاب مطية للأهواء وبوقاً للشغب والفوضى، فالوطنية الصادقة أن يشارك الشاب في الدفاع عن قضايا الأمة ويسهم في مناهضة أعدائها، أما أن تغدو مشاركته إضراباً وتعطيلاً عن الدراسة لنصرة حزب على آخر، والسعي لإسقاط فئة معارضة تتسلم السلطة على حساب الدوام المدرسي والجامعي، فليس من ورائه إلا تعميق الاختلاف، وإضعاف إعداد الجيل العلمي لمصلحة التيارات السياسية دون كسب يجنيه الوطن. وانتماء الشاب للأفراد أو التبعية الرخيصة لهم دون الولاء للوطن والشعب هو جريمة بحقه وبالوطن.

السياسة في نظر «أحمد أمين» علمٌ معقد يتطلب معرفة وخبرة وممارسة، ليس للشاب أن يزجّ نفسه بغمارها وهو غير مؤهل للحكم على الأمور، أو معرفة المواقف وخفاياها، فليس للشبان أن يتجاوزوا أصحاب السياسة ويتولوا دفة أمور الدولة من دونهم، لأنهم كما يرى يقودون سفينة البلاد إلى الفوضى والضياع، وإنَّ الأمة كما يقول لن تكسب من الحركات الطلابية إلا ما كان موجهاً من أصحاب المصالح في الخارج.

ويعيب «أحمد أمين» على الشبان أنهم مشغولون بمطالبة الحقوق دون الواجبات، والأمة لا يستقيم أمرها إلا إذا تعادَلَ لدى أبنائها الشعور بالحقوق والواجبات معاً، فالجيل الجديد المعاصر يشعر بالحيف وانتقاص حقوقه ولا يتساءل إن كان يفي حقاً بواجباته نحو مجتمعه، وهو جيل نشأ في ظلال الحروب التي تفسد الضمائر، وتنمي نزعة العنف والعدوان، ونحن أحوج إلى جيل يتحمل المسؤولية بضمير نقي وخلق طيب، خاصة بعد فتور التدين، وهو الحصن المانع للتردي والانزلاق في مهاوي الشهوات، فما أكثر الشبان الذين ينحرفون اليوم صرعى المخدرات أو الركض وراء الثروة على حساب بيع الذمم، وتناولوا الحياة كأنها مغامرة أشبه بلعبة قمار.. وما يحصل هؤلاء من كسب لا يعدل سقوطهم وعذاب ضمائرهم، هذا إن كسبوا ولم تقدهم المغامرة إلى الضياع.

وجيل الشبان اليوم أكثر قلقاً ورفضاً وتمرداً من الأجيال السالفة التي تميزت بالتكيف والاطمئنان، مع أنه يتمتع بمعطيات الحضارة الحديثة، غير أن مردّ اطمئنان الأجيال السالفة كان إلى الإيمان بمبدأ أو عقيدة تنسجم مع الحياة. وأهمها الإيمان الذي يوفر لهم راحة الروح، وقد ظن الغرب أن العلم سيحل مكان الدين، فلم يسفر عنه إلا الشقاء والحروب، فالعلم وحده لا يداوي قلق الإنسان ولا أمل له إلا الاعتصام بالله...

إنَّه جيل اليوم يعيش - كما يرى - لدنياه لا لآخرته، وقد نمت الذات لديه في أنانية مفرطة، فلا همّ له سوى نفسه، ولا مسؤولية لديه يحتملها لأسرته أو مجتمعه، لأنه لم يعان ما عاناه الجيل السابق من حرمان، ولم يجد أمامه القدوة التي يتخذها مثله الأعلى، فلولا تضحيات الآباء ما كان الأبناء ولا نهض المجتمع، وحيرة الجيل وقلقه ناجمان عن الفراغ، فراغ المسؤولية وتعطل الاهتمام خارج حدود الذات.

وعن موقف الجيل من المغريات لا يريد «أحمد أمين» أن يكون الشاب متزمتاً يقسو على نفسه، ولا منحلاً ينجرف وراء شهواته، فالاعتدال مطلوب، والرهبنة مرفوضة كالتحلل، واللذة درجات أدناها لذة الطعام، غير أنها تتحول إلى أوجاع وآلام عند الإفراط فيها، وترتقي اللذائذ لتبلغ أسماها بلذة العلم والبحث

والقراءة ولذة الكفاح لبلوغ هدف نبيل، وهذه اللذائذ السامية يتميز بها الإنسان وحده، فهي تغذي العقل والروح.

ويتحدث «أحمد أمين» عن لذة الثقافة، فالعالم اليوم تصب فيه كل العناصر الثقافية شرقيها وغربيها، قديمها وحديثها، وللشاب أن ينفتح على الثقافات المعاصرة ويتسامح بمرونة.. وألاَّ يزدري أيّ ثقافة، فللشرق حكمته وللغرب علومه وخبراته وتجاربه، وسعة الصدر مطلوبة ليوسع الناشئ أفقه، والتخصص في علم من العلوم لا يُغني عن متابعة العلوم الأخرى، فالعلوم تتداخل، وبعضها ضروري كالمنطق للطبيب، وعلم النفس للمؤرخ والباحث الاجتماعي.

* * *

وفي رسالة... يكتب «أحمد أمين» بلسان ابنه رسالة له يشكر فيها اهتمام والده بنصحه، لكنه يرفض أن يتقبل آراء أبيه، إذ يرى في آرائه نوعاً من التدخل في حياته وسلوكه، فهو يعيد قول الكاتب «لطفي السيد»: [دعوا الشباب ينعم بحريته، دعوه يجرب فتفيد تجاربه، ويخطئ فيعرف أسباب خطئه]. فليس للآباء أن يجعلوا أبناءهم صورة عنهم، فلهم عقولهم وشخصياتهم، وحقهم في مواجهة الحياة نجاحاً وإخفاقاً، لأن ذلك يقوي شخصياتهم ويعلمهم الاعتماد على النفس، ومهمة الآباء أن

يوفّروا الجو الملائم لأولادهم ليتربوا تربية سليمة، ويحلّوا مشكلاتهم بأنفسهم.

ويرد «أحمد أمين» على ولده، بأنّ الشباب مرحلة الاندفاع وسرعان ما يقع الشاب وتضعف إرادته أمام مغريات الحياة، ومن حق الأب توعيته قبل أن يتورط أو يسقط في بؤرة الانحراف، كالإدمان على الميسر أو التدخين.

ونراه يتابع نصائحه لولده في سبع رسائل لاحقة، فيوجهه إلى تقدير العمال والعاملين، والحرص على منتجاتهم من التلف والفساد، والعطف عليهم وعلى البائسين.

وفي رسالة لاحقة يتناول أحمد أمين مشكلة زواج الشبان من الأجنبيات، وهو في نظرة زواج شقاء - لاختلاف القيم والوسط الاجتماعي والأعراف، ومن المستحسن الزواج من بيئته فذلك أدعى لنجاح الزواج وسعادته، وينصح ولده ألاَّ يركن إلى العادات التي اكتسبها، فقد كان يعتمد على أمه في تدبير شؤونه، وهو اليوم مضطر أن يتدبر أموره الحياتية في ديار الغربة، ولاشك أن تغيير المألوف من العادات عسير، لكن الصبر والاقتناع كفيلان بتبني عادات تلائم الظروف المتبدلة في الحياة، إلا ما كان منها ضاراً أو مضللاً، وعلى الشاب أن يصمد له بشجاعة..

الرسالة الوحيدة التي يوجهها «أحمد أمين» للفتيات هي الخامسة عشرة فينصح ابنته في الغربة أن تحافظ على قيمها، وتعتمد على نفسها، وتصون شرفها، وتتعلم من المرأة الإنكليزية فن تربية الأولاد، فقد قيل إن سر رقي أوربا يرجع إلى «ميمين»: المرأة والمطر، وأن تملأ أوقات فراغها بالقراءة والتردد إلى المراكز الثقافية.

ويتمنى «أحمد أمين» أن يكون للشاب مثل أعلى يتفق مع شخصيته ومصلحته ومزاجه، وليكن ذلك المثل وطنياً إصلاحياً، على ألاَّ يجمد الشاب عند هدفه، بل يعدّله بما يتناسب مع التطور، كما ينصحه بأن يتمتع بروح علمية، ويخلص في بحوثه مستخدماً أفضل الأساليب لجمع المعارف وتبويبها ثم تقديمها للناس.

* * *

من هذا العرض لرسائل الكاتب «أحمد أمين» نلاحظ أنه يولي التربية دوراً كبيراً في إعداد الجيل، ويرى تأخر الشرق مرتبطاً بتخلف الأساليب التربوية لدى الآباء والمربين، ونلاحظ في هذه الرسائل تعميمات وأحكاماً أملتها الملاحظة العابرة، إلا أن الرسائل تظل من أهم ما كتب في التربية من أجل الحياة.

يحاول «أحمد أمين» أن يضفي على الرسائل طابعاً واقعياً، فيسوق لتأييد آرائه، أمثلة من حياة شبان ورجال يعرفهم، لكنها

ترد على هوامش الرسائل ولا تكون محوراً للرسالة، فهي شواهد مستمدة من الواقع. من شأنها تبصير الأجيال ووعظهم، ووضعهم أمام حقائق الحياة.

والكاتب «أحمد أمين» قليل الاهتمام بشكل الرسالة من حيث الاستهلال فيبدؤها بكلمة (يابني) ويختمها بالدعاء، لكنه معني بالعرض يحكّم فيه عقله في إيضاح الحجج والبراهين.

ولعل أجمل ما في هذه الرسائل صوغها اللغوي المتين الواضح، وحرص الكاتب على توفير جمالية شكلية، والولع بالترادف والتوازن والتقسيم والتمثيل، وهو الأسلوب الذي شاع في زمانه، فقد كان الأدباء يهتمون بجمال الشكل، وتوفير المستلزمات الفنية لإمتاع القارئ، وإثارة حسّه الفني في الكتابة... والكاتب «أحمد أمين» يهتم بهذا الأسلوب ويحاول أن يقترب من «طه حسين» في ديباجته. ونهجه في الصياغة الأدبية.

* * *

أدب الرسائل
عند مصطفى صادق الرافعي

نلاحظ أن اهتمامات الكاتب مصطفى صادق الرافعي في رسائله متشعبة، لغوية وأدبية ونقدية، وفكرية، وشؤون تتصل بنتاجه، وأمور ذاتية تشمل معاناته الصحية والنفسية، وبعض آرائه في التربية والحياة.

ولعل رسائل الرافعي إلى الأديب «محمود أبو ريّة»[١] من أكمل المجموعات التي وصلت إلينا. وتمتد مابين عام ١٩١٥م حتى عام ١٩٣٣. كما تتجاوز هذه الرسائل مئتي رسالة، وهي أقرب إلى القصر. وإن كان بعضها يتجاوز صفحتين أو ثلاثاً. خاصة ردوده وتعليقاته على بعض مسائل الأدب واللغة التي كان «أبو ريّة» يستحثه للإجابة عنها...[وقد أسأله عن الشيء

---

(١) رسائل الرافعي... جمع وترتيب: محمود أبو ريّة... منشورات «دار إحياء الكتب العربية» في (٣٠٠) صفحة، من القطع المتوسط عام ١٩٥٠.

وأنا أعرفه. وذلك لأستحث من همته، وأبتعث من عزيمته، وكنت أتخذ من ذلك رسائل كثيرة، لكي ينهمر ودقُ قريحته، ويجود سحاب طبعه].

ويلتقي مصطفى صادق الرافعي في رسائله الخاصة بالكاتب عباس محمود العقاد. ويُشْبِهُه في طبعه الصريح وإن كان يفوقه عنفاً في الردّ على خصومه، يعود ذلك إلى حسّه المرهف ومزاجه العصبي وضيق مساحة الشعور لديه، مما دفعه إلى تجاوز الحدود الأدبية في نقده، فنعت خصومه بأقسى الصفات، يقول أبو رية: [أذكر أمراً لابدّ من الإشارة إليه، ذلك أنه قد ينبعث من بعض هذه الرسائل دخان خفيف مما قد شجر بين الرافعي - رحمه الله - ، وبين بعض كتابنا المعاصرين، وقد نازعتني نفسي بين تبديد هذا الدخان أو تركه، ولكني آثرت تخفيفه بحذف بعض كلمات وعبارات اشتد فيها قلم الرافعي].

ومع أن الأمانة تقتضي ألاَّ يقوم الناشر بالعبث بالنصوص، فإن «أبا ريّة» يلتمس العذر له بقوله: [وإني لعلى ثقة من أن ما بقي من هذا «الدخان» لا يثير موجدة قد ذهب الزمن بها، ولا يبعث ضغناً وقد أصبح في ذمة التاريخ - وكتابنا المعاصرون كما نعرفهم من أوسع الناس صدوراً، وأرجحهم عقولاً].

*   *

يمثل فكر الرافعي في هذه الرسائل التيار الأدبي المحافظ في مواجهة الثقافة الغربية الوافدة، وهو تيار كان له أنصاره من الشعراء والأدباء، لكن التوجه الفكري ووسائل الثقافة في عصره كانت تروّج الثقافة الغربية كما يتضح من رسائله، إذ كثيراً ما كانت ترفض نشر مقالاته وردوده على أنصار التجديد كالعقاد وطه حسين، حرصاً على إرضاء هؤلاء الأعلام ومسايرة للأحزاب التي تنطق باسمها.

كان «الرافعي» يستميت لإثبات ردوده في معركة الصراع بين الأفكار والقيم، ويسعده أن يلتمس من أحد الأدباء مناصراً له...

فرسائله تعكس فكره السلفي، فهو يكتب منددًا بدعاة السفور: [وفوق ذلك فأنا ناقم أشد النقمة على مبدأ هذه الصحيفة «السفور» فأي سفور يريدونه أخزاهم الله. وقد حجبت نساء النبي r وهو أكمل من مشى على الأرض... ودعاة السفور لا تلائمني أخلاقهم ولو كان فيهم مئة كاتب ومئة شاعر].

ويعبّر عن قلّة اكتراثه بأدب العصر ودعوات التجديد ونفاق النقد الأدبي فيقول: [إني غير مبال بأدب هذا الزمن ولا بأدبائه، فلا يعنيني أن يكتبوا عن «شوقي» أو غيره، لأن النفاق غالب عليهم، وجمهور الأمة لا يفقه شيئاً، ولو اتفق لي منصب كبير، لكتبوا عني مالم يكتب عن أحد].

ولم يكن «الرافعي» في أعماقه متعصباً، فهو يكتب إلى صديقه: [إن القبطي الذي كان في المحكمة وعرفتك سيرته قد نقل إلى مصر، فبقي ألم ذهابه في نفسي أياماً أشعر به شعوري بالمرض].

كان «الرافعي» يحتفظ بصورة تشاؤمية سوداء لعصره: [فإننا نعيش في زمن مزوّر، حقه وباطله معاً، وقد قالها الشاعر أبو تمام:

على أنها الأيام قد صرن كلها

عجائب حتى ليس فيها عجائب

فامتحن نفسك في هذه المسألة: لِمَ أكثر العرب من مشتقات مصدر كذب بلا صدق.؟].

وعن النقد في عصره.. كتب الرافعي: [مصيبة هذا العصر في الأدب أنه مفلس من ناقد متفرغ للنقد مستجمع أسبابه، بصير بمذاهبه، متحقق بكل وسائله... ولكن البلاد ميتة، فليست فيها الحياة التي تخرج مثل هذا الإمام...].

وفي رسالة أخرى يقول: [كل ما أتمناه من زمن بعيد أن أتفرغ لمقالات في النقد نحو سنتين أو ثلاث تهدم العصر كله من جميع نواحيه الضعيفة، وتبني عليه أدباً جديداً، فإن هذا العمل ينشئ جيلاً قوياً جداً، ويقضي على التدجيل الصحافي المتفشي، ويحدث في الأدب واللغة نهضة تنبعث منها الحياة].

ويشير إلى سيطرة الفكر الجديد على الصحافة، فيكتب: [لا تنسَ أن الصحافة إنما هي في يد الذين ذكرتهم وأن مثل «طه حسين» و«محمد حسين هيكل» و«عباس محمود العقاد» لا يمكن أن ينصفونا مادامت الصحافة في أيديهم، فهم يكتبون ما شاؤوا حقاً وباطلاً، والعالم الإسلامي مخذول في هذا العصر، بدليل أنه ليس له ولا جريدة واحدة من الجرائد الكبرى.].

وكانت حملة «الرافعي» على خصومه قاسية كما يبدو من الرسائل، فحين صدر كتابه «إعجاز القرآن» نقده العقاد... فكتب في رسالة له عام ١٩٢٦ معلقاً على النقد: [العقاد خرج إلى السخف في كتابته.

... وقد أرسلت إليهم رداً طيباً جعلته مقالة هذا الأسبوع، وسيضحك الناس لعنوانه كثيراً، كما أنه سيؤثر على العقاد تأثيراً سيئاً..].

ويضيف في رسالة أخرى: [ولا تنسَ أن العقاد الآن في رأي نفسه، ورأي كثيرين، هو جبار الكتابة، فنحن نريد أن نضع أنف هذا الجبار في الأرض مقدار ساعتين على الأقل..!. لأنه لم يتجرأ عليه أحد إلى الآن].

ولم تكن حملته على «طه حسين» أقل قسوة من حملته على العقاد، كتب في رسالة تتصل بمحاضرة ألقاها «طه» في النثر

العربي [أما الشيخ طه... فقد كتبتُ أمس كلمة فيه، وأخبرني الشيخ عبد العزيز البشري أن محاضرته كانت مجموعة متناقضات، وإن كانت الجامعة حشدت له حشداً عظيماً...].

ويدحض رأي «طه حسين» في أن زمن النثر العربي انتهى بابن المقفع، ويذكّره بكتاب «نهج البلاغة» كما يبدي رأيه في كتاب «ذكرى أبي العلاء» فيقول: [وأما «ذكرى أبي العلاء» فلم أقرأه إلى الآن، ولا أنا أميل إلى قراءته، ولكني اطلعت على فصلين قصيرين، أحدهما عن بغداد في «المقطم» والثاني عن نشأة المعري في «مجلة فتاة الشرق»، فإن كان كل ما في الكتاب على هذا النمط، فليس فيه إلا مابين المعري وطه حسين... فإن فصل بغداد منقول ببعض التصرف عن معجم ياقوت الحموي... والفصل الآخر حشف وسوء كيلة كما يُقال، لأن آراء المؤلف ضعيفة واهية، ويخيل إليَّ أن أكبر غرضه في هذا التأليف أن يجيء بكلام كثير يخرج في مجلد ضخم، فهو يزن الكلام بالرطل].

وينصفه في رسالة أخرى.. فيكتب: [أما طه حسين فليس بالضعف الذي نتوهمه، وهو في أشياء كثيرة حقيق بالإعجاب].

وكان «الرافعي» معجباً بالبارودي... فكتب فيه مرة...[فقد كان نابغة دهره الذي نشأ فيه، ولم يكن في عصره أحد

يساويه... إن الرجل شاعر فحل مجوّد، وإن كان ضيّق الفكر، ضعيف الحيلة في إبراز المعاني واختراعها..].

وكان شديد الحملة على الكاتب «سلامة موسى»... فيقول فيه: [لأن كلامه سخيف لا يسمى نقداً، ... ولا بدع أن يكون سلامة موسى مجدداً في طليعة المجددين بلسان مجلة «الهلال» إذا كانت هذه المجلة بلسان صاحبها... كما يكتب عليها «لسان حال النهضة العصرية» فإن الذي يترجم لسان حال النهضة العصرية يجب أن يكون شيخ النهضة العصرية، وهذه كلها أساليب للإعلانات التجارية..].

ويحمل «الرافعي» على الكاتبة «مي زيادة» فيصفها بالثقيلة، أو ينعتها بالشيطانة، ويتهمها بالانتماء به، وإسقاط قصته التي تَقَدَّم بها إلى إحدى المسابقات... والغريب من أمره أنه يعترف بأنها ملهمته في كتابة مؤلَّفَيْه: «السحاب الأحمر، وأوراق الورد» وفي هذا التناقض ما يحيّر حقاً، وهو يفضل عليها صاحبة مجلة «مينرفا» ... فيكتب عن دور «مي» في استبعاد قصته من الفوز - وكانت عضواً في اللجنة المحكمة - ويكني عنها (بصاحبنا)...

[مَنْ كان يظن أن الأقدار تضع صاحبنا في موضع الحكم على هذه القصة، وهو لو أراد أن يحكم لها لما عارضه أحد، ولاستطاع أن يغلبهم جميعاً، لأنه في الحقيقة أكفؤهم.].

ويتحدث في رسالة أخرى عن حب جديد له، والشيطانة هذه المرة تدعى «سونيا» وهي جديرة بأن يخلدها بكتاب، لكنه سئم الحديث عن الحب.

ولعل أقسى حملاته وأعنفها في رسائله تلك، رسالته التي وجهها إلى الدكتور «زكي مبارك»، فقد حمل عليه منددا بما ارتكبه من خطأ في تحقيق كتاب «زهر الآداب» للحصري.

وكانت حملته على الشيخ عبد الله عفيفي هي ثمرة منافسة بين الرجلين على الحظوة لدى الملك فؤاد... فقد كان «العفيفي» شاعر البلاط الرسمي، وكان الرافعي يمدح الملك فؤاد، ولا يقيم لشعر العفيفي وزناً، وكثيراً ما كان يلقبه في رسائله بالشعرور [يقال: إن شعرور الديوان العالي لما نشر قصيدته الأخيرة في مولد الأمير فاروق أمر لا يسكت عنه، لأنها كانت من أسخف الشعر].

وما من شك في أن الصحافة حينذاك كانت تروّج هذه المعارك النقدية، لأن فيها رواجها.

نلمس في رسائل «الرافعي» صفاء قلبه على الرغم من عنفه، وعمق عقيدته، وصدقه مع نفسه، شأن أصحاب المبادئ والمُثل، كما نلاحظ إعجابه بنفسه وبأدبه إعجاباً يصل إلى النرجسية... يقول: [ستكون «أوراق الورد» إن شاء الله مع السحاب والرسائل آية لا نظير لها في فنها...

وهذا الكتاب عندي أفضل من جزء من «تاريخ الأدب»، ومن تآليف كثيرة، ولا أظن أن في اللغة العربية مثله،].

وفي رسائله تصوير للمعاناة المادية.. فقد كان كاتباً في محكمة «طنطا» لا يكاد راتبه يفي شؤون حياته، وهو كثير الشكوى، ولا يستطيع أن يطبع أعماله لضيق ذات يده، ويبدو أن مدحه للملك كان دافعه التماس سند مادي يسهّل طباعة أعماله.

وللرافعي نظرات تربوية هامة، وخاصة في ما يتصل بإعداد الجيل على حب اللغة العربية وإتقانها، فهو ينصح صديقه «محمود أبو رية» في ما يمكن أن يقرأه ولده من كتب التراث ليستقيم أسلوبه، كما ينصح الأب ويرشده إلى أفضل الكتب في النحو والأدب. ويبدو أنه يجد كتاب «شرح الكافية» للرضي الاستراباذي... من أنفع الكتب لمن يريد الإحاطة بالنحو، ويرى في كتاب «الأغاني» للأصفهاني و«كليلة ودمنة» لابن المقفع، ورسائل الجاحظ وكتبه وسيلة نافعة في تكوين ملكه النقد والتذوق الأدبي.

ونلاحظ أن «الرافعي» متوهج العاطفة في رسائله، حاد المشاعر، وقد دفعه انفعاله العاطفي إلى الخروج عن طوره في كثير من رسائله، لكن ذلك لا يدحض سعة ثقافته اللغوية والأدبية، وطول باعه في أسرار التراث الأدبي، ففي رسائله

فوائد لغوية وتخريجات ذوقية تكشف عن حسّ أدبي ولاسيما في مسائل الإعجاز، وقد مهّد في دراسته المسائل الجمالية لدراسة الذوق الجمالي في معالجة مواطن الجمال وأسراره، ولا يكتفي بما قدّمه السلف من دراسات.

ولم يكن «الرافعي» منغلقاً على الثقافة التراثية، فهو ينصح صديقه «أبا ريّة» بقراءة «تاريخ التمدن» و«سر تطور الأمم» و«إميل والتربية الحديثة» وكلها من الكتب المترجمة إلى العربية.

وأعتقد أخيراً أن رسائل الكاتب «مصطفى صادق الرافعي» الخاصة من أهم ما كتبه في تصوير نفسيته، ودراسة فكره، وتعرُّف آثاره وآرائه في عصره، وتعدّ من الوثائق النادرة التي تكمل نتاج الرافعي وتشرحه.

* * *

أدب الرسائل عند توفيق الحكيم

«زهرة العمر» أنموذجاً

ما زال كتاب «زهرة العمر» للكاتب توفيق الحكيم، يحتفظ بسحره على مرّ الزمن، لأنه ينبض بأحاسيس مؤلفه، ويعبّر عن مرحلة هامة من مراحل حياته حين كان يكافح الظروف ليشق طريقه في عالم الأدب، وقد اجتمعت عليه العوائق التي تعترض رسالته الأدبية:

١ - عوائق من الأهل الذين يريدون له أن يكون قاضياً لا أديباً أو «مشخصاتياً» كما كانوا يطلقون في مصر على المتعامل مع فن المسرح.

٢ - عوائق اجتماعية تتمثل بذلك الفارق الثقافي بين باريس والقاهرة. وإحساس «توفيق الحكيم» بفراغ الحياة الثقافية في مصر بعد عودته من فرنسا بعد ما أَلِفَ في باريس نمطاً من التواصل مع الفكر والفن لتغذية روحه المتطلعة

إلى الفن والأدب. فكان انتزاعه من ذلك الوسط مأساة مؤلمة له، زاد من حدّتها ربط مجرى حياته بسلك القضاء الذي لا يمتّ إلى عالمه الفكري بصلة، وإنما هو كما يقول: (قراءة ملفات تحوي قضايا من كل لون وصنف: جُنح ومُخالفات وعوارض وشكاوى إدارية يجب فحصها وقيدها.).

كان «توفيق الحكيم» يعيش في محنة الصراع بينه وبين طموحه إلى الشهرة الأدبية وحرصه على أن يكون إنتاجه ملائماً لما يطمح إليه من بروز في عالم الأدب، غير أن صفية ومستشاره الأدبي في باريس السيد إيفان كان يقسو عليه في تقويم هذا النتاج ويحبطه كلما عرضه عليه، ومثله كثير من النقاد الفرنسيين الذين أطلعهم «الحكيم» على نتاجه بالفرنسية ليحكموا عليه، حتى كاد يفقد الثقة بنفسه، ثم هجر الكتابة بالفرنسية بناء على نصحهم لأنه كان يتكلف الكتابة بها، وتحوّل إلى الكتابة بالعربية التي هي لغته الأم، واعتمد أسلوباً سهلاً في التعبير أقرب إلى الصدق والبساطة؛ (البلاغة الحقيقية هي الفكرة النبيلة في الثوب البسيط، هي التواضع في الرأي والتسامي في الفكر) وهكذا وجد «الحكيم» شخصيته الأدبية ورضي عن نفسه بعد تمزّق وتشتت.

«زهرة العمر» مجموعة رسائل وجهها توفيق الحكيم إلى صديقه «أندريه» وهو شخصية فرنسية، تدرّج في العمل في أحد المعامل حتى أصبح رئيساً مرموقاً، وهو على نقيض «الحكيم» رجل عملي يؤمن بالواقع والمنطق، ويستخف بالخيال وكل ما يتصل بالمشاعر البعيدة عن الواقع العملي، فكان في نظر «الحكيم» نقيضه تماماً (أخشى أن أقول إن قدمك كادت تنزلق إلى شاطئ الخيال الذي كنت تسخر منه، لا... لا تهزأ أبداً بالحب والخيال...). وهو نموذج للإنسان الناجح عملياً في الحياة... بينما «الحكيم» الذي درس الحقوق لم ينسجم مع عالم القضاء الذي اختاره له أهله. وفن كتابة الرسالة لدى «توفيق الحكيم» إطار ناجح ينفذ منه للتأمل في كثير من شؤون الفكر والحياة، وتدوين جزء من سيرة حياته في مرحلة الشباب. ومن خصائص الرسالة أنها فن مفتوح من فنون الأدب، يمكن أن يتناول فيه الأديب بمرونة المسائل الذاتية، أو ينفذ إلى القضايا الاجتماعية والفكرية والسياسية بلا قيود. وقد يجمع بينها كما فعل «الحكيم» في «زهرة العمر». **فهو يتحدث عن حبه وطموحاته، وميوله الأدبية والفنية، لكنه ينفذ إلى قضايا فكرية هامة تتعلق بالأدب واللغة والفن والتربية والفلسفة**، حتى لتبدو الرسائل إطاراً شكلياً لديه ينفذ منه إلى هدفه الفكري أي المضمون الفنّي بالتأملات الفكرية، وبحكم مرونة فن الرسالة فقد

أحسن «الحكيم» استغلالها، لأنها تعدّ إطاراً ملائماً لأي عمل فكري أو أدبي، حتى اتخذه بعض الأدباء كتولستوي ودستويفسكي قالباً للرواية، مثلما استغله الأدب العربي القديم إطاراً لموضوعات اجتماعية كالجاحظ وابن المقفع والمعري. ويستمد فن الرسالة مرونته من كونه غير مقيّد بشروط فنيّة صارمة كالقصة والمسرحية، باستثناء قيود يمكن تجاوزها، كالاستهلال أو الختام وما بينهما من عرض وتحليل. ولم يلتزم الأدباء حتى هذه القيود الشكلية، بل غدت الرسالة فناً مفتوحاً لا يميزه لديهم سوى ضمير المخاطب الذي يتوجه به كاتب الرسالة إلى المرسل إليه، أما من حيث الطول والقصر، فلم يلتزم الأدباء شروطاً صارمة تتعلق بحجم الرسالة، فإن رسائل «ميّ زيادة» و«جبران خليل جبران» لا تتجاوز الصفحات القليلة عداً، في حين تتسع الرسالة لدى بعض الأدباء حتى تغدو كتاباً أو فصلاً من كتاب، أو تكوّن الرسالة الواحدة أحياناً أو مجموعة الرسائل المرتبة وفق نمط فنّي مدروس رواية فنية معترفاً بها.

قد نظلم «توفيق الحكيم» إذا اتهمناه بأنه اتخذ فن الرسالة قالباً شكلياً فحسب، ينفذ منه إلى تأملاته، ففي هذه الرسائل التي وجهها إلى صديقه كثير من الصدق الفني والمشاعر الإنسانية النبيلة التي قام عليها فن الرسالة وبراعة في الحوار وعمق إنساني واضح، إذ تأسرنا تلك العلاقة الحميمة التي ربطت

«توفيق الحكيم» بأندريه وأسرته، ونلمح من خلال هذه العلاقة روعة الارتباط الإنساني الذي يتجاوز الحدود والفوارق، ويجمع الشرقي إلى الغربي ويؤلف بينهما، فقد كانت تلك المعاملة اللطيفة التي أحاطت أسرة أندريه بالحكيم متميزة... فيتحدث «توفيق الحكيم» عن تلك الأسرة وكأنه جزء منها.. يقول: (أكرر شكري لجرمين «زوجة أندريه» على هذه الوليمة وتلك الغلالة الحريرية التي أعارتني إياها لأجعلها حول عنقي خوف البرد، «جانو» يقبلك وقد قبلته عنك.).

و«الحكيم» في تصوير علاقته بأسرة أندريه يطلعنا على نمط من التعامل الإنساني الراقي، فهو يزور أسرة أندريه في غيابه، ويتصرف كأنه في بيته، ومثل هذه الصلة يندر أن تقع في الوسط الشرقي المعقد، وهو يحظى بعطف زوجته لكنه يحترمها ويجلّها، ويدافع عنها أمام تصرفات زوجها الطائشة:

(أهنئك باكتشافي جيرمين، ففضلاً عن ذكائها وأدبها وخلقها، فإنها تجيد فن الطهي إنها طاهية من الطبقة الأولى...).

ورسم لنا «توفيق الحكيم» صورة صادقة عن نفسه، فهو متألم لأنه محروم من الحب، ومع ذلك فإنه ينظر بكل نبلٍ وتسامٍ إلى زوجة صديقه: (إنها هي صداقة أخرى مستقلة تقوم على احترامي لشخصها وتقديري لذكائها، فأنا لا أحب أن تفهم «جرمين» أني موفد من قبلك لواجب من الواجبات، لأخرجها

للنزهة بين آن وآخر، على أني ضحكت كثيراً، وأنت تخبرني في خطابك أنها لن تنسى ذلك التفاني مني في خدمتها وأنها لا تشكو إلا أمراً واحداً: هو أني لم أحاول أبداً مغازلتها..!! يالظرف الباريسيات، أو كنت تظن أني - وأنا الشرقي - أجرؤ على ذلك في غيبتك...!!) إنه الشرقي المثالي مع أنه محروم من الحب، حب المرأة الذي له مقام كبير عنده في الحياة... (إن الذي لا يعرف ولا يستطيع أن يحب إنساناً... لن يعرف ولن يستطيع أن يحب الإنسانية..). ويبدو أن «توفيق الحكيم» كان يعاني كالجاحظ عقدة القبح في الشكل، ولعلّ ذلك كان سبب يأسه من المرأة التي تطلب الجمال في الرجل... (دخلت عليَّ الخادمة في الصباح تحمل «صينية» الفطور، فوقع بصرها عليَّ في السر، لا يبدو مني إلا رأس يطلّ من اللحاف الناصع كأنه رأس يوحنا المعمدان على طبق من الفضة، لكن حاشا لله أن أكون معمداناً، ذلك ما جال في خاطر الخادمة وهي تنظر إلى شعري الذي هبّ قائماً إلى ما فوق المسند كأنه هالة من هباب أسود على حافة الوسادة البيضاء. أما الوجه فلم تره لحسن الحظ... ومضت الأيام وإذا صاحبة البيت تقول لي ذات يوم مبتسمة: أتدري ما حدث في صباحك الأول؛ لقد جاءتني الخادمة مرتاعة تقول: أتدرين يا سيدتي مَنْ حلَّ بدارنا..؟؟ إنه الشيطان..!).

وهذه القصة تذكّر بقصة الجاحظ والمرأة التي قادته إلى الصائغ.. إلا أن «توفيق الحكيم» لم يكن يشكو حرمانه حب المرأة فحسب... يقول: (فلو أنه انهدم وحده لما حزنت كثيراً، ولكن كل شيء انهدم يا أندريه... لم يعد لأيامي مذاق، فهي كالماء القراح أجرعه على غير ظمأ والمستقبل أمامي محاط بالضباب، يُخيل إليَّ أني هويت قبل الأوان كالثمرة التي تسقط من الفرع قبل نضجها..). ويؤلمه كثيراً إصرار أهله على تغيير مجرى حياته، لأن الأدب في رأيهم «لا يُطعم خبزاً» كما يقول والده. ولأن انحشاره في زمرة الممثلين الذين يسمونهم «مشخصاتية» في مصر يجعله إنساناً غير محترم في نظر المجتمع، لقد خشي والده أن يجرفه التيار عن حياة القضاء التي مارسها بشرف، فأرسله إلى فرنسا لعلّه يسلو الفن، والفن لاصق بروحه فتحوّل إليه بكل جوارحه في فرنسا، وأهمل دراسة القانون وانصرف إلى المطالعة وارتياد المسارح، ومتابعة مسيرة الموسيقى العالمية، فكان يبذر نقوده على شراء الكتب، والدخول إلى قاعات الفن الراقية، كان كل شيء حوله، يحبطه لكنه لم يتحول عن رسالته الأدبية والفنية.

ويتحدث «توفيق الحكيم» عن نشاطه بفرنسا، فهو يزور متحف اللوفر ويقضي نهاراً كاملاً في كل قاعة من قاعاته يدرس اللوحات ويتأمل ألوانها، ويقف على مدارس الفن الحديثة،

وينتقد الاتجاهات الفنية الحديثة التي سادت في عصره، فهي تغالي في التركيز لدرجة المناداة بفصل عناصر كل فن فصلاً تاماً، ويرى أن الفن «خلق إنساني جميل»، ولا يصح التنكر للمبدعين القدامى أمثال: رفائيل وبيتهوفن، ويقوّم الفن الحديث فيشبهه بغانية عجوز مفرطة في الزينة والبهرج، وإن كان هذا الفن يحاول أن يعيدنا إلى عصور الفطرة، غير أنه ينكر على هؤلاء من أنصار «المودرنزم» ولعهم بكل مهجور سخيف للخروج عن المنطق العام والنزوع إلى المنطق الخاص، ويرى أن الفن لا يجوز أن يهدم المنطق العام أو يخرج من حسابه العواطف البشرية العامة.

أما عن ولعه بالموسيقى فهو يكتب لأندريه: (إني لا أترك الآن أسبوعاً واحداً دون أن أذهب إلى قاعة كونسير «بلييل» أو إلى كونسير «باولو» بل إني أحضر أحياناً حفلتين في يوم واحد...). كان اهتمامه بالغاً بالموسيقا الكلاسيكية الغربية، يستمع إلى فاجنر وبيتهوفن ورامسكي كرساكوف وسواهم.

وعن علاقته بالمرأة يصرّح لصديقه بأنه أحبّ «إيما دوران» حباً صادقاً، وكانت مغنية، أما «ساشا شوارتز» فكان يعيش معها حياة شبه زوجية فاترة جمع بينهما صديقه «هاب» إلا أنها حين أصبحت طوع بنانه خشي أن تقيد حريته وفوضويته فأسكنها في غرفته كصديقة، دون أن يهبها قلبه.

وعن ميله الجارف للمطالعة يكتب: (أضعت وقتي كله في باريس منحنياً على مكتب الحجرة رقم ٤٨... أقرأ وأقرأ حتى كل شيء، لم أترك شيئاً في تاريخ النشاط الذهني لم أطلع عليه، غرقت في آداب العالم كلها وفلسفتها وفنونها، لأني أعتقد أن الأديب في عصرنا يجب أن يكون موسوعياً...).

وبعد عودته من فرنسا إلى مصر كتب إلى صديقه:

(إني الآن غارق في الأدب العربي... أريد أن أُعيد النظر في أمر اللغة العربية... لغتي، وأكشف أسرارها، وأضع إصبعي على مواطن ضعفها وقوتها...). ويعيب «توفيق الحكيم» على مناهج الأدب في مدارسنا اختيار نصوص متكلفة خالية المعنى، تجاوزها الزمن، إذ لم يبق أحد اليوم يكتب بأسلوب الحريري أو الهمذاني، وهو أسلوب يعتمد على الإبهار وإظهار البراعة والتكلف... ويرفض «الحكيم» ذلك التصنع وينادي بأسلوب يقوم على البساطة والعفوية والبراءة، ويجد هذا الأسلوب السليم لدى المؤرخين العرب كابن خلدون والطبري والفلاسفة كابن رشد والغزالي والجاحظ.. ويراه أيضاً في شعر البحتري وابن الرومي ويلتمسه خلال كلمات بعض الشعراء البسيطة (فيرون أبعد مما ترى عيونهم ويسمعون أبعد مما تسمع آذانهم).

ويذهب «الحكيم» إلى أن الآداب القديمة لم تنشأ إلا في حضارات عظيمة كحضارة مصر وبابل والرومان والإغريق.. أما الأدب العربي فلم ترافق نشأته حضارة عظيمة، فافتقر إلى الملاحم والتمثيل والقصص، لأنه وليد بيئة فقيرة قاحلة، فلما جاء الإسلام لم يستطع الأدب العربي أن يساير التطور الحضاري لأنه ظل حبيس أغراضه المحدودة، وأسلوبه المتصنع، لكن أدب الحياة تطور من خلال ما أبدعه الشعب من روائع كسيرة عنترة وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة وسيرة بني هلال، هو الأدب المعبر عن الإنسان العربي في نظره، وإن لم يعترف به رسمياً، وكان لابد من الانتظار إلى العصر الحديث لنشهد تطور الفنون الأدبية وارتقاءها.

وللكاتب «توفيق الحكيم» نظرات عميقة في الأسلوب الفني، فهو يضع نصب عينيه القرآن الكريم وألف ليلة وليلة والشعب والمجتمع... أما أسلوبه فيقوم على الحوار، وهو قوام كتابه «زهرة العمر» فحواره المستمر مع صديقه «اندريه» هو الذي استرعى انتباه النقاد الفرنسيين الذين اطلعوا على مخطوطاته وهو يتمنى لو ينطلق من الحوار لكتابة المسرحيات، لكنه لا يتوقع نجاحها في بلده الذي يعد التمثيل خارجاً عن دائرة الأدب، والتمثيلية في مصر تقوم على الحوادث المثيرة ولا ترتكز إلى الحوار القائم على دعائم الفكر، لكنه نجح في النهاية بكتابة مسرحياته عميقة الفكر يشقّ تمثيلها على المسرح.

ولتوفيق الحكيم آراء واقعية في تحليل الأدب العالمي الحديث فهو يرى إملالاً، أن فكرة الحوار الداخلي في الرواية الحديثة تتيح لبطل الرواية أن يتكلم ويهذر دون قيود، وهو عمل لا يستقيم معه بناء القصة، وهو معجب بتحليل الكتاب الروس العظماء للنفس الإنسانية، لأنه تحليل مركّز ومختار وصوفي... بينما لدى الإنكليز تحليل انتقادي لا يقوم على البناء السليم.

والفن - كما يراه الحكيم - بنيان جميل، إنه تقطير الطبيعة والحقيقة في «انبيق الفنان». ويسوّغ إعجابه بالفكر الغربي بأن الأديب يجب أن يفتح عينيه، ويخرج من دائرة محيطه المغلقة (إن هزّة التصادم بين الشرق والغرب هي وحدها التي تفتح العيون المغلقة من الشرق والغرب.).

وعن تربية الحواس، يرى «توفيق الحكيم» أن (حواسنا المادية هي أحياناً الجسر الذي نبلغ به عالم الروح... وأنّ إغفال أي حاسة من حواسنا هو إغلاق باب من أبواب المعرفة. فمَنْ يتوق إلى المعرفة الكاملة، والحقيقة الواضحة فليفتح لها كل الأبواب والنوافذ). ونلاحظ أن الجميل في هذه الرسائل، من خلال الحوار بين الحكيم وصديقه أندريه أنها تفتح أمامنا آفاقاً للتأمل... وكوىً نطلُّ منها على حياة «توفيق الحكيم» وتطلعاته، والقاعدة الفكرية الراسخة التي بنى عليها أدبه وسلوكه في

الحياة، ووجهات النظر المتعارضة بينه وبين صديقه التي نكتشف من خلالها أن الفكر والحياة لهما أكثر من وجه... فتوفيق الحكيم يعلمنا كيف نواجه العالم ونحن محاطون بالقيود والعوائق التي تعترض رغباتنا، وكيف نصمد ونكافح لتحقيق رسالتنا في الحياة مهما كان الدرب شاقاً والعوائق قاسية.

* * *

أدب الرسائل عند زكي مبارك

«مجنون سعاد»

يحاول الدكتور «زكي مبارك» بما أوتي من بيان وبراعة في الكتابة، أن يُدلي بدلوه شأن جبران خليل جبران وعباس محمود العقاد ومصطفى صادق الرافعي وتوفيق الحكيم وأحمد أمين في كتابة رسائل الحب، التي لم تُعرف في الأدب العربي إلا في عصور متأخرة بعد نهضة النثر الأدبي.. وكانت رسائل الحب والمحبين ومراسلاتهم تُكتب شعراً كما هو واضح في شعر عمر بن أبي ربيعة والشعراء العذريين، وحتى حين ازدهر النثر في العصر العباسي، فإن الشعر وهو لغة العواطف والمشاعر ظلَّ مادة لمراسلات المحبين يُكتب على المناديل أو التفاح ويُهدى إلى المحبوب تعبيراً عن الحب والشوق، وسعياً إلى التقرب والتواصل.

وقد برز اهتمام «زكي مبارك» ومتابعته أدب الحب والمحبين في أكثر من كتاب، فمن مؤلفاته في هذا المجال: [ليلى

المريضة في العراق] وآخر عن [أبرز العشاق في الشعر العربي].

نشر الدكتور زكي مبارك كتاب «مجنون سعاد» مسلسلاً في مجلة «الصباح» تحت اسم مستعار هو الدكتور «بديع الزمان» واعترف فيما بعد بأنه صاحب هذه الرسائل، وكان يُرسلها من «بغداد» في عمله بالعراق إلى صاحب المجلة متكتماً، لأنه كان آنذاك من كبار مفتشي وزارة التربية، ولم يكن يليق برجل في منصبه ومركزه وسنه أن يتحدث عن الحب والمحبين.

من الواضح أن الأديب الدكتور زكي مبارك استمد عنوان الكتاب متأثراً بالتراث الأدبي العربي، فقد أحبّ أن يُضيف إلى مجانين العشق الذين اشتهر أمرهم كمجنون ليلى تجربة ذاتية تقوم على فهم جديد للحب يغاير تجربة العشاق العذريين، وضمن كتابه [آراء كثيرة في الحب والمرأة] قلب فيها مفاهيم ذلك العشق العذري الذي يقوم على الاستكانة والخنوع للمحبوبة، أو يتسم بالعفّة والترفع عن المحسوس، مراعياً تطور الحياة ومنطق العصر، على أن الأديب «زكي مبارك» حرص على أن يرسم شخصية «مجنون سعاد» رسماً خاصاً فهو عاشق مثقف، يغار على سمعته، ويتمتع بأسلوب هجومي عنيف، وإلحاف في مطاردة المحبوبة، وهو فوق ذلك أقرب إلى عمر بن أبي ربيعة في اعتداده بنفسه، وتصويرها في علاقته بالمرأة بأنه الطالب لا

المطلوب، وهو أعنف من العذريين في التعامل مع المحبوبة. يوبّخها ويصفها باللؤم والخسّة ونقصان العقل والغدر. ولا يتورع أن يعمم تلك الصفات على النساء جميعاً، وهو يغار على سمعته أكثر مما يغار على سمعة محبوبته، ولا يجيز لمحبوبته أن تستحلّ عرضه أو تهدد سمعته، بل يجبهها ويتحوّل عنها بيسر إلى معشوقة أخرى لينتقم منها، وإن كان قلبه مازال عالقاً في شباكها، وقد بنى زكي مبارك على ذلك التناقض أو الصراع في نفسية مجنون سعاد جوهر رسائله، وهو صراع يقوم بين العقل والعاطفة، فمجنون سعاد ليس مستسلماً ولا متخاذلاً ولا خاضعاً لدواعي الهوى. إنه رجل عقلاني قادر على اتخاذ قراراته الحاسمة، وإسكات همسات قلبه في كل لحظة، لكنه في أعماقه مغلوب على أمره. لم يستطع عقله أن ينتصر على عاطفته.

و«سعاد» التي استعار اسمها من التراث أيضاً ورد ذكرها في الشعر العربي، كأحد الأسماء التي يُكنّى بها عن المحبوبة بدت في الرسائل شخصية عصرية، فهي تراسل مجنونها لكنها تغار على سمعتها وشرفها، وحين تبلغ به الجراءة حد التشهير بسبب إلحاحه في مراسلتها وتصريحاته المكشوفة عن العلاقة بينهما على صفحات هذه الرسائل يدفعها حرصها على سمعتها أن تنتشر هذه الرسائل في المجلات مشهّرة بهذا «المجنون» الذي

يلاحقها منكرة أي صلة بينها وبينه، وهو أمر آلم عاشقها ورأى فيه تهديداً لسمعته، وإن كانت لم تُعلن اسمه صراحة حين نشرت رسائله.

وتذهب الأديبة «كريمة زكي مبارك» في مقدمة الكتاب إلى أن «سعاد» شخصية حقيقية لا متخيلة، وأن تجربة الحب التي مرّ بها والدها لم تكن من نسج الخيال، فقد أحبّ شاعرة وأديبة مصرية كان يسميها: «جيمي» للتدليع، واسمها الحقيقي «جميلة» وهي أديبة معروفة وصاحبة دواوين شعرية عدة.

*   *

يبلغ عدد الرسائل التي وجهها مجنون سعاد إلى محبوبته (اثنتين وستين رسالة)، تتفاوت طولاً وقصراً، مثلما تتفاوت مضموناً، فبعضها لا يعدد الأسطر الموجزة، وفيها يركّز «زكي مبارك» على مشاعره الذاتية من شوق وحنين وألم بسبب الفراق أو القطيعة والصدود، في حين يفصّل في الرسائل الطويلة، فيذكر بعض وقائع حياته وأخباره وعلاقاته الإنسانية، ويُدلي ببعض آرائه وتأملاته في المرأة والناس والحياة.

«مجنون سعاد» طبيب يعمل في أحد مشافي القاهرة، يلتقي محبوبته في أحد أندية القاهرة المسائية، فيجلسان متجاورين على المائدة، فيداعبها برجله على طريقة الشاعر الفرنسي «دي موسيه» في علاقته بجورج صاند، وهو أسلوب في الغرام

مستورد لم يألفه مجانين العشق العرب، ويجعل من علاقة المحب بالمحبوبة علاقة حسّية خالصة لا تتفق وما أُثر عن المحبين العذريين في تاريخ الأدب العربي، ويمزج «زكي مبارك» بين حياة مجنونه وحياته الخاصة حتى يجعل أدباء بارزين في مصر يشاركونه في تلك السهرة، ويغارون منه ويحسدونه على تلك الحظوة التي نالها من محبوبته الجميلة:

«تصوّري كيف عاد أولئك المغبونون إلى منازلهم وهم بين أبله لم يذق طعم الحب، وفنان حرم لذته..».

ثم يقود محبوبته إلى دار الخيالة «السينما» ويمضي معها إلى الفندق، ويتحسّر لأنه لم يقتلها بالعناق، ولأنه سمح لها بالعودة إلى «أسيوط» في اليوم الثاني، ولم تكن فتاته الحقيقية من أسيوط بل من «المنصورة»، لكنه آثر تغيير الأمكنة تعمية وحفاظاً على سمعتها.

وفي الرسالة الثانية يُعلن - بطل الرسائل - حبه لمحبوبته، ويذكر لها ما كتبته الصحف عن تلك السهرة في نادي القلم، ويدافع عن ذلك النادي الذي ذمّه الكاتب «إبراهيم عبد القادر المازني» في جريدة «البلاغ» وعاب عليه الاختلاط، ويعلمها أن فكرة دعوة الجنس اللطيف من الأديبات إلى تلك السهرة كانت من محرر في صحيفة أجنبية، ويدافع عن الاختلاط وأهميته

للأدباء، لأنه يرهف الأذواق ويفتح القرائح، ويشكو لأن محبوبته لم تردّ على رسالته فيكتب لها: «حدثيني كيف سكتِّ عن رسالتي الأولى..؟؟ هل من الكثير على شاب مثلي أن يتهتك في الحب..؟؟ ». ويعترف بأن رسالته الأولى كانت تتضمن كلمات نابية لا تليق، لكن اندفاعه يشفع له، ويطالبها بأن تعترف بحبه، «لأنه صوّب إلى صدرها نظرات من السهام المسمومة، وما رشقَ فتاةً بسهامه إلا عزّت عليها النجاة!..». ومثل هذا الاعتداد والتهديد لا يصدر عادة عن محبّ يعلم أنه قد يثير غضب محبوبته فتتخلّى عنه.

وفي الرسالة الثالثة، وهي في ثلاثة سطور، يطالبها أن تتخلّى عن صمتها وتكتب له، ويلحّ في الرسالة الرابعة على طلب الجواب بعد ثلاث رسائل، ويتوقع أنها رقّت وعطفت عليه بسبب جوّ ذلك النادي الشاعري، ثم غلبت عليها حصانة أهل الصعيد، لتظل قلعة حصينة لا يمكن غزوها، لكن هذا الحفاظ لا يروقه، فللنفس «شهوات» لا تمحوها الأعراف الوطنية، ويلتمس عذرها على تبسطّه ومصارحته فهو ضحية زمانه الذي يسوده الإسفاف، وهو في أعماقه يرغب في أن تكون فتاته في حدود التصوف والعفاف. ثم يتهمها بالغباء لأنها تقيم حاجزاً بين قلبها ودواعيه لتُرضي المجتمع.

ويُفهم من الرسالة الخامسة أن خطابه السابق هددها بالفضيحة بين أبناء بلدتها «أسيوط» وتبلغ به الجراءة أن يفكر في زيارتها ببيتها، لكنه يخشى والدها وأسرتها، ويجدد دفاعه عن نفسه فهو ليس فتى فاسداً وإن كان في عصر فاسد، ويتهمها باللؤم ويذكر أن في القاهرة آلاف الفتيات الجميلات يمكن أن يحللن محلها في قلبه!...

ويعود إلى الاستعطاف في الرسالة السادسة فيشكو لها عذابه لصدودها، وما يجد من ألم وسعادة في هذا العذاب، ويُظهر لها في الرسالة السابعة أن الحب حوّله إلى طفل، وأن قلبه بريء طاهر كقلوب المجذوبين.

وتتحول لهجة الرسائل بعد الرسالة الحادية عشرة إلى ردود عنيفة، بعد أن تبيّن لمجنون سعاد أن محبوبته شهرت به على صفحات الصحف ونشرت رسائله، فخاف الفضيحة التي تهدد مستقبله، وخشي على وظيفته ولقمة عياله، ولذلك خرج عن طوره ونعت محبوبته بأقبح النعوت: «شاء لك اللؤم أن تطمري أساس الحب الذي حفرناه... لمن تنصبين تلك الحبائل يا رقطاء... يا بنت حواء... يا بنت المرأة التي شهد القرآن الكريم بأنها كانت السبب في شقاء الإنسانية... ماذا تريدين مني...؟؟؟» ويقسو عليها وعلى بنات جنسها، فيرى أن المروءة ما تزال لها جذور باقية في صدور الرجال، وأن الشرف عندهم فحسب... لكن حبّها هو أخطر معضلة واجهته في حياته.

ولم تستغفر المحبوبة ولم تعتذر، فيسافر إلى أسيوط ليراها وجهاً لوجه، ويقضي نهاره متسكعاً في مرافقها، ولم يجسر على اقتحام بيتها خشية أن تطرده أو يفتضح أمره، ويبدو تصرفه أرعن طائشاً يُفصح عن جنونه.

ويوجه إليها قصيدة في رسالته الثانية عشرة للشاعر «أحمد ناجي» يحن فيها إلى أسيوط ومَنْ فيها، ويعترف أن مدينة أسيوط غلبته في لعبة الحب، بعد أن قهر شبانها من قبل في لعبة الكرة في مباراة مع فريقها يوم كان طالباً في الثانوية.

وتتوالى رسائله بين الاستعطاف والتمرد، فهو يتوهم أنه نسيها بعد رجوعه من «أسيوط» ثم يُدرك أنه سيظل عبداً لمخلوقة لا تحفظ الجميل، حتى تحوّل النور في عينيه ظلاماً، وأصبح أسير الأحزان، وكان يطمح أن تكون عروسه يوماً، لكنه خشي أن تملك القناعة بما يملك، فأهلها من أصحاب اليسار، والفتاة اليوم لا ترضى بالقليل، وعمار القلوب لا ينسجم مع خراب الجيوب.

ويقسو عليها في الرسالة السادسة عشر فينكر أنها ولدت مع الربيع كما تزعم، والربيع لا يعرف البلادة والحمق والغباء..!!.

وتقصر رسائله العشر بعد ذلك، فيغضب عليها تارة ويحنّ ويستعطف أخرى إلى أن يقرر في الرسالة الثانية والعشرين هجرها متمثلاً بقول الشاعر:

ما أراني إلا سأهجر من ليس يراني أقوى على الهجران

ويبدو أنها كتبتْ له تشيد ببيانه، فيُعلمها أن جمال بيانه ينبع من القلب لأنه صادق، ويضيف:

«الأدب سخيف يا سعاد، لكنه مع ذلك شائق وجذّاب - بالجيم لا بالكاف - وقد تفوقتْ كلية الآداب على سائر الكليات بفضل الثرثرة وتزويق الكلام..!!.».

ويقرر أن يداوي الحب بالحب في رسالته الرابعة والعشرين، فيتعلق قلبه بفتاة تشبه «سعاد» شأن «مجنون ليلى» حين تعلّق بظبية تنكّره عيناها وجيدها بعيني ليلى وجيدها، إلا أن «مجنون سعاد» يسأم تلك المحبوبة الجديدة، لأنها فارغة القلب، مترفة، تتعلق بالنكتة المصرية دون أن تملك الذوق الرفيع، ولها صويحبات ينافقن لها ويسايرنها، ويعترف أن مناكدته سعاد قد أخفقت.

وفي الرسالة الخامسة والعشرين، يؤكد لمحبوبته أنه كان صادقاً صريحاً معها، فدفع ثمن صدقه، وكان عليه أن يكذب عليها لأن المرأة فطرت على حب المديح، وقبول لعبة الحب الخادعة، ويظهر حقده على رجال عصره وهو لا يقل عن حقده على نسائه، فهم مفطورون على الدسيسة والنفاق.

ويدفعه إخفاقه في الحب إلى فلسفة مشاعره، فيرى أن الحب هو طريق السلام والسكينة للإنسانية، وفيه يصالح الإنسان نفسه،

ويتحرر من نزعاته المتطرفة، وأوهامه السوداوية، فالمرأة السليمة هي التي يغزو الحب قلبها، فيتطهّر بناره، وتسمو كما يسمو حبيبها دون أن يستطيع الوصول إليها.

كما يحدثها في رسالة تالية عن شكّه في مفهوم الصداقة بين البشر، فهي أقرب إلى المنفعة والوصولية، وأن أهل عصره جفّت لديهم منابع الصداقة فسقطوا، ولهذا يجد في هوى «سعاد» تعويضاً عن فراغ أهل عصره الروحي وعزاء له!...

وتتسع الرسائل الأخيرة لضروب من النقد الاجتماعي، فيكتب فيها عن حفلة أقيمت لتكريم وزير الصحة آنذاك... توالى فيها أكثر من عشرين خطيباً في شهر رمضان، فيعجب كيف احتمل صاحب التكريم سماع هذا العدد من الكلمات وهو في الستين من عمره، وفي ذلك ثقل دم وفساد ذوق، ويتلقى من سعاد برقية تهنئة بالعيد، فيستنكر طابعها الرسمي والمزخرف، وهو يفضل حديثاً نابعاً من القلب، وحناناً يفتح قلبه للعيد. ويذكرها في رسالة أخرى بأن حبها يطوّقُ عنقه، ويلتف حوله كشجرة اللبلاب، ويُوضح لها أن كلمة العشق جاءت من «العَشقة» وهي «شجرة اللبلاب» وقد أصاب مبتدعو هذه الكلمة، فحب سعاد كشجرة اللبلاب المتطفلة، فهو يمتص جسده وروحه، وهكذا يصنع العشق بألباب الرجال.

وتمرض «سعاد» فلا يعودها، فتعاتبه لكنه يدافع عن نفسه أنه لا يستطيع أن يراها على سرير المرض كالبدر وقد أصابه الخسوف، وأنه بكى لسماعه خبر مرضها، فهو أصدق من أولئك المنافقين الطامعين الذين زاروها، وكان يتمنى أن يدخل إلى المشفى دون طلب استئذان لو كانت له.

وهو يتجاوز حدود العفة في رسالة تالية ليكتب إليها بواقعية صريحة «إن جبال الذهب والفضة والعقيق... لا تساوي عندي لمحة واحدة من النظر إلى بعض ما يستر ثوبك الشفاف عند اعتراك العواطف في حومة العتاب... رأيت ما رأيت، وعرفت ما عرفت... رأيت اللون الذي زاول قلبي، وزعزع كياني، اللون الذي يترقرق فوق جسد سعاد...».

ويدافع في رسالة عن نفسه لأنه يلاحقها، ويرى في ذلك أمراً طبيعياً يؤكد «تعرض المرأة الآبدة لعرامة الرجل الفحل» وهو أمر يدفع الرجال إلى جلائل الأعمال، ويجعلهم عظماء بالحب، ينتصرون به على العوائق والدنيا، وإن نظرة من المحبوب أبلغ من كل بيان القلم وفصاحته، وأخلد من - دافع الآثار.

ويستغرب في الرسالة الخامسة والأربعين من سيطرة أضعف المخلوقات على أقواها بالحب، فالضعف قدرة عاتية، وبفضله عاشت مخلوقات عدة فالنمل يعيش في أرض تصول فيها

الأفيال، والطير الضعيف ينقر أنياب التمساح وكذلك المرأة تستبد بالرجل على ضعفها.

ويتهم النساء عامة بضعف العقل في الرسالة السادسة والأربعين، فأفقهن لا يتعدى شهوات الحواس، في حين أن حواس الرجل في الحب تتعلق بالمحبوبة، فتتعطل عنده آلية الحياة، ويصيبه مسّ هو أقرب إلى الجنون.

ويدفعه جنونه إلى زيارة أسيوط في عيد شمّ النسيم، فيتحدث عن ماضي تلك المدينة وعراقتها وروعة النيل الذي يحاذيها، وغربته في ليل تلك المدينة الساحرة في عيد الربيع.

وفي الرسالة الستين، يعترف بأن الأيام قادرة على إماتة عاطفة الحب، وهدم صرح الهوى، كانت أيامه أشبه بمزقة يقين، أو مرض صرعه الشفاء، وانقشعت تلك السحابة الوجدانية التي عذبته زمناً، فهو اليوم في عافية من هواها بعد أن غطى الهوى على بصره وقلبه: «انتهينا، ولا أدري كيف انتهينا، فليفرح الشامت كيف أراد، وليهنأ العادل كيف شاء، فما فوق نكبتنا نكبة، ولا فوق بلائنا بلاء...

انتهينا، ومضى كل روح حيث يريد، وغفت عيون كان السهاد شرابها المعسول...

انتهينا، وعرف العاشق كيف يستريح من سهر الليل، وعرف المعشوق كيف ينجو من عبث الأراجيف، ولم يبق إلا أن تدرج أشلاء الهوى في مقابر العقوق...».

ويحمّل محبوبته جناية تهديم ذلك الشعور النبيل، غير أن خيبة الحب تخلّف آثاراً في النفس، فقد أمسى قليل الاكتراث بمرضاه، قاسياً يفترض أن الدنيا لؤم في لؤم، وخداع في خداع، و«سعاد» العشيقة تحوّلت إلى سواه ببساطة، مع أن طائر اليمام لا يشرك مع إلفه أحداً: فالشرك في الحب خيانة وجريمة.

هكذا برد قلبها من هواه، ولم يبق من تجربتهما إلا الأصداء والخصومة التي لا صلح بعدها، وقد تعمّد أن يتخلف عن ميعاد لقائها آخر مرة لأنه يائس محطم.

* *

هذا عرض سريع لمضمون رسائل «مجنون سعاد»، لكن قراءتها أروع بكثير من استعراضها، فالأديب الدكتور «زكي مبارك» كاتب مبدع متمرس، وقلمه ينضح عطراً وجمالاً، وهو من أبرز الكتّاب طواعية ومرونة في التعبير، وتدفقاً في المشاعر، أما بلاغته فهي أقرب إلى بلاغة الخطباء، إذ تغدو الرسالة لديه أداة دفاع وهجوم تقوم على الحجج والإقناع والبراهين، وهو قادر على أن يتناول الفكرة من زوايا عدة، بل يستطيع بسحر قلمه أن يجعل من الشيء حقيقة أو باطلاً بما أوتي من بيان ساحر، ولا عجب فإن قلمه قد تدرب طويلاً منذ أن كان طالباً جامعياً، يكتب محاضر الجلسات في مجالس

الطلبة، والرسالة لديه نفثة وجدانية جادة وصادقة، والمشاعر عنيفة ومشبوبة، لكنها تفسح للعقل مكاناً لا يقل أهمية عن العواطف، فقد طمح «زكي مبارك» أن يعدل في شخصيات مجانين العشق، فبدا مجنونه عاقلاً، يريد أن يحدّ من سلطان المرأة في عالم الحب، وأن يعاملها معاملة الند للند، وأن يتصرف معها كإنسان عاقل أكثر من العقلاء، فأخفق في فهم المرأة، وغلط حين توهم أن الحب إنما يقوم على المساواة بين الرجل والمرأة في حين أن جوهره هو التذلل والخضوع وإشعار المحبوب بأنه قائد المركبة والسيد المطاع.

لقد كتب الدكتور زكي مبارك تجربته، وكانت الرومانسية تلفظ أنفاسها، والواقعية تطلّ لتحد من الخيال الجامح والتطرف، فرسائله تمثل مرحلة انتقالية اضطربت فيها القيم الإنسانية، ونما فيها إحساس الفرد بنفسه، لكن المشاعر الإنسانية عميقة الجذور يصعب تعديلها أو التماس لون من المواءمة بين الواقع والحلم. ومن هنا بدا «مجنون سعاد» ثائراً متمرداً وقاسياً على المرأة، فكان اعتداده بفرديته مصدر شذوذه وجنونه.. وأن هذه الرسائل تضيف تجربة جديدة في عالم الحب وفن الترسل في الأدب العربي ولا أعتقد أن تلك الرسائل حقيقة... فما من محبوبة أو معشوقة تقبل مثل هذه الرسائل المضمخة بعطر الحب، ويبدو أن

الكاتب الدكتور زكي مبارك مرّ بتجربة الحب، لكنه استلهمها في كتابة رسائله الأدبية لنشرها دون أن تكون رسائل حقيقية موجهة إلى مَنْ أحبَّ، ذلك أن الصحافة في ذلك العصر كانت تكلّف الأديب تقديم مادة تروق القرّاء، فيستجيب لها الأدباء مستعينين بخيالهم، وقد يغفلون نسبتها إليهم تحرّجاً ومراعاة للتقاليد الاجتماعية.

* * *

فن الرسائل

عند الكاتب محمد فريد أبو حديد

خلال حياته الأدبية الحافلة بالعطاء (١٨٩٣ - ١٩٦٧) اتجه الكاتب محمد فريد أبو حديد إلى الفن القصصي، فألّف ما يُرْبو على ثلاثين كتاباً، تناول فيها فكرة القومية والوطنية محوراً لإبداعه، وجسّد فيها القيم العربية والإسلامية الأصيلة من خلال الشخصيات التاريخية التي رسمها قلمه، فهؤلاء الأبطال هم نماذج لخصال مثالية كالشجاعة عند «زنوبيا وعنترة» والطموح عند «امرئ القيس» والعزة الوطنية عند (ابنة المملوك)... غير أنه لم يترك إلا القليل من فن الترسل ومنه مجموعة رسائل موجهة إلى ولده.. نشر بعضها في مجلات عربية.

وفن كتابة الرسائل استهوى عدداً من الكتّاب في تلك الفترة الزاهية من تاريخنا الأدبي... وأغلب هؤلاء الذين وضعوا رسائل موجهة إلى أولادهم كانوا ممن عملوا في المجال التربوي، أو اختصوا في دراستهم بشؤون التربية. والأديب

«محمد فريد أبو حديد» هو واحد منهم، بل من أبرزهم في المجال التربوي، فقد تخرج في مدرسة دار المعلمين العليا، وتقلّب في عدد من المناصب التربوية القيادية، فكان عميداً لمعهد التربية، ومديراً للتعليم الثانوي، ثم مستشاراً فنياً لوزارة المعارف الليبية، وشغل هذه المناصب بكفاية إدارية وفنية، وبدأب لا يعرف الملل، فاكتسب من تجربته خبرة تربوية واسعة.

كان «محمد فريد أبو حديد» يملك نزعة وطنية وقومية صافية، وهو يرى أن تقوم تربية الجيل على القيم العربية الإسلامية الموروثة، ويرفض أن تكون تربية الأجيال ميداناً لتجارب مستوردة أو وافدة من الغرب، وكان في نفسه شيء من أولئك المربين الذين درسوا في أوروبا وأمريكا، وعادوا إلى مصر مشبعين بإعجابهم بالتربية الغربية وعدم اكتراثهم لتراثنا التربوي.

وكان الكاتب عباس محمود العقاد يشاركه هذا الرأي، فقد كتب إلى «فريد أبو حديد» رسالة يقول فيها: «أنا معلم كما تعلم، لكني معلم لا أعتقد بما يعتقد به الكثير من المعلمين سواي، وذلك أني لا أومن كثيراً بأوروبا ولا بما جاء من أوربا إلا أن يكون ذلك شيئاً تجنيه من نفع مادي أو كشف علمي، أما فيما

يتعلق بالرأي والنفس، وما يتصل بالعقل والقلب فأنا شرقي ولا أحب إلا الشرق، ومصري ولا أحب إلا مصر، وقد كان يؤلمني أن أرى الابن الناشئ قد عاد من إنكلترا أو من فرنسا فلا يكاد يظهر للأعين إلا في هيئة نابية، يزعم أنها دليل المدنية التي اكتسبها من الغرب، فيمتدح فرنسا أو إنكلترا وما فيهما من مناهج ومناظر ومعاهد... ولو كان هذا وحده لهان الأمر، أما أن يتعدى الأمر إلى ما وراء ذلك فهو البلية والنكبة.. وكان من سوء حظ مصر أن بلغ حدّه في مسائل التعليم... وهي أداة الثقافة القومية، لا نرى فيها أثراً للشخصية المصرية، فواضع برامج التاريخ هو ممن تعلم تاريخ أوروبا. فنقل من هذا ما ظنه خيراً وجعله منهاجاً لتلاميذ المدارس المصرية الثانوية، فكانت النتيجة أنك إذا نظرت في برامج القسم الأدبي في التاريخ يخيل إليك أنك تنظر في بعض برامج فرنسا أو إنكلترا، وأما مصر فلا شأن لها في ذلك.. واحسرتاه)[١].

وإن شخصية وطنية مثل «محمد فريد أبو حديد» هذا شأنها لابدّ أن يملك القلق على الأجيال والحرص على تنشئتهم وفق ما تقتضيه المصلحة الاجتماعية، فهو يتمتع بحسّ اجتماعي مرهف

---

(١) مجلة اللغة العربية ج /٢٣/ - ١٩٦٨ م - من مقال الكاتب أحمد حسن الزيات، يذكر فيه كلمة العقاد هذه.

كما يبدو من خلال قصصه وروايــاته، فهو يدعو فيها إلى الإصلاح الاجتماعي، ولا يتسنى ذلك إلا بإعداد جيل جديد غيور على وطنه ومجتمعه.

وللأدباء والمربين، ممن كتبوا للجيل عبر مخاطبة أبنائهم أسلوب خاص في كتابة الرسالة، فهي عندهم أشبه بخطاب مفتوح يتناول جوانب شتّى من مواقف الحياة، يبدي فيها الكاتب وجهة نظره ويقدم براهين وأدلة يحاول تبسيطها بأساليب عدة كالتشبيه الواضح والمثل الملموس، ويقسم «محمد فريد أبو حديد» رسالته عادة إلى مقاطع أقرب إلى الطول، وكل مقطع يتناول فكرة ترتبط بما سبقها ولحقها من الفكر، يعرضها بأناة تسمح للناشئ أن يجاريه، لكن عبارته من النوع المسترسل لا يحتفي فيه بتوازن ولا بترادف.

يشير محمد فريد أبو حديد إلى أن بعض الناس يختلسون المجد والشهرة من مجتمعهم بطرق خسيسة شأن من يختلس المال، وهؤلاء لا يُعدون من العظماء مهما سمقوا، لأنهم لا يبلغون مجد الإنسان، ويتمنى لو يتاح له أن يسترد بعض مواقف حياته، ليعيد النظر فيها، وهو اليوم أكثر حكمة، ويتوجه إلى ولده قائلاً:

[ليس لنا إلا أن نرضى أو نأسف على ما فات من حياتنا، فتيار الحياة متواصل لا ينقطع، ونحن أشبه براكب سفينة يسوقها

التيار، وتبدو أمامه بساتين فيها ثمار طيبة وأشواك سامة، غير أن جهلنا يغرينا باختيار الأشواك وزخارفها التي تبهر عيوننا، أو نتردد في قطف الثمار بسبب ما يحفّ بها من شوك.

إن معرفتنا تتسع، وتجاربنا تنمو، فنتجاوز بهما أفق تفكيرنا المحدود وبيئتنا الضيقة التي حبستنا بأسوارها، على أن القلة من يعيشون في عالم أوسع من الأمل والرجاء، ويتجاوزون الصغائر ومضايقات الحياة، فحكمتهم في أنهم يضعون هدفهم وينطلقون إليه من الباب العريض].

ثم يخاطب ولده في رسالة قائلاً: [أراك تتيح لي فرصة لا يتيحها لي تيار الحياة، فأنا أعود إليك لأستقبل الحياة مرة أخرى، فأنت قطعة مني، أنت يا ولدي فرصتي الأخرى تتاح لي لأواجه الحياة مرة أخرى وأنا أكثر حكمة].

ويتمنى لو أن ولده يستطيع من خلال نصائحه أن يجنب نفسه كثيراً من العثرات.

وينفذ «محمد فريد أبو حديد» في رسالة إلى إقناع ولده بأن الحياة لا تُعاش من أجل صاحبها فحسب، [فوجود البشر مزدوج، هم يعيشون لأنفسهم وللناس، ولن يتمكن الإنسان من التخلي عن المجتمع، لأن حياته ستكون كمن يضرب في صحراء، فالمجتمع هو الذي أمدنا بأفكارنا وسبل بقائنا، ومنحنا الحب والسعادة، فمن حقّه علينا أن نؤدي له ديناً في أعناقنا، ونحن نملك في نفوسنا

كنوزاً لا حصر لها ولا نفاد، ومن فيض ما نملك من خير ومواهب نقدم للآخرين ذلك الدين، فنغتني كلما أعطينا، ويمتلئ نبعنا كلّما نضحنا منه، فنفوز بالسعادة على ما نحمل من أعباء وتكاليف من أجل خدمة الآخرين، وكل منا خُلق لما يُسّر له، فليس لك يا بني أن تتشبه بسواك، لأن ما تملك هو وقف عليك، وهو ما يتفق منه، المهم أن تختار الطريق الذي يناسب قدراتك، ويودي إلى عمل شريف ينفع مجتمعك، وسيظهر معدنك بمقدار ما تقدم للناس من عطاء.].

ويخاطب ولده في رسالة... فيكتب إليه: [لكي تهتدي إلى المواهب التي تكمن فيك... هو أن تتجنب بهرج الحياة ومظاهرها، فليست العظمة في أن تملأ الدنيا دوياً بشهرتك، وإنما العظمة أن تعمل بصمت وتُحدث أثراً في غيرك لا يقدَّر له المطبّلون الذين اختاروا أعمالهم من نوع محدد يرفع شأنهم في مجتمعاتهم، المهم أن تحب عملك وتبدع فيه وتستغرق بتفانٍ في تنفيذه.

وإذا كنت تسعى من وراء اختيار عملك إلى نفعك الشخصي أو مصلحة تجنيها فلن تنجح في جني ما ترمي إليه، لأن التفاتك إلى الجانب الإنساني منه سيعود عليك بخير يفوق الخير الذي ترجوه من عمل تقدم عليه، وأنت منصرف إلى حساب الربح

والخسارة، قد يكون ما تحصل عليه من نفع مادي قليلاً، وقد يجمع سواك الملايين، لكن المال ليس كل المجد في الحياة.

قد يدهشك أن يوفق كثير من الناس في بلوغ المال والجاه وهم أقلّ منك قدرة وكفاءة، فلا يغرنك ذلك فهؤلاء إن لم يكونوا مبرزين فيما اختاروه من عمل، فإن نجاحهم مختلس لا يدوم، وحقيقتهم لن تختفي طويلاً، فلابدّ أن يعثروا.

على أنَّ أقسى ما في الأمر أن تحتقر مواهبك، أو تهملها بسبب العبث أو الغرور، فلا تكن كهؤلاء اللاهين عن أنفسهم ومجتمعهم، الذين لا يرون ما وهبهم الله من مواهب وطاقات كالماس في جوف الصخرة.

لست آمل أن تكون منهم لأنك تبدد حياتك بالفراغ والتفاهة، فاحرص يا بني أن تصنع منها تمثالاً بديعاً، واطلب من الله أن يوفقك فلا شيء يُغني عن توفيق الله].

نلاحظ في هذه الرسائل عمق التأمل فيها، وقوة الحجة والبرهان، فالكاتب «محمد فريد أبو حديد» يحاول أن يحدّد لولده معنىً لحياته مستنداً إلى منطق عقلي سديد، فهو لا يقسر ولده على تبنّي نصائحه دون إقناع، بل يجهد في تعليمه القيم بالحجة والبرهان، وهو أرقى ما تصبو إليه تربية القيم المثالية، وبناؤها لدى الناشئة في النظريات التربوية الحديثة.

وأهم ما في الرسائل حرص الأديب «أبو حديد» على أن يكون لولده طموحٌ هادفٌ وخيّرٌ في الحياة، وأن يكون لحياته معنى.

كما نلاحظ كيف يبسط الكاتب أفكاره، فيشبه الموهبة الدفينة بالماس في جوف الصخرة، ويمثل الحياة بسفينة يسوقها التيار فتضع أمام ركابها شتّى الخيارات، وهي تتقلهم في شعاب الحياة. ولعلّ هذه السمة الأدبية هي الظاهرة الوحيدة في تجميل الأسلوب لدى الكاتب. لكنه لا يميل إلى التأنق اللفظي والبديعي. فأسلوبه عصري، وتعبيره مرسل بلا قيود، وقد تكون ثقافته الإنكليزية وعمله في الصحافة هما اللذان عملا على تطويع لغته العربية لتكون لغة الحياة. وإن عمله في المجال التربوي له أثر في ذلك، فالرسالة لديه تحفل بالشرح المسهب والإطناب في الإيضاح بما يلائم المخاطب.

وبعض ما ورد في هذه الرسائل يُلقي ضوءاً على فلسفة الكاتب الحياتية، فقد مارس السياسة في أول حياته، ومن الممكن أن يكون له فيها شأن وبروز، لكنه آثر العمل التربوي والفكري والإبداع الأدبي والفني لاقتناعه «خُلق لما يُسرّ له» وهو غير نادم على ما اختار لأنه جنى من الشهرة وقدّم لمجتمعه من النفع أضعاف ما كان يحصل عليه لو اختار أسلوباً آخر في الحياة،

واختار طريقه السياسي دون أن يكون مقتنعاً به، فمجد السياسة يخبو ونفعها رهن باللحظة العابرة، ومجد الأدب والثقافة خالد، ونفعه يتجدد مع استمرار الحياة.

*   *   *

أدب الرسائل

عند يحيى حقي

لرسائل الأدباء أهمية بالغة، لأنها تلقي الضوء على حياة كاتبها والعصر الذي عاش فيه وعلى تطلعاته الأدبية، وتسمح للجيل اللاحق أن يقف على مدى ما تحقق من اتجاهات نادى بها الأديب في رسائله، وسعى إلى ترسيخها برؤيته الفنية.

ولم تنل رسائل الأدباء في عصرنا عناية من النقاد، فقد نُظر إليها أحياناً على أنها جانب من خصوصيات المبدع لا تدخل في باب أدبه، أو رأى فيها بعضهم إطاراً شكلياً يعتمده المبدع لينفذ منه إلى تأملاته، على أنه يجب أن نفرّق بين الرسائل الخاصة التي يكتبها الأديب على عجلٍ دون أن يرمي من ورائها إلى غرض إبداعي، وإنما يتوخّى منها التواصل وقضاء الحاجات أو تصريف شؤون حياته، كغيره من الناس العاديين، والرسائل التي كتبت بوعي كاتبها إنه يبدع وهو على يقين بأن ما يكتبه من رسائل يدخل في باب نتاجه الأدبي لا فرق بينها وبين القصة

ولا المسرحية ولا الشعر. وعلى هذا يمكن أن نعدّ رسائل الكاتب «يحيى حقي» من النوع الأول. فقد كتب رسائله لابنته وللناس العاديين ولم يقصد من كتابتها أن تكون عملاً إبداعياً، واعتمد في بعضها العامية المصرية المحكية، وطغى فيها صوت «يحيى» الإنسان على فكر الأديب المبدع، فهي تتناول في الإجمال شؤون حياته العابرة والذاتية كالحديث عن صحته وأحواله المعيشية وأسرته وأصدقائه، ومع ذلك يجب ألاَّ ننتقص من قيمة بعض ما ورد فيها من خواطر وتأملات فكرية أو إرشادات ونصائح يوجهها إلى ابنته «نهى»، ذلك أن اعتماده العامية المصرية، وهو الأديب الذي يعتز بالفصحى ويدافع عنها، ويحرّض ابنته على إتقانها، ويلفت نظرها إلى بعض أغلاطها الأسلوبية، ذلك كله يثبت أن «يحيى حقي» لم يكن يهدف من ورائها إلى إنتاج عمل إبداعي، وقد نُشرت بعد رحيله، وفي تقديري أنه لن يكون راضياً عن نشرها لو تمّ ذلك في حياته، لأنه يأبى أن يكتب للناس باللغة المحكية المصرية، أو أن يعتمد تعابيرها الخاصة في إطار عمله الإبداعي، صحيح أن «يحيى حقي» كان يكره التقعر وينادي بالبساطة والعفوية في الكتابة إلا أنه لم يكن يدعو إلى اعتماد العامية لغة للتعبير، بل كان شديد الاعتزاز باللغة العربية الفصيحة في كل توجيهاته إلى ابنته، ويبدو أنه كان لابنته «نهى» الدور الأوفى في إخراج هذه

الرسائل إلى الناس، تحت رغبة التعريف بآراء والدها التربوية وأفكاره الإنسانية، لكن أتدخل مثل هذه الرسائل في باب الأدب العربي الرسمي الذي لا يعترف حتى اليوم بالعامية ونتاجها؟ لقد أشار النقاد إلى هذه الحقيقة، فاشترطوا في الرسالة الأدبية أن تتميز بأسلوب فنيٍّ عالٍ، إنها إبداع موازٍ للفنون الأخرى قد يصل في تقنيته إلى مستوى يفوق الشعر والرواية، من ذلك على سبيل المثال رسائل الجاحظ وابن زيدون وجبران خليل جبران ومي زيادة وتوفيق الحكيم ولويس عوض وخليل مطران وأحمد حسن الزيات ومصطفى صادق الرافعي وطه حسين وأحمد أمين، ومع ذلك فإن رسائل «يحيى حقي» يُستعان بها على أنها وثائق لها أهميتها في تعرّف اتجاهات هذا الأديب وآرائه في الحياة وتطلعاته الأدبية وأفكاره التربوية بحكم أنها موجهة إلى ابنته التي كان يحبّها كثيراً، ويجد فيها صورة أمها التي ماتت وهي طفلة، ومع أن الكاتب «يحيى حقي» تزوّج من سيدة فرنسية بعد وفاة زوجته الأولى إلا أنه ظل يحتفظ لزوجته الراحلة بأجمل الذكريات، وقد حوّل ذلك الحب إلى ابنتها منها، فكانت أهم امرأة في حياته.

وقدّم الأديب الكبير «نجيب محفوظ» لهذه الرسائل بمقدمة ضافية تحدث فيها عن «يحيى حقي» الأديب المبدع والإنسان المتواضع وصاحب القلب الكبير (كان صديقاً لا يعوّض، نزيه

الفكر، صافي القلب، بسيطاً، ممتعاً في كتاباته وأحاديثه، صاحب روح ساخرة، ونكتة بارعة، وفكر مستنير).

ودرس الأستاذ «إبراهيم عبد العزيز» جوانب من حياة «يحيى حقي» فأشار إلى نظافة ملبسه وسريرته، وصفاء روحه وبشاشته، وخفة ظله، وعمق تدينه، وتحدث عن شخصيته الانبساطية غير المنطوية، وطيب نفسه مستشهداً بقول يحيى حقي: (لا تتجلى قسوة الوحدة إلا عند الجلوس للأكل بلا رفيق تأنس له.. ولا ينزل الطعام إلى جوفي بسهولة إذا أكلت وحدي...).

وتطرّق جامع الرسائل إلى حرص «يحيى حقي» الشديد على اختيار كلماته في المقابلات التي تعقد معه، ومدى إخلاصه في النصح والتوجيه والإرشاد لمحبيه وطلابه ووفائه لأصدقائه.

وتختلف رسائل «يحيى حقي» عن الرسائل الأدبية المكتوبة بلغة أدبية متأنقة، بأن فيها الإيجاز والبساطة والتواضع، ويبدو تواضعه فيما كتبه لأحد مراسليه الذي طلب منه صورة شخصية له (**الأهم عندي أن تعرفني من كتبي، أما صورتي فلا أهمية لها، وأعترف لك أنني لا أحتفظ لنفسي في بيتي بأي صورة فاعذرني**)، وكتب إلى معجب آخر راسله:

(وجدت خطابك فإذا بي أجد نفسي أجلس أمامك باحترام، وهو مجهود أصبح متعذراً عليَّ، فأرجو أن تصفح عني إذا لم تجدني عند حسن ظنك).

وللكاتب «يحيى حقي» آراء نقدية هامة فقد كتب لمعجب يدرج على طريق الأدب، يوضح له ضرورة الاهتمام بالواقع (أتوقع لك مستقبلاً زاهراً، وأتمنى أن تهتم بدراسة المنطقة التي تقيم فيها، من حيث نشأة سكانها وعلاقات الأسر بينها وفنونها الشعبية، وأغاني العمل فيها، وخصائص لهجتها. وإذا سمعت أنه ما تزال هناك أم عجوز تحكي لأحفادها «حواديت» أن تسجل هذه الحواديت باختصار، أريدك أن تكون في هذه المنطقة، كما كان «الجبرتي» في عهد محمد علي...).

وكان «يحيى حقي» يؤمن بالموهبة، ويراها هبة إلهية لكنها تحتاج إلى صقل بالقراءة المتواصلة لكبار الكتاب، وملاحظة أساليبهم حتى يستقر الأديب المبتدئ على أسلوبه وطريقته الخاصة به.

ويرى أيضاً أن الإنتاج الأدبي السليم هو ثمرة قدرة عقلية. لا نتيجة معاقرة الخمرة أو المكيّفات التي تُفسد العقل، فتعاطي الخمرة أو المكيفات لا يبدع أدباً ولا يساعد على إبداع فني، على الرغم من أن أجسامنا تحتفظ بأسرار يتعذر تفسيرها، وكذلك الجنون في نظره فإنه لا يبدع فناً سوياً لأن قدرة المجنون العقلية معطلة.

وللكاتب «يحيى حقي» آراء طريفة في تحرر المرأة فهو ينظر إلى المرأة نظرة احترام وتقدير، ويرى أن الحضارة

الغربية تدّعي زوراً تقديرها للمرأة، فهي ما زالت تنظر إليها جسداً، فتلحّ على تعريتها وكشف مفاتنها ولا تقدر روحها، وتتجلّى رقته وتقديره للمرأة في رثائه لزوجته الأولى التي عانت كثيراً في مرضها الأخير بالقلب، فهو يخاطبها قائلاً:

(أهبّ من سباتي مذعوراً في بهيم الليل، والسكون الشامل، وكل ما في الغرفة أشباح غامضة، فأتبيّن جسدك الرقيق كالطيف الشفاف، وأجدك قائمة قد انحنى رأسك يكاد يلمس الفراش، إنك تسجدين لله عسى أن يرحمك ويخفف عنك العذاب، تمدّين بحذر إلى كوب الماء يداً يكاد خاتم العرس يسقط من إصبعك النحيلة... فإذا ما تلاقت نظراتنا، تبسمت وعدت إلى رقادك، تظنين أنني لم أسمع أنّتك المكتومة..).

وفي الرسائل الموجهة إلى ابنته «نُهى» يبدو «حقي» مربِّياً بعيد النظر وأباً عطوفاً، فرسائله تفيض بالحنان الأبوي والتعلق الشديد بابنته، حتى ليذكر أن عيشه يتنكّد حين تتأخر رسائلها إليه من «الكويت» حيث يعمل زوجها، ويقيم هو في مدينة «أميان» الفرنسية مع زوجته الثانية «جان».

وإذا قارنا بين رسائل «يحيى حقي» إلى ابنته، ورسائل الكاتب «أحمد أمين» إلى ولده، فإننا نجد بينهما نقاط تماثلٍ في حرص كلا الأديبين على تقديم النصح والتوجيه للأبناء وإرشادهم لاستقبال الحياة بلا قلق ولا انحراف، وليشقّوا طريقهم

بثقة، إلا أن رسائل «أحمد أمين» لم تكن بالمعنى الواقعي، لأنها متخيلة قصدها الأديب قصداً، فهي إطار شكلي لكتابه وعنوانه «إلى ولدي» وليس فيها ذلك الجانب الواقعي الذي يتصل بحياة الكاتب وشؤونه الخاصة، لذا طغى عليها التأمل التربوي.

أما رسائل «يحيى حقي» فهي حقيقية لم تكتب لتنشر بل أرسلها إلى ابنته وتبسّط فيها متحللاً من أي قيد لغوي أو أدبي، ومع ذلك فإنها تحفل بالصدق والدفء، والواقعية والذاتية، وحرص من خلال استخدامه اللغة المحكية المصرية على أن تكون أكثر تعبيراً عن النفس، وأكثر قدرة على نقل الأحاسيس، وهو يمزج فيها بين الأمور الخاصة والإرشاد الأبوي النبيل، إذ نقف خلال شرح همومه النفسية على حياته في مرحلة التقاعد، فهو مثلاً يحاول أن يعيش على راتبه التقاعدي في بلد مرتفع الأسعار كفرنسا. لكنه كان مثال الرجل القنوع، (الحمد لله فقد توظّفت في الحكومة المصرية وعمري اثنتان وعشرون سنة، كنت أسير في حياتي كأنني في طريق مرسوم، فإن كانت معي عشرة جنيهات عشت بها، وإن كانت عندي مئة عشت بها، كنتُ أكيّف نفسي مع الظروف، وأشكر نعمة الله، وصدقيني إن قلت لكِ إنني عندما كنت أمرّ على «فترينات» عديدة في الشوارع كنت أحمد الله على أنني لست محتاجاً لأي شيء منها).

إلا أن معاناته المادية كانت واضحة، فهو يُشير في رسالة إلى ابنته.. إلى مرض زوجته، ويعترف أن المشكلة في حياة الغربة تتطلب نقوداً أكثر مما يملك، فكان يتدارك عجزه ببعض ما يتقاضها عن نشاطات ثقافية لا تتناسب مكافآتها أحياناً مع جهده، أو يستمد العون من ابنته وزوجها.

ويبدو من رسائله ولعه بالسينما والمسرح، فهو يتابع حضور الأفلام بنهم، ويقوّمها.. ويعلّق على أحدها فيقول: (أظنك تقولين «يا بخته» ولكن تأكدي أنني أشرب هذه الأفلام كشربة الملح الإنكليزي والعياذ بالله).

كذلك يبدو ولعه بالقراءة وسماع الغناء وترتيل القرآن الكريم، فقد علّق في إحدى رسائله على غناء أم كلثوم فكتب:

(سعدت جداً بنجاح برنامج أم كلثوم، وعسى أن يكون لي عنها كلام في حفظها القرآن الكريم وسلامة مخارج الحروف، قال عبد الحميد زكي: إن صوتها بلغ قمته في أفلام «دنانير وفاطمة وعايدة» ثم بدأ ينحدر). ويضيف في مناسبة أخرى (ويضيق صدري أشد الضيق عندما أسمع الأنغام تتردد بنفس المادة والوتيرة والنمط، وأكاد أرمي نفسي من الشرفة... فالتطوير زيادة عن اللزوم شيء مؤلم إلا عند السيدة أم كلثوم فهي تستطيع أن تتناول الكلمة والنغمة بأشكال مختلفة لا تبعث على الملل، لذلك أحب أن أسمع منها الشعر. وتعجبني مخارج

ألفاظها، فهي قديرة في نقل الشعر بهذه الصورة البديعة).
وللأديب «يحيى حقي» نظرات تربوية عميقة تقوم على التربية الإنسانية المثالية. إنه يُؤْثر تعزيز القيم في نفس ابنته، ويعلمها التواضع، ويرسّخ فيها الحب... حب الناس والدفء الإنساني، يقول في إحدى رسائله: (جان «زوجته» تظنني أديباً كبيراً، وأنا قانع دائماً بما يأتي به الله..). وتوجيهه يُظهر اعتزازه بتراث الأمة الحضاري والديني كما يتضح من قصته «سرير النحاس» وقد رمز بالسرير العتيق إلى تراث الأمة.. ويطلب من ابنته أن تقرأ وتدرس محيطها وأحوال بلدها، كما يطلب منها ألاَّ تغتر بنجاحها في عملها بالإذاعة (المهم أن تعرفي كيف تشتهرين دون أن تشدّ الأنظار إليك). ويؤكد لها أن «الذوق» هو أول صفة للمبدع، وأول صفة يفرضها الذوق هو الاعتزاز بالنفس.

و«يحيى حقي» متدين يؤمن بالله، معتز بالقرآن الكريم، يريد أن ينقل إيمانه إلى ابنته، فيرسل إليها من مقر إقامته في حي شعبي بالقاهرة كتابين في الأدعية اشتراهما من حي سيدنا الحسين الشعبي ليعزّز بهما إيمانها، ويشدّها إلى استمرار صلتها بالله.

كما يكتب لها أن تكون صادقة في مشاعرها وتعبيرها عن كل ما تكتب، وينصحها بالاتكال على الله لكي يزول قلقها وهواجسها (ونصيحتي لك حين تقومين من النوم وأنت منزعجة

أن تتعوذي وتبسملي وتقرئي سورة من القرآن ﴿اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[1] وتتوكلي على الله ففي يده الرحمة والشفاء.

ويرسل إليها يوم ميلادها دعاءً للمولى ليسعدها ويهبها صحة البدن والروح والعقل، وألا يجعل محبة الناس تتقطع عنها ويجنبها شرارهم وأراذلهم... وألاَّ تفارق الابتسامة ثغرها).

وعن موقفه من حضارة الغرب، فإنَّ «يحيى حقي» لم يغلق نافذة التواصل الحضاري، وإن كان يرفض أن نفتح أبوابنا ليقتلعنا من جذورنا أو يجرفنا بتياره المتدفق... يقول في حياته بفرنسا: (أعيش على هامش أسرة فرنسية لها عاداتها وأخلاقها، وأبذل كل جهدي ألاَّ أعلق على أي شيء بأي كلمة، ولكن الذي أراه هو العجب العجاب.).

ونلاحظ قلة اهتمامه بالشؤون السياسية في رسائله، فهو لا يلتفت إلى خارج حدود بيته وأسرته... إلا أنه يشير في إحدى رسائله إلى أن «جيسكار ديستان» الفرنسي صرح في زيارته للقاهرة، أنه مطلع على أحوال مصر، وأنه قرأ قصة «قنديل أم هاشم» وأُعجب بها.. ويعلّق «حقي» على ذلك بقوله: (أخذت في نفسي هذا الثناء، ولم أحاول أن أتباهى به).

---

(١) [طه - ٢٥].

ويشير في رسالة أخرى إلى ترشيحه لجائزة الملك فيصل، وجائزة الرئيس صدام حسين، فيُبدي رضاه عن ترشيحه للجائزة الأولى لكنه يرفض ترشيحه للثانية لو تمّ ذلك، لأن الرئيس العراقي «لوّث يديه بدماء المسلمين» وهو يرفض أن يتسلم منهما أي جائزة، ويتضح من ذلك أن «يحيى حقي» كان رجل مبادئ وقيم، ولم يكن معنياً بشؤون السياسة مع أنه عمل في السلك الخارجي، وقد يعلل قلة اهتمامه بالسياسة... لكتابة هذه الرسائل بعد أن اعتزل العمل ودوّنها وهو في السبعين من العمر، فمن البدهي أن ينصّب اهتمامه فيها على أحواله الخاصة وصحته معتزلاً الحياة العامة... يقول:

(يحسن بأصحاب الأقلام إذا شاخوا أن يُسدلوا الستار بأنفسهم على مسرحهم صوناً لهم من إنتاج أعمال مصابة بالجفاف والسعال والروماتيزم) وتبرز خفة ظله جلية فيما يكتب، فهو يتلاعب باسم ابنته على سبيل الدلع فيجعله أقرب إلى الأسماء اليونانية تحبباً، ويغمرها بكلمات الحب الأبوي، وفي صورة طرافة ونكتة وخفة ظل، يكتب في إحدى رسائله: (كأن العمر سيارة فوق طريق مليء بالمطبات، بين كل مطب ومطب عند بعض الناس متر وعند بعضهم كيلو متر.. طبعاً الآخرون أسعد من الأولين..!!). ويكتب لابنته في ساعة صفاء مظهراً مشاعره نحوها: (أفكر فيك، وأحلم بك، وأناجيك، ويتصل ذهني بك

وقلبي وأعصابي وذبذبات أوتاري، ورنّة طبلتي وجريان ريقي ومصمصة لساني ورمشة عيوني وحكّ رأسي).

إن رسائل «يحيى حقي» تعكس صورته إنساناً وديعاً صافياً متواضعاً كبير القلب، يريد أن يعلّم الناس كيف يسلكون طريقهم في الحياة بنجاح حين يكون شعارهم الحبّ ونبذ الأثرة... وهما أمران لا يتحققان إلا لأصحاب النفوس النبيلة الكبيرة.

* * *

أدب الرسائل :

عند الكاتب عمر فاخوري

تأثّر الكاتب اللبناني عمر فاخوري في نشأته بعاملين أساسيين كان لهما دور بارز في تكوين أدبه، فقد ولد في حي من أحياء بيروت القديمة عام ١٨٩٥م، وتابع دراسته في «الكتّاب» ثم في الكلية الإسلامية مع أقران له أسهموا مثله في الدعوة إلى النهضة والتحرر والإصلاح. منهم أحد شهداء السادس من أيار «عمر حمد»، وتهيأ له أن يتعلم اللغة الفرنسية، وتتــفتح آفاقه على الثقافة الغربية ومعطيات المدنية الحديثة تحت تأثير انفتاح بيئة بيروت على الغرب، في زمن كانت فيه كتابات عبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني تهيئ الأذهان لتغيير الواقع الإسلامي والعربي بعد سقوط السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وتوجّه تركيا إلى الإحياء القومي بعد الانقلاب الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي، فأخذ «عمر» ينشر مقالات في صحيفة «المفيد» تدعو العرب إلى التمسك بقوميتهم، وفي الثامنة عشرة من عمره ألّف كتاباً

عنوانه: «كيف ينهض العرب؟» فصودر الكتاب، وكاد يودي بكاتبه، لكن سرعان ما خاب أمل عمر بعد زوال الحكم العثماني وانحسار نيات الغرب الخفية إثر تقسيم البلدان العربية ووضعها تحت الانتداب الأجنبي، فأدرك «عمر» عقم العمل السياسي، وتوجه إلى فرنسا لدراسة الحقوق عام ١٩٢٠ بعد أن تعهد نسيبه «محمد فاخوري» أن يغطي بعض نفقات دراسته.

إنَّ ما وصل إلينا من رسائل الفاخوري مجموعة من الرسائل التي كتبها إلى أهله وأقاربه وأصدقائه مابين عامي ١٩٢٠ - ١٩٢٧م، أبرزها رسائله من فرنسا إلى خاله، وأمه، وأخيه. وهناك رسائل وجهها إلى هؤلاء بعد عودته من فرنسا في أثناء تنقله بين دمشق وحلب والمدن السورية الأخرى.

يبلغ عدد رسائل «عمر» من فرنسا (٢٨) رسالة، أغلبها موجه إلى خاله، أما رسائله إلى سورية فلا يتجاوز عددها سبع رسائل موجهة إلى أخيه أو ابنة خاله «سلوى» التي أصبحت زوجته فيما بعد. وضاع قسم كبير من رسائله إلى أصدقائه.

تعد رسائل «عمر فاخوري» وثائق اجتماعية وسياسية هامة، لأنه ضمّنها انطباعاته وآرائه في الشؤون السياسية والإنسانية، وردود فعله وأحكامه على عالم الغرب وأعرافه وقيمه، ولم يذهب في تلك الانطباعات بعيداً في التحليل والمقارنة شأن

توفيق الحكيم، ونلمس في أسلوب رسائل «عمر» أنه يكتبها بلون من العفوية، ولا يعنى كثيراً بالتزويق في كتابتها.. وقد يبدو أن الرسائل عادية كتلك التي يكتبها عامةُ الناس، لأنه لم يخطر على باله أن هذه الرسائل ستنتشر في يوم ما، وستكون وثائق تُسهم في تعرّف شخصيته ورؤيته الفنية والإنسانية، ونتبيّن من قراءتها ميل «عمر» إلى الواقعية في التعبير وتصوير الحياة، وملاحظاته الدقيقة في تحليل ما يحيط به، ورسم انطباعاته عن الوقائع والشخصيات التي يتحدث عنها.

نرى أن الكاتب «عمر فاخوري» تأثر بالثقافة الفرنسية قبل غيرها، وأعجب بالكاتب «أناتول فرانس» ودعوته إلى عالمية الفكر، ورفض التطرف السياسي، ونزعته الإنسانية وسخريته اللاذعة، كما أعجب بدعوة الكاتب «رومان رولان» إلى نبذ التعصب القومي، حتى إنه أسس مع رفاقه العرب في فرنسا جمعية «الشعبة الشرقية لشعبة النور» وكانت تدعو إلى وحدة الفكر الإنساني والإخاء بين الشعوب.

وتأثر بالكاتب «إميل شارتييه» ودعوته إلى تقدير المضمون في الأدب وإعلائه على الشكل، إلا أن الأفكار الإنسانية والمسائل الأدبية لا نلمح لها أثراً في رسائله، فقد اصطدمت نزعته الإنسانية بصخرة الواقع، وآلمه غدر الغرب ونكثه العهود، فقرر أن يعزف عن المثالية إلى الواقع، إذ بدا له الغرب

قاسياً في معاملته الإنسانية، وبدت له حضارة الغرب المادية آلة تسحق الإنسان الفقير، إذا لم يتسلّح بسلاحها وهو المال.

هو يشكو أحياناً في رسائله من عبء الحياة في باريس، فالأجور باهظة جداً، وكذلك نفقات الطعام والكساء، ويعنى بالكتابة إلى أهله عن معاناته المادية في ديار الغرب، وفي رسالة ينتقد فيها المدنية الأمريكية التي تقوم على الذرائعية [الأميركان - رجال عمل ومصلحة ومال، العواطف لا تقف في سبيلهم إلى هذه الغايات، تذكارات الماضي لا تعوقهم عن تشييد صرح المستقبل، والفرنسيون يعيشون في الضواحي على نقيض الأمريكان..]. ويستطرد في رسالته، ليشرح هذه الحقيقة... فيتحدث عن رواية قرأها عنوانها «الأمريكان عندنا» وتدور حول صراع ثار في أعماق نبيل فرنسي يملك قصراً عتيقاً يمثل روح فرنسا، ثم يغريه سائح أمريكي ببيعه بثمن مغرٍ، فلما بدأ الأمريكي بهدم القصر شعر الفرنسي أن ماضيه وماضي أمته يُهدم أمامه، فسقط في صراع بين العقل والشعور. ونلاحظ في رسائل «عمر» أنه يتحدى ضيق ذات يده، ويغالب الحياة ليتم هدفه في التحصيل العلمي.. وتدفعه إرادته القوية على الرغم من الصعاب في أيام الحرب العالمية الأولى إلى الجمع في الدراسة بين العلوم السياسية والأدب.

ويضطر إلى ممارسة العمل التجاري بتصدير السجاد إلى فرنسا مع أصدقاء له عسى أن يكسب منه بعض ما يفي بنفقاته، يقول في رسالة له: [ما كتبته لك عن السجادات في قديم الزمان، فإحدى قصص كان ماكان ما بعناها، ولا يعلم المصير إلا شاه العجم صاحب شهرزاد وألف ليلة وليلة... قدم ثابتة على البحر، متزعزعة على الأرض]. ويبلغ منه العوز حدّ الإدقاع [أؤكد لك - ياخال - أني اليوم في حاجة إلى خمسة فرنكات.. واستدانة من فلان أو فلان ضربة لازب... ربما تحسب أن في قولي شيئاً من الغلو... اقسم لك إنها الحقيقة.].

مع هذا الواقع المؤلم.. كان «عمر» يتحدى الظروف، وينجح في دراسته، ولا يكفّ عن إرشاد أخيه «وجيه» وتوجيهه ليكفّ عن الكسل والتراخي، ويتابع دراسته بجد.

ونلمس في رسائله ذلك الوجه الإنساني الذي يتجلى لدى «عمر» من خلال حنينه إلى أهله، وخاصة إلى أمه التي كان يوليها مشاعر دافئة، وكانت ترسل إليه في رسائلها أبياتاً من الأدب الشعبي تبث حنينها بقلب الأم الذي لا يقوى على الفراق، وكان يتمثلها وهي تقرأ رسائله وقد جلست وراء نرجيلتها بين الجارات، وكان يباسط خاله في رسائله، ويكتب له من الأسرار ما يخفيه عن الآخرين، حتى في علاقاته مع المرأة، كما يحدثه خاله عن مغامراته الغرامية في بيروت، فيكتب له «عمر»

بعقلية البيروتي المحافظ: [... أنا هنا في باريس حيث يغمض المرء عينيه، ويمشي في الشارع، فلا يضع يده على امرأة إلا نال المقصود، وأنا هنا لا أجرؤ ولا أتحرك ولا... ولا... ولكن - يا خال - اسمع، أريد أن أسرّ إليك أمراً لا يخرج من فمك: أقول لك: إن نفسي تحدثني بأن هذا الأمر يطول، وسأمكن الشيطان من تجربتي.. متى؟ كيف..؟ من..؟ لا أعلم لكن متى قضي الأمر طيرنا إليك الخبر..].

وعلى قدر اهتمامه في رسائله بتصوير معالم باريس، كحديقة اللوكسمبرغ وقصر فرساي والانفاليد، فإن قلبه معلق ببلده بيروت، فهو يتابع أخبار الصراعات العائلية فيها، ويتابع أخبار الوطن العربي من خلال الصحف التي تصل إلى فرنسا.

ونراه على الصعيد السياسي يتابع الأخبار السياسية التي تتصل بالوطن العربي باهتمام.. كتب يقول: [قَدِم نوري السعيد منذ بضعة أيام وبرفقته هشام المؤيد الذي عين «كاتب يد» له، ولم يلبث أن سافر إلى لندن،.. وفعلاً إن القصة السورية تطورت تطوراً جديداً، وأخذت في سلوك مسلك جديد، الصحف هنا، لا تتكلم عن مسألتنا بالعنف الذي كان يسيطر عليها من قبل..].

ويبدو في رسائله أنه كان مدركاً لخديعة الغرب، ونكثهم الوعود التي قطعوها للملك فيصل ووالده الشريف حسين، وكان

ناقماً على حاشية الملك المتزلفة.. يكتب: [استقبال الأمير، وحديث الأمير، ومقابلته للشبان، وخطبه في دمشق... هذا الرجل اجتمعت عليه الكلمة، وقد علمت هنا أشياء غيّرت اعتقادي فيه.. هو في حقيقته ليس مثلما هو في الظاهر.. خطبه التي يلقيها قد يقول فيها ما لم يمكن قوله، لكنه بدوي تهيج حماسته وحدّته المظاهر الضخمة والأحوال الموقتة، فيبعد لسانه جنانه.]. ويحمل على نفاق حاشيته في الرسالة نفسها [من جملة ما رووه لي، أن الأمير إذا قال كلمة نظر إليه أحد أولئك نظرة الإعجاب وقال: الله! الله..! يا سمو الأمير، من أين لك هذه الحكمة.].

ويؤلمه أن يلاحظ في بيروت ميلاً إلى التفرقة والانقسام بعد أن انفرط عقد الزعامات التقليدية.. فيكتب: [كنا نرى عائلة «بيهم» في شخص زعيمها مختار، ولكن نسيت أن تقول: وليس فيهم مختار ولا ربع مختار، هؤلاء كانوا يؤلفون عصبية ذلك الرجل، فلما انتقل إلى رحمة ربه، حصل الاضطراب في تلك العصبية وظهر الهيجان.].

ويسخر بنقد لاذع من الأمير سعيد الجزائري الذي كلف أن يلقي كلمة عن القضية السورية في الجمعية الاجتماعية الفرنسية [فجلس في الصف الأول، وحوله حاشيته على رؤوسهم كومات جزر، هي الطرابيش الحمر، وطُلب منه الكلام، فوقف وقال بعد

التحية والسلام بلسان فرنسي أعوج: خطاب كتبته، تلقيه المدموزيل جرمين أملاه عليَّ فكري المخلص... أضحكت كلمته الحضور في «عبّهم». في خطابه سرد للأعمال الجليلة التي قام بها، وشتمٌ لرجال الحكومة في دمشق، وزعم أنهم قتلة وسفكة دماء وقطاع طرق].

بهذا الاهتمام السياسي، يبدو أن عمر فاخوري لم يكن يرى نفسه طالباً يحصّل العلم، بل مناضلاً وصاحب قضية وطنية يتابعها باهتمام.

أما الحديث عن الأسلوب في رسائله، فهو الواقعي الخالي من الصنعة البلاغية، قريب من أحاديث العامة، لكنه عميق الغور، نافذ السخرية، يعمد فيه إلى استخدام تعبيرات العامة وكناياتهم كقوله: «الحياة بنفسها ثقيلة ولا تحزن»، وقوله: «دوام الحال من المحال»، «ويابلاش»، و«عادت حليمة»، و«يا ما مثله أمثال» وهي تعبيرات تقرب أسلوبه من الواقعية، وتربط كتابته بلغة الجماهير السائدة.

أجمل ما في رسائل «عمر فاخوري» صراحته وعالمه الداخلي المكشوف فهو لا يضع سداً بينه وبين من يكاتبه، ولا يتحدث إلا في أمور تتصل بحياته وحياة وطنه ومجتمعه، بل نشعر من خلال رسائله أن مطالعاته الغزيرة كان يوجهها لخدمة الإنسان وتحريره من كل ما يكبله من عوائق وحواجز تحول دون انطلاقه وتحقيق ذاته.

الغربة في رسائل الكاتب

شوقي جلول إلى أبيه

في رسالة يوجهها الأديب «شوقي جلول» الكاتب المنسي، والصحفي النابه، والمعلم المشرد من مدينة «التلاغ» في الجزائر، وهي إحدى البلدان قرب «وهران»، يستهلها مخاطباً والده بدمشق: [لسان حالي لا كما قال الشاعر المهجري نسيب عريضة، بل كما قال الشاعر البدوي «علي بن الجهم» وما أروع ما قال:

أبلــغ أخــاك تــولّى الله غربتــه

أنـــي وإن كنـــت لا ألقـــاه ألقـــاه

وأن طرفـــي موصـــول برؤيتـــه

وإن تباعــد عــن مثــوايَ مثــواه

الله يـــشهد أنـــي لـــست أذكـــره

وكيــف أذكــره إذ لـــست أنـــساه

*

صدق ابن الجهم يا أبي، فكيف أذكره، إذ لست أنساه، وكلكم في نفسي ووجودي وأبعادي وأعماقي وغربتي: أب رفيق صدق، وأخ فيَمَّنٌ حقيق، وصاحب كالذهب لا تغيّره النار، صفيٌّ عتيق، وأهل كرام كبار، ووطن ولو ضنَّ على أبنائه الشرفاء باللقمة الشريفة عزيز كريم.].

لم يصوّر كاتب آلام الغربة وقسوة الحنين مثلما صورهما «شوقي جلول» في رسائله التي وجهها إلى أبيه من مغتربه في الجزائر مابين الأعوام [١٩٦٤ - ١٩٦٩]، وهي رسائل تدخل في باب أدب الترسل الرفيع، لم تكتب لغرض التواصل الحياتي، وإنما حرص كاتبها على أن تكون قطعاً أدبية متميّزة جديرة بالنشر تتوّج ما أبدعته الأقلام قبله من رسائل أدبية، وتعكس لدى صاحبها تمرساً أدبياً مبدعاً، ونفسياً إنسانياً بدأ يضمحلّ على الساحة الأدبية آنذاك، مع نزعة واقعية يحلّل فيها «شوقي» مأساة إنسان قسا عليه الدهر، فطوّح بالآفاق، يحمل على كتفه عبء ستة أفراد، ويغالب الدهر القاسي لينتزع لهم لقمة العيش.

ولد الكاتب «شوقي جلول» في دمشق عام ١٩٣٢م. لأب متعلم موظف، حرص على تزويد ولده بالعلم، والخلق الكريم، وهيّأ له فرص الإبداع الأدبي، ولم يكن الوالد أقلّ من ولده اقتداراً على الكتابة، واعتزازاً بالتراث العربي الإسلامي، مع براعة في الخط العربي والكتابة، فنشأ شوقي في جوّ أدبي

وتربوي متميّز، وأولع بالمطالعة، وبعد إنهاء دراسته نشر العديد من الدراسات النقدية والأدبية في الصحف العربية، وكان شاعراً يملك حسّاً رهيفاً وذائقة نقدية رفيعة.. عمل معلماً ثم موظفاً في وزارة الإعلام السورية، لكن قلمه الصريح عصف بمستقبله الأدبي، فسرّح من عمله ليواجه الحياة، ويتحمل تبعة إعالة أسرته صفر اليدين، فقذفت به الحياة إلى الجزائر، في مرحلة التعريب، وقضى فيها عقداً من الزمن، مشرداً عن بلده، وخبر قسوة الغربة التي فجّرت حنينه إلى وطنه، مثلما عانى العوز والبؤس، وضراوة المعركة التي تخوضها الجزائر في استرداد هويتها اللغوية والثقافية والقومية.

كتب «شوقي» رسائله إلى أبيه، وكان يرى فيه معلّمه وملهمه بنَفَسٍ أدبي مبرزاً معاناته، محللاً الأوضاع الإنسانية والاجتماعية في بلد هجرته، ويطيب له أن يسميه «بلد كسب العيش» وهو تعبير كان يفتتح به كل رسائله إلى أبيه.

يطالعنا من ثنايا الرسائل الإنسان المعذّب بالغربة، الذي غدت صورة وطنه «يوتوبيا» موعودة، يراها في منامه ويقظته مثلما يراها أطفاله في أحلامهم، يقول: [سمعنا اليوم «فهد بلان» بيتهوفن الشرق لدى محبيه، فأحسسنا برياح آسيا المغمسة بالعبير تملأ رئاتنا، لآسيا في رئتي إفريقيا فراغ دافئ عليل، بدأنا نبوس الرياح المشرقية التي تهب من دمشق، بدأنا نشتاق

إليكم كثيراً مع كل نبضة بطين أو رنة أُذين، قد تقولون: ماهذا الشعور ولما تشتاقوا، والواقع أن الحَذِرَ بدأ يفقد آثاره، والعليل بدأ يتحسس الأوجاع، هذا القدر الجديد سأعيشه كما أردت أنا، ولكن دمشق تظل في الأعماق جمرة تتقد وتتأجج لا يطفئها ماء آسيا بأجمعه.].

ويسرد «شوقي» في رسائله صوراً من معاناته ومعاناة أسرته في مغتربه، فيقول: [المرض كان أول المستقبلين لنا يوم وصلنا.. وتسألني هل تداويتم؟ فأقول لك: الطبيب هو الله.. الذي يزورك ولا تزوره، كبقية الأطباء.. يزورك لطفه ورحمته، وشفاؤه بدعوة مؤمنة خارجة من قلب مؤمن.].

ويضيف في رسالة أخرى مبيناً كفاحه الصامد في مواجهة الصعاب:

[... إننا بنعمة الله نحيا ونعيش، ونقبل بدنيا وجهاً وقفاً، رغم كل ما نلاقيه وسنلاقيه باعتبار أن المؤمن ممتحن، وباعتبار أن التجارب مضامير الرجال، وأن كل الأسلحة تصدأ ذات يوم.... أبيض أو أسود ليس إلا لإيمان والصبر، فهما أمضى سلاحين شاهدت أثرهما في الإنسان مذ كان له تاريخ وجغرافيا.. الأولاد لابدّ أن يمرضوا.. لنمرض نحن أيضاً، ولنحس أننا آباء وأمهات.. وإلا تنسحب منا إجازة الأمومة والأبوة المجاهدة،

رفيقة الكفاح تعيش أيامها كما تجيئ الأيام... الحياة ذات وجه أسود وربما ازداد سواداً على أنه لا يأس مع الحياة].

وللكاتب «شوقي جلول» أسلوب الفكه في تصوير معاناته لم يفارقه حتى في أقسى المواجهات، فقد ابتلي بعيب في أضراسه ولثته.. لم تجدِ معه مراجعة الأطباء، فكتب إلى والده الذي وجّه له بعض النصائح في علاجها: [لقد صارت قصة اللثة «لتة» من اللتّات، راجعت وزرت أربعة اطباء، وكلهم أعمل معوله ورفشه في حلقي وفي أسناني، وقالوا: هذا مايمكن عمله، المصيبة أن الماء هنا كلسي فيه الجير ومنه يتفتت الضرس والسن كما يتفتت الملح في الماء، فهات أسناناً تصمد...!!].

وفي رسالة أخرى يشكو انتشار الشيب في رأسه قبل أوان الشيب، ويصوّر تراجع وضع أسنانه بتصوير ساخر... فيقول:

[الزمان غريم مُلِطّ، سؤول حسود، حقوق لجوج، ما يفتأ يطالعنا بالديون.. يديننا بسمة ما ليستردها قناطير حزن، وأطنان شوك.. الشيب الخبيث أحد الناعيَيْن للإنسان، فبعد ما وطّن لنفسي وطناً في محطة رأسي «العازب» من قبل، استدعى بعض حفدته وكريماته، وأخذ يزاوج مابين أولادهم، فتتوالد تلك الزيجات توالداً بلا موانع ولا حواجز...

والأسنان التي كانت كأنها منشار حداد أصابتها اليوم حمّى المطالبة بالحرية بعدما أخبرتها بعض الأسنان المقلوعة الهاربة

بجمال الجو الخارجي وحلاوة الراحة، فلا تعب أثناء المضغ، ولا تطلّب دائم ولا استنفار مقيم أبدي لكل داخل ودخيل.... أقول أصابتها عدوى الاستقلال، فأخذت تدعوني بإلحاح إلى عتق رقابها، وإطلاق سراحها كما كان يخلي صلاح الدين الأيوبي سراح أسراه إبان الحروب مع الأعداء الفرنجة، وتهددني بالفرار المتعمد إذا لم أستجب لها من سجن الفم المعتم كأنه دهاليز الباستيل.].

ويعنى «شوقي» برسائله إضافة إلى التصوير المبدع بضروب من الصنعة البديعية، يحاكي بها المتراسلين القدامى.. يقول: [سلمَتْ عينك يا سيدي، وبرئ جرح أنت مُعانيه، وتعاني عظم تحمّل من عَنت هذا الدهر ما تحمّل، فما عنَّ ولا أنَّ ولا بكى، ولا لوت الشدائد ساقه، ولا اشتكى ما عاش..]. فهو يفيض عاطفته البنوية على والده بنسج يربط به أسلوبه بأساليب الناثرين المشهورين بتراثنا، وهكذا يجمع بين الحنين إلى ماضيه الأبوي وحنينه إلى الماضي الأدبي، واعتزازه به، فكأن غربته حوّلت مشاعره إلى لون من الاغتراب النفسي، يرفض به الحاضر ويعيش به على الماضي وأحلامه.

وعلاقة «شوقي» بأبيه تتجاوز علاقة الابن بوالده، فإلى جانب الاحترام والتقدير اللذين يتجليان في رسائله لأبيه واعترافه بجميله نراه يعقد لوناً من الصداقة الروحية مع والده،

تزيل بينهما الحواجز والسدود، فكثيراً ما يناقشه في آرائه ومبادئه في الحياة بروح ديمقراطية.

يكتب له والده أن الأصدقاء الأوفياء في عصرنا نادرون كالغول والعنقاء، والخليل الحق إن وُجد فهو مغفل أو أبله عبيط، ويذكره مازحاً أن الإنسان لا ينفعه سوى «قرشه وكرشه» فيرد عليه «شوقي» قائلاً: [أما أن تقول يا سيدي أن الخليل الحق إذا وجد فهو مغفل أبله عبيط... فالذي أظنه أنك تتطرف في هذه الناحية، إذ إنك على هذه الحال تنكر وجود الأخلاق والدين الذي يأمر بالإخلاص للجار والصديق وما تعرفه عن ذلك، وما علمتني إياه يقوم دليلاً قاطعاً على ذلك].

ويتجاسر في رسالة أخرى فيكتب إلى والده:

[شيء واحد أؤاخذك عليه في تربيتك لنا، هو هذا الظن الحسن بالناس والمجتمع الذي منحتني إياه من حيث أردت العكس، والذي غرسته في ضميري من حيث لا تدري، سوء ظنك بالناس جعلني على نقيضك تماماً، وها نحن أولاد اليوم، أنت وأنا وأمثالنا نعاني متاعب وويلات شرفنا واستقامتنا .].

رسائل الكاتب «شوقي جلول» أشبه بالخواطر المتلاحقة، تستدعي الخاطرة أختها، فيكثر فيها الاستطراد، ويطول النفس حتى تتجاوز بعض رسائله ثلاثين صفحة، فهو جاحظي المنهج في ترسله، مع قدرة على التحليل الممتع، وولع بإيراد الشواهد

من الأدب والحياة، ترفده تجربة واسعة في الحياة ومطالعات غنية في الكتب، وحافظة عجيبة تؤلف بين الأفكار والأقوال.

يكتب عن حال اللغة العربية في الجزائر قبل التعريب فيقول: [لا تؤاخذني يا سيدي على هذه «الشورباء» اللفظية، فنحن هنا نتعاطى لطائف الكلام بأربع خمس ست سبع لغات... تمرّ يومياً كقطار الشرق السريع، وهو البطيء، على دهاليز الأذن، لتصل إلى محطة العقل لترتاح... نتعاطى هنا، عدّ على أصابعك، كلام العربية الفصحى عمود الدين، فالقرآن عربي، والنبي عربي، ولسان أهل الجنة عربي، وإن كان الأتراك هم أجدادنا، والألبان أحبابنا، والأكراد أصحابنا يحتجون علينا أيما احتجاج، والفرنسية التي درجَت عليها يوم كانت اللغة الأولى للعالم المتدين لغة الرومانطيق وبالناعم الرقيق «الرومانتيك» اللغة التي نظمت بها قصيدة «بورلامور» إلى «سان كوشيه» والإسبانية لغة الأجداد البواسل الذين ما عجزوا عن البحر، فوصلوا إلى «بواتييه» مروراً بإسبانيا وفرنسا، وتركوا بصمات سنابك خيولهم على وجه المحيط الأطلسي.. والبلغارية لغة أتباع الموسكوف إذا غبّر، والدارجة الجزائرية... والدارجة السورية لغة عمك «أبي فهمي وأبي رشدي وأم كامل وأكرم خلقي» وكل فنان سوري مشهور كالدخان أو مغمور كالحق في هذه الأيام

وهنا لابد لنا من «متنبئ» جديد ينجدنا بترجمان ليساعدنا على عبور هذه الشعاب التي لاح لها أول ولم ينهض لها آخر].

ويضيف معبراً عن ألمه القومي، مشيراً إلى هجرة أسرته من تركيا وتعربها: [العروبة يا أبي وكما عشت قبلنا، أرضعتنا إياها مع الحليب قبل أن يكون «البيلارغون والكليم» معروفين.. ومن أجل سواد عيونها وكحل جفونها سحبتنا إلى استانبول... كما تسحب الشعرة من العجين... وحظرت علينا من يومها مزاولة التكلم بلسان الترك غير العربي...

فماذا كانت النتيجة يا أبي...؟؟ ماذا ربحت أنا...؟؟

ماذا ربح قبلك «مارون عبود» الذي نذر ولده وحياته للعروبة..؟ ماذا نال «فخري البارودي» يوم جمع بلدان العالم العربي كلها المرقومة على الخارطة؟... يوم جمعها في صورة شعرية تمناها حلمه الطيب وطموحه البكر، وإباؤه العربي؟..

لا شيء أبداً، عدت أنا بخفّي حنين ومداس أبي القاسم المشهور كما عاد أسلافي وآبائي الذين نافحوا عن هذا المعتقد بالرماد بلا نار، وبالهشيم بلا حصاد، ربما مردّ ذلك إلى أن البُناة دائماً هم غير الساكنين، دوماً يموت مجهول لإنقاذ الجماعة، ثم يُنسى كما ينسى التاريخ أبداً كل ذي حق..].

*

أجل .. ما زال «شوقي جلول» هذا الكاتب المبدع قابعاً في زوايا الإهمال والنسيان، ولو أتيحت له ظروف من الحياة مؤاتية لأضافت الأمة إلى شموعها شمعة متألقة، كان يتوقّع منها عطاءً كثيراً، لكن الحياة قست عليه، فدفن رأسه في بحار الألم، والاغتراب، والشكوى.

* * *

أدب كتابة الرسائل
عند البدوي الملثم

يوجّه الأديب الأردني «يعقوب العودات» الملقب بالبدوي الملثم... رسائله إلى ولده خالد.. الذي كان يتابع دراسته في جامعات الغرب، وهي ليست رسائل بالمدلول الواقعي، وإن كانت بأبعادها الفنية... بل هي أقرب إلى الخاطرات وقبسات من المصادر المختلفة، يؤلف بينها الهدف التربوي.

والكاتب «البدوي الملثم» قارئ يُحسن استغلال قراءاته وتوجيهها للغرض التربوي الذي ينشده.ونلاحظ من خلال رسائله أنه تابع باهتمام النتاج التربوي الذي قدّمه التراث العربي في مجال وصايا الآباء إلى الأبناء.

ونرى أن حجم الرسالة لديه لا يتجاوز الأسطر، وساعده ذلك الإيجاز على تضمين رسائله عدداً وافراً من الأفكار والمشاعر ... كما نلمس أن حجم الرسالة لديه يطول في الموضوعات

الوطنية والقومية، إذ تفيض قريحته مدفوعاً بالألم والحزن لضياع وطنه فلسطين...

كما تؤلف الرسائل الوطنية عنده جانباً هاماً بدافع حرصه على تزويد ولده خالد بوعي وطني قومي يجعله مواطناً صالحاً وإنساناً مضحياً بمقدار ما يُعنى بتربيته الفردية.

وهكذا يبدو أن «البدوي الملثم» مؤمن بأهمية التربية، وهو معجب بعصامية كثير من العظماء الذين شقوا طريقهم من العدم... لذلك يفرد لبعض هؤلاء صفحات يتحدث فيها عن حياتهم وكفاحهم.. داعياً ولده إلى الاقتداء بهم. ولا يتوانى عن سرد حياته لولده كنموذج للعصامية بحق، فقد نشأ في أسرة استطاع الجد فيها أن يجمع ثروة بعد كفاح مرير مع الفقر، فلما مات استأثر أعمامه بالثروة وكان يتيماً قاصراً، فدفعوه إلى أن يشقّ طريقه بالكفاح والكدح وعرق الجبين. فتعلم القراءة والكتابة وأشرف على إعالة أمه وأخته، واستطاع أن يكوّن شخصيته الأدبية من العدم، ويوفّر لعائلته حياة كريمة.

يقول البدوي الملثم لولده: (النصائح التي أسديها إليك هي حصيلة التجارب التي مررت بها خلال سنوات عمري، وإذا ما وجهتُ إليك بعض ما يخطر منها البال... هو لتزويدك بالحكمة وإضاءة طريقك لتفادي الجادة الشائكة لتسلك السبيل القويم).

وينصحه أن يبتعد عن الوظيفة والعمل الحكومي.. فقد كانت الوظيفة بلاءً لوالده طوال أربعين عاماً، والموظف في نظره طفيلي يعيش على فتات الموائد.

كما يوصيه بحسن اختيار الأصدقاء والحفاظ على التقاليد الموروثة وتجنب الكسل والخمول... والعمل بجد متواصل لتحقيق هدفه في نيل شهادة جامعية في عصر العلم والمعرفة...

ويحثّه على مكارم الأخلاق، فيُذكّره بنصيحة عبد الله بن الحسن لابنه محمد: (أي بني، كفّ الأذى، وارفض البذا، واستعن على الكلام بطول الفكر... احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً.. كما تحذر مشورة العاقل إن كان غاشّاً). ويحذره من التدخين وأضراره. ويدعوه إلى المثابرة، والاقتصاد وعدم التبذير، والصبر في معترك التعلم لبلوغ الهدف المنشود، عملاً بقول ابن بطوطة: (وإذا تراكمت عليك الأعمال فلا تلتمس الروح في مدافعتها بالروغان منها، فإن لا راحة لك إلا في إصرارها، وإن الصبر عليها يخففها عنك، والضجر منها يراكمها عليك).

ويُذكره ببعض المجدّين المثابرين من الرجال وصبرهم في إنجاز أعمالهم.. منهم الأصيفهاني الذي أمضى خمسين عاماً في تصنيف كتابه «الأغاني».

وابن بطوطة الذي جمع رحلته في أربعة وعشرين عاماً أمضاها في الأسفار، وابن رشد الذي لم يكفّ عن القراءة والبحث في حياته سوى ليلة أو ليلتين.

ويأمل منه أن يعتصم بحبل الإيمان والتمسك بالدين فلا يتنكر له، ويعتصم بالله في كل أعماله ويصلي لبارئه.

وينتهز ذكرى ميلاد السيد المسيح، فيرسل لولده رسالة يندد فيها بالغربيين، مثلما يندد بالجريمة التي أقدم عليها الغرب حين مكّن للصهاينة فاحتلوا فلسطين وشردوا أهلها العرب، وذلك بعد أن منحتهم بوعد بلفور المشؤوم حقاً زائفاً بوطن قومي... فيقول: **(تذكرت حكمة جاءت على لسان كاتب أمريكي هي: أن الرجل الإنكليزي كريم بطبعه... وقد يبلغ به السخاء أن يمنحك القميص الواحد الذي يرتديه جاره!!).**

ويبدي لولده اعتزازه بالعمل الفدائي، وكان في بداياته، ويشيد بمواقف شعراء المهجر في نشر الوعي القومي ولاسيما الشاعر القروي الذي كتب في ذكرى المولد النبوي:

يهنـــئ بعـــضكم بعـــضاً وإنـــي
أهنـــي الـــنفس أنّـــي لا أهنّـــي

أرى تفـــاح هـــذا العيـــد جمـــراً
ولـــو قطفـــوه مـــن جنـــات عـــدن

أأرضـــــى و«الرســـــول» قتيـــــل غـــــيظ

وأفـــــرح و«المـــسيح» شـــــهيد حــــزن؟

*　*　*

كما ينصح ولده - وهو المسيحي - أن يقرأ القرآن الكريم ليتملك نصاعة البيان العربي، ولا ينسى أن يقدم له رأيه في تحرير المرأة، لكنه لا يراه تبرجاً وزينة وارتداءً «للميني جوب» وتقليد للمرأة الغربية. ويؤثر أن تكون زوجته عاملة في البيت تصنع له صينية البطاطس، على أن تحمل جميع دبلومات الفلسفة وتُجيعه...

ويخصّ «البدوي الملثم» الولايات المتحدة برسائل عدة، فيعيب عليها ادعاءها الحرية ووضع تمثال لها في نيويورك وبالمقابل تتآمر على حرية الشعوب.

ويتحدث في رسالة عن النفوذ الصهيوني في العالم بعامّةٍ وفي الولايات المتحدة بخاصة، ويذكر لولده نصيحة أبراهام لنكولن أبي الدستور الأمريكي الذي أوصى بطرد اليهود من الولايات المتحدة لخطرهم على مستقبل البلد ومطامعهم في السيطرة على مقدراتها.

ويلتقي البدوي الملثم والكاتب أحمد أمين برسائلهما في دعوتهما إلى توجيه الجيل لتحصيل العلم وعدم انخراطه في الأحزاب المستوردة والعنتريات التي تصرفه عن العلم، وهو رأي يعكس ما كان عليه التوجه في تلك الفترة من الحياة العربية، قبل أن يتجه الوطن العربي إلى عدِّ جماهير الطلاب قوة سياسية فاعلة لها دورها في قيادة الكفاح السياسي وتبني المعتقدات الوطنية والتزامها. مع أن «البدوي الملثم» في إحدى رسائله يبدي إعجابه بمبادرة عدد من الطلاب في بريطانيا ليلة عيد الميلاد بارتداء ملابس عربية والطواف على المحلات وجمع التبرعات للاجئين الفلسطينيين، فكيف يقبل ذلك التوجه الطلابي من الأجانب وينصح ولده عدم الانخراط في الحياة الحزبية؟؟ كذلك يبدو تناقض موقفه التربوي حين يدعو ولده إلى أن يبني نفسه كالعصاميين مع أنه وفّر له كل مستلزمات متابعة تعلمه وشق طريق المستقبل، واضطر أن يغترب في آخر عمره لهذا الغرض، وكان الأولى به كي يمتحن عصامية ولده أن يدعه يكافح وينطلق بجهده الذاتي كغيره من العصاميين.

على أن ذلك لا ينفي جمال الرسائل وروعة طابعها الأدبي والفني، وعمق الثقافة التي تطل من وراء سطورها، ودأب كاتبها ليقدم للأجيال أثراً أدبياً رائعاً.

وفي الرسائل نصائح أخرى هامة منها: دعوة ولده للتفاؤل في مواجهة الحياة، وحثّه على المطالعة واكتساب ثقافة واسعة، وإصراره على عودة ولده إلى وطنه ليعمل في رحابه. وأبرز ما تتميز به رسائل البدوي الملثم إلى ولده خالد... حرارة الأسلوب وتضمينه قبسات من الشعر والأقوال الخالدة والأمثال السائرة... فهو يملك ذوقاً رفيعاً في الاختيار، ويُحسن دعم نصائحه بالمأثور الجميل من التراث العربي.

* * *

فن كتابة الرسالة
عند غسان كنفاني
«رسائل غسان إلى غادة أنموذجاً»

تُعد رسائل الكاتب «غسان كنفاني» التي بعث بها إلى الأديبة «غادة السمان» امتداداً لأدب الرسائل الوجدانية، ويؤلف بين هذه الرسائل أنها تبودلت بين أديب وأديبة، ومثل هذه العلاقة العاطفية نجد مثلها في تراثنا الشعري القديم. من ذلك علاقة الحب التي جمعت بين كثير وعزّة وكلاهما له في عالم الشعر باعٌ، والعلاقة التي ربطت ابن زيدون وولاّدة، وكان ينافسه في حبّها «ابن عبدوس»، وكان إشهار هذا الحب أو إعلانه للناس قديماً، يبدأ من الرجل بالتشبيب، على أن ذلك لا يعني أن الشعر العربي خلا من تغزّل المرأة بالرجل فلدينا قصائد شعرية كثيرة لشاعرات تغزلن بالمحبوب، وبعضهن من الأعرابيات اللواتي عشن في بيئة محافظة، فلم يكن صوت المرأة الشاعرة مقموعاً إن صحّ ما نسب إلى تلك الشاعرات، واستبعدنا منه ما دُسَّ عليهن من شعر منحولٍ في الغزل.

على أن الرسائل النثرية الوجدانية التي يفصح فيها الرجل عن مشاعره نحو المرأة، والمرأة عن مشاعرها نحو الرجل لم تكن شائعة حتى بعد شيوع الكتابة، وبدا أن الجواري وسيدات المجتمع في العصر العباسي كن يعبّرن عن مشاعرهن نحو المحبوب بإهدائه تفاحة أو خاتماً أو شيئاً كتب عليه بيت من الشعر يظهر الشوق اللاعج، أو يحدد موعداً لزيارة مرتقبة، وذكر ذلك صاحب «الموشّى» وعدّه من الظُّرف. وكان الرسول ينوب عن الرسالة، كما نجد في أخبار المحبين وشعر الشعراء.. ويشترط فيه أن يكون كتوماً حافظاً للسر، لأن العلاقات الوجدانية كانت تحاط بستار من الكتمان، حتى لدى النساء اللواتي أثر عنهن التحلل من قيود المجتمع، فولاّدة نفسها تخاطب ابن زيدون إن صحّ ما نُسب إليها فتقول:

ترقّب إذا جنّ الظلام زيارتي

فإني رأيت الليل أكتم للســـر

فالزيارة تتم في الليل بعيداً عن أعين الرقباء، والليل كما تقول «هو أكتم لسرّ الحب»، وهذا الكتمان دليل على التحرّج والخوف من الرقابة الاجتماعية المتطفّلة حتى لو بدت المرأة متطرفة في تحررها. أما أولئك الذين كانوا يعلنون بالشعر عن حبهم، فكان هدفهم من ذلك التشهير إبعاد الصيادين عن الطائر

المحبوب، لأن إشهار العلاقة والتشبيب بالمحبوبة ليس الهدف منه تناول الأعراض بقدر ما يرمي إلى الاستئثار بالمحبوبة واحتيازها. وكان ذلك يتمّ من الرجل لا المرأة، لأن المجتمع المحافظ الذي يحتفظ بتقاليد تمنح الرجل امتيازات على المرأة، لا يعيب الرجل أن يشتهر بحبه لامرأة، في حين يعدّ ذلك عاراً على المرأة وأهلها، ومن الشعراء من كان يكني عن المحبوبة بأسماء مستعارة حفاظاً على سمعتها، وهو أسلوب معتمد في الغزل التقليدي لدى الشعراء العرب.

وإن الغرب نفسه الذي يزعم أنه يبيح الاعتراف بمثل تلك العلاقات لم يكن قديماً أفضل من الشرق وهو مبتدع قفل العِفّة وحتى في عصرنا فإن «الفضائح» الجنسية ماتزال تهزّ أركان هذا المجتمع.. كمأساة «ديانا» مع عشيقها التاجر المصري «عماد الفايد» دليل على أن الغرب مازال يرى في مثل تلك العلاقات سلاحاً يهدد به أصحاب السلطة أو النفوذ، خاصة إذا كان الرجل العشيق أو المرأة العاشقة ممّن يرتبطون بأسرة وزوجة.

ونلاحظ أن الكاتب «زكي مبارك» بلغ به الغيظ أعلى درجاته حين عمدت محبوبته، وهي من أديبات مصر المعروفات، إلى نشر رسائله التي كان يرسلها إليها، مدّعية أنه يضايقها بهذه الرسائل، دون أن تذكر اسمه، وكان بحكم عمله في المجال

التربوي مهدداً بالسقوط الاجتماعي لو عرف الناس اسم صاحب تلك الرسائل، ففقد صوابه وأعلن عليها الحرب.

لقد ظهر من خلال الأدب أن المرأة كانت أقلّ اندفاعاً في إشهار علاقتها بالرجل، وأكثر حرصاً على كتمانها بسبب الرقابة الاجتماعية التي لم تحدّ من ظاهرة الحب والتواصل التي ظلت تمارس خفية، مع ما نلحظه من رغبة المرأة الشديدة في أن تظهر للناس على أنها محبوبة من الرجال، أثيرة لديهم، فكانت سيدات المجتمع الراقي في المدينة وبنات الأشراف يغرين الشاعر عمر بن أبي ربيعة ليشبب بهن، ويبدو أن هذه النرجسية الأنثوية موجودة حتى لدى بعض الأديبات والمثقفات، يدفع إليها حبّ الظهور والتباهي باهتمام شاعر كبير أو شخصية بارزة بهن.

* * *

في المقدمة تتحدث الكاتبة «غادة السمان» عن أهمية رسائل الكاتب غسان كنفانيّ التي أقدمت على نشرها، فكانت أول امرأة في التراث الأدبي تُقدم على إعلان علاقتها بـــ «غسان كنفاني» التي لم تكن بالفعل مكتومة بين الناس، فقد آثر «غسّان» أن يشهرها في ما كتبه من خاطرات وجدانية عنوانها «أوراق خاصة» في جريدة «المحرر» أو ما كان يعلنه حول هذه العلاقة

لأصدقائه وزملائه، حتى بات الوسط الثقافي والأدبي يعرف هذه العلاقة قبل أن تنــشر «غادة السمان» رسائل «غسّان» إليها، بعد استشهاده بربع قرن، وقد رأت «غادة» أن نشر هذه الرسائل بعد هذا الزمن من شأنه أن يُسهم في إحياء ذكرى الأديب والمناضل الراحل.

وكانت قد وجهت نداء تلتمس مَنْ بحوزته رسائلها أن يسلّمها إليها لتبادر إلى نشرها، فلم يلبّ أحد النداء، وتذهب «غادة» إلى توضيح الدواعي التي دفعتها إلى هذه المبادرة، فترى أن هذه الخطوة فضح للنفاق والزيف الاجتماعي الذي يصادر حق المرأة في التعبير عن ذاتها، ويقسرها على مسايرة التقاليد وكتمان علاقاتها الخاصة خشية المجتمع، وتعيب على اللواتي سبقنها في ذلك، إذ لم يجرؤن على الاعتراف الصريح بأنهن المستهدفات في رسائل من أحببنهن من الأدباء... كتلك الأديبة التي نشرت رسائلها إلى حبيبها فحذفت اسمها منها وشطبت بعض سطور قد تدعو إلى إحراجها أو إحراج الآخرين.

لقد أرادت «غادة» إحياء ذكرى الشهيد «غسان كنفاني» وإبراز الجانب الإنساني من شخصيته النضالية، ودفعتها الأمانة للحقيقة وصدقها مع نفسها إلى أن تعلن هذه الرسائل بغض النظر عن انعكاس نتائج إعلانها عليها أو على «غسان»، وهي نتائج لا بدّ أن يكون لها أثر سلبي عليها وعليه في عصرنا

«عصر التراجع صوب أوكار تزوير المشاعر البشرية الجائعة إلى الحرية» كما تقول...

وترى «غادة» أن نشر حقائق تتصل بالمشاعر الوجدانية الخاصة للكاتب «غسان» المناضل والفدائي من شأنه أن يعدّل صورة البطل في مفاهيمنا، فهو في نظرنا أقرب إلى أبطال الأساطير، أو التماثيل التي لا تنبض بالحياة بفعل الضوضاء الخطابية وتخطيط الكواليس المسرحية السياسية، فالرسائل تجسّده إنساناً حياً، وقلباً ينبض، وهي في نظرها لا تسيء إلى الشهيد الذي كان وفياً لوطنه وأصدقائه، نقيّاً في حبه وعطائه، وتضيف: (لا أستطيع الادعاء دون أن أكذب أن «غسان» كان أحب رجالي إلى قلبي كامرأة... وكي لا أخون حقيقتي الداخلية مع آخرين سيأتي دور الاعتراف بهم بعد الموت، وبالنار التي أوقدوها مع زمني وحرفي، ولكنه بالتأكيد كان أحد الأنقياء القلائل بينهم..).

ولا تنكر «غادة» أن من دوافع نشرها الرسائل دافعاً نرجسياً لا تخفيه، فهي إذ تُشهر حبها، إنما يدفعها الاعتزاز إلى ذلك، بأن تكون محبوبة رجل عظيم مثل «غسان كنفاني» أهدى روحه لوطنه... تقول: «فكل أنثى تزهو ولو سراً بعاطفة تدغدغ كبرياءها... وأنا بالتأكيد لا أستطيع تبرئة نفسي من ذلك جزئياً..».

وترى «غادة» أن نشر هذه الرسائل بعد خروجها من الخاص إلى العام أمانة في عنقها بعد أن أصبحت وثائق أدبية هي من حق المجتمع.. ثم إن هذه الرسائل تدخل في باب أدب البوح والاعتراف، وهذا اللون شبه مفقود في الأدب العربي وهو أحوج إلى التشجيع.

إن رسائل «غسّان» تُغني هذا اللون من الأدب الذي «تخط فيه الروح رموز الصدق على الورقة الملساء، ويجنح فيه القلب إلى المستحيل» كما تقول... وتضيف: «إن رسائل «غسّان» جزء من أدبه الذي هو ملك للناس بعد موته، ولا يجوز أن يُكتم بل إن دافع الوفاء الشخصي لــ «غسّان» يقتضي ردّ جميله» وقد وقف إلى جانبها في محنتها بعد وفاة والدها، حتى أن بعض الأصدقاء شهروا سكاكينهم وتخلوا عنها «فكان من أفضل الذين آزروها ووقفوا إلى جانبها».

* * *

ما كنت أريد أن أُطيل الحديث لولا الضجّة التي أُثيرت حول نشر الرسائل، فقد تداولتها الصحف والمجلات بين معارض ومؤيد لنشرها، ومعتدل يتوسط بين الطرفين حتى تسنى للكاتبة «غادة» أن تجمع آراء مئة وستين كاتبة وكاتب أسهموا بآرائهم، أما المعارضون فقد رأوا في نشر هذه الرسائل بما فيها من انكسار وخضوع برزا في شخصية «غسّان كنفاني» تشويهاً

لصورة البطل الذي بدا ضعيفاً أمام سلطان الحب، تدفعه تجربته المرّة إلى الانفجار أو الجنون، بل تنسيه القضية الوطنية التي نذر نفسه لأجلها، وهذا مما يسيء لذكره، خاصة أن نشر الرسائل جاء في توقيت غير مناسب، واستهدف أبرز رموز النضال الفلسطيني في مرحلة حاسمة يحاول فيها الشعب الفلسطيني الدفاع عن حقوقه والتطلع إلى حريته، وهؤلاء الذين عارضوا الخطوة بتطرف رأوا أن وراء نشر تلك الرسائل غرضاً سياسياً يعبر عن نفسه يطل بين سطور مقدمة «غادة» لها في الكتاب، ولا يعفي توقيت عملية النشر من الإساءة إلى القضية الفلسطينية السامية والتمهيد إلى تلك «الدراما» التي بلغت ذروتها في اتفاق غزة: [أحمد عبد المجيد... جريدة القادسية العراقية] بل ذهب آخرون إلى أن بادرة نشر الرسائل تصب في حمأة النظام العالمي الجديد [الياس العطروني.. جريدة السفير البيروتية].

أما اللائمون فهم أقلّ حدّة وتطرفاً، فمنهم من رأى أن الرسائل لا يجوز أن تُنشر إلا بعدما يتساوى الفريقان أو إذا كانت الرسائل وصفاً لحالة عامة لا مزاجاً شخصياً. [سمير عطا الله/ جريدة الشرق الأوسط].

وذهب الدكتور «إحسان عباس» إلى أن نشر الرسائل حوّل اهتمام الناس بالشيء العام الكبير إلى تفحص الخاص الصغير

من حياة «غسان» وهذا التعمد في تحويل الاهتمام يسيء كثيراً إلى الرمز.

ومنهم من لامها، لأن الرسائل تقدم «غسان» عاشقاً مهزوزاً ضعيفاً شوّهت صورته إلى حدّ ألاّ يجوز أن تعدّ صورة الإذلال من الأدب، وأن تقديمها للناس لم يكن لوجه الإبداع أو إفادة القارئ [حسب الله يحيى/ جريدة العراق]، وسلّط آخرون الضوء على نرجسية «غادة» التي بدت مفرطة، بعدما نشرت الرسائل، [أبو علي مصطفى/ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين]. ورأى بعضهم أنه كان على «غادة» أن تحذف بعض التفاصيل التي هي خصوصيات ذاتية وهي مُلك لغسان وحده [فواز خيو/ الأسبوع الأدبي].

أما الفئة التي انحازت إلى «غادة» من الكتّاب والكاتبات فهي الأقوى صوتاً في التعليقات، ولم ترَ هذه الفئة في نشر الرسائل ما يسيء إلى «غسّان» المناضل، ولم تجد في ضعفه أمام الحب ما يتنافى وبطولته أو ما يسيء إلى شخصيته النضالية، فالمناضلون لهم قلوب وعيوب إذا اعتبرنا الضعف الإنساني أمام الحب عيباً، ولم يخسر «غسّان» حين أشهد الجميع على عري قلبه وقرؤوا سطوره الخاصة جداً وما بينها، فقد كسب حياة جديدة بعد عشرين عاماً من اغتياله. ومن يقرأ ما كتبته «غادة السمان» بعد اغتيال «غسّان كنفاني» في كتابها (الجسد حقيبة

سفر) يدرك أنها فطنت منذ البداية إلى أن الطريقة العربية في تكريمه ستجعل منه تمثالاً من الشمع.. ولا نكاد نعرف أديباً كبيراً في الغرب لم تجمع رسائله بعد مماته وتنشر [د. فاطمة موسى محمود/ مجلة إبداع].

في حين لم يجد بعضهم في نشر رسائل «غسّان» أي جرأة صادرة عن «غادة» فالجرأة أن تنشر رسائلها له [حسناء بكداش/ الاتحاد] ويرى الكاتب «الطاهر أمين» من تونس... أن العلاقة بين غسان وغادة، كانت في مستوى الكلمة، إذ لا وجود حقيقياً لغادة في الرسائل بل كانت رمزاً، وهذه عقدة المبدعين الذين يحلّون المرأة محلّ المطلق، فقد أعطاها «غسّان» بُعداً صوفياً سريالياً، ولذا يجب أن يُقرأ الكتاب قراءة ذكية، لأن النصوص فيها لها إمكانية التأويل.

ونلاحظ أن نتيجة هذا الجدل هو النفاذ إلى تقويم رسائل «غسّان» فنياً وسياسياً واجتماعياً، وقد تعارضت الآراء في تقويمها بين معجب ومحبط... ولا بد من عرض تلخيص لتلك الرسائل، فإن عدداً ممن علّقوا عليها حين صدورها لم يقرؤوها، واكتفوا بقراءة ما كُتب حولها.

إن قراءة رسائل «غسّان» إلى «غادة» قراءة متأنية وتحليلها يفتح آفاقاً للتقويم قد تُعيد النظر في كل ما كُتب حولها، وقراءتها

تعني ربطها بالعلاقة التي جمعت بين الأديب والأديبة، والظروف التي أفرزتها، والهدف منها...

إن عدد الرسائل المنشورة لا يتجاوز خمس عشرة رسالة، تاريخ أولاها نهاية عام ١٩٦٦م، وآخرها نهاية عام ١٩٦٨م. فالحيّز الزمني الذي احتلته هذه الرسائل لا يتجاوز السنتين، بل إن تواترها المتلاحق في بداية العلاقة يُشهر بعنف التجربة التي مرّ بها «غسان» كما يشهد تاريخ كتابة الرسائل.

*　*　*

في الرسالة الأولى غير المؤرخة، والتي تقدّر «غادة» أنها أول رسالة إليها، يشير «غسّان» إلى أسبوعين قضياهما معاً في «بيروت» ولا يمكن للكتابة أن تعبر عن حقيقتهما، فهي مقتصرة على نقل حياة تُعاش وتحسّ وتنزف، ويبدو أن علاقة الحب قد توطّدت بينهما في هذه الفترة التي أسفرت عن حب بدا كالقدر عند الكاتب، وهو حريص على أن يظلّ حبه نقياً لا تفسده الأيام، غير أنه حب يؤلمه في الصميم، فقد جاء بعد زواجه امرأة أخرى، فبدا مجهضاً لا أمل فيه. وأراد له القدر أن يكون مثل «سيزيف» يدحرج صخرة عذابه إلى الأبد، فليس غريباً أن يبكي بحرقة، وهو الرجل الذي لم يبكه الجوع أو الجلد، ويعلمها أن حبّه لها يستحق أن يعيش الإنسان له، فهو أشبه بالجزيرة التي

لا يستطيع المنفي في موج المحيط الشاسع أن يمرّ بها.... ويؤكد لها أن قصة حبهما لا تُكتب، زمنها قصير لا يتجاوز شهراً، لكنه عاصف كالإعصار والمطر والنار، وهو معتزّ بهذه العلاقة إذ بدت غادة درعه في وجه الناس وفي وجه ضعفه، ويدرك أنه لن يستطيع الاحتفاظ بها إلى الأبد، وهذا ما يعذبه، ولا يريد منها شيئاً... كما لا يريد أن يفقدها، فقد بنيا معاً أشياء لا يمكن أن تغيّبها المسافات، أما إذا رغبت في أن يتوارى من حياتها فهو على استعداد للرحيل، لكن حبّها سيظل معه.

* * *

وفي الرسالة الثانية «من القاهرة» يخبرها أنه مرهق، وأن صورتها أمامه تبعث الذكريات، فهو يفتقر إليها سواء كانت جحيمه أم سماءه أم بحره، وهو يتذكر موقف الوداع، يبعثه في نفسه نتف من الصوف الأحمر علق في بزته من كنزتها..!! ويعترف أنه لم يعرف إنساناً مثلها، ولذلك تمثل شيئاً نادراً في حياته... (بدأت معك ويبدو لي أنني سأنتهي معك)، ويشجعها على الكتابة لمجلة «المصور» المصرية، ويُعلمها أنه وزّع نسخاً من كتابها «ليل الغرباء» وتحدث عنها لمعارفه.

* * *

وفي الرسالة الثالثة يبدي «غسان» تعطشه للدفء الإنساني فيُعلمها أنه فوجئ بأن الناس يحبونه أكثر مما كان يتوقع، حتى

إن الباعة يمنحونه ما يريد بالمجّان، ومقابل هذا الودّ، فإنه لا يحمل لأبناء فلسطين إلا الكلمة مع غياب السلاح. الكلمة التي تنحدر لغياب الرجال الحقيقيين، وهذا ما يشعره بغربة هي أقرب إلى الموت، ويعود ليؤكد لها مكانتها في قلبه فطيفها لا يبرح مخيلته «إنني أحبك أيتها الشقية، كما لم أعرف الحب في حياتي، ولا أذكر في حياتي سعادة توازي تلك التي غسلتني من غبار ثلاثين سنة وصدئها.. ليلة تركت بيروت إلى هنا» ويلح على أن يراها باستمرار، فهي تعني له الكثير، وأن العالم يقف ضدهما، فلماذا لا يواجهانه قبل أن يُسحقا..؟؟ لن يهرب، فقد أذلّه الهروب من قبل بما يكفي، وسيكافح كي لا يفقدها، ويستشهد بجملة وردت في زاوية من أوراق خاصة كان يكتبها.. فيقول لها: «إنني لا أستطيع أن أكرهك، فأنا لذلك أطلب حبّك...». إنه بغيابها في لندن فَقَدَ أثمن ما لديه.

* * *

وفي الرسالة الرابعة - من بيروت - يبدي فرحه لوصول رسالة منها بعد انقطاع استمر أسبوعين، ويذكرها بساعة الفراق في المطار. كانت سعيدة، أما هو فإنه فَقَدَ كل شيء، ويعاتبها على قسوتها في الرسائل، إذ تخلو من كلمة حارة دافئة.

ويرتفع النفس الأدبي عند «غسان» فيبدو أن بُعد الحبيبة قد فتّق لواعج قلبه، فيخاطبها «يا حياتي»، ثم يعاتبها على موقفها

منه، فهي تكتب له أن حبّهما رحلة صيد انتهت، مع أنها في نظره أكثر من هذا. إنه ينتظرها كما ينتظر وطناً ضائعاً، أما هي فلا تريد لهذه العلاقة أن تستمر خوفاً من نفسها ومن الناس، وإشفاقاً على مستقبله «فهو متزوج ولا تريد أن تحطم حياته العائلية». ويشبهها بالنحلة الملونة في يد طفل، أصابعه تريدها وتخشاها لكنها تنبض مع هذه الأصابع، ويُبرز يأسه ويفكر في أن يقذف نفسه في الهواء، وأحياناً يتجلد، ويخطر له أن يقتحم مسكنها ويخطفها إلى الأبد بين ذراعيه «حين يتكونا من جديد عظماً ولحماً» ثم يلومها على تجلدها أمام مأساته، فهو يحترق ويتعذّب، ويتحول في نظرها إلى إنسان تافه، ويقترح عليها أن تكون علاقتهما أكثر بساطة ويسراً، فهي عنده أروع من حزنه وغضبه وهجره... يقول: «أومن بك كما يؤمن الأصيل بالوطن، والتقّي بالله، والصوفي بالغيب، لا كما يؤمن الرجل بالمرأة!»... ويذكر لها ما يتردد بين الناس في«بيروت» عن علاقتهما، فهم يرددون أنها من طرف واحد. وأنه محب خائب، وأنه سيتعب ذات يوم..!! وأنه كان كالعلق في إلحاحه عليها، ويسخرون من حبه الجنوني، لكنه مع ذلك سيظل يحبها، ثم يستعطفها ويرجو أن تعود إلى «بيروت».

*   *   *

وفي رسالة لاحقة يسألها عما تفعل في غيابها بعيدة عنه، ويهمس في أذنها كلمات قالها على صفحات الجريدة: «سأترك شعري مبتلاً حتى أجففه على شفتيك!» فهو يذوب من الانتظار كقنديل ملح، ويمعن في مغازلتها.. فيقول: «أحسّ نحوك هذه الأيام بشهوة لا مثيل لها، إنني أتقد مثل كهف من الكبريت وأمام عيني تتساقط النساء كأن أعناقهن بترت بحاجبيك...؟».

وينقل إليها بعض أخبار «الشلة» في بيروت ويعلمها متندراً بخبر إعلان مدسوس على الصحف ورد فيه نبأ زواجهما وما تبعه من تشويش ويعلّق قائلاً: «ليست غلطة المحرر، بل غلط السنوات الخمس من الترقب والانتظار، وازدياد عدد الذين يقولون سيتعب يوماً ما...».

* * *

وفي رسالة موجهة إليها من فندق «كليوباترا» بمصر... يستهلها «غسّان» بشتيمة شعبية يوجهها إلى «غادة» لتقاعسها عن الكتابة، ويهددها بأن ذلك التقاعس سيزيده تعلقاً بها، فغيابها يكبر أثره في صدره ويوسع مرضه بالربو، فيستعصي على العلاج ويسألها: هل عوضتِ غسانك التعيس..؛ ... هل وفقت في استبدال سذاجته وحِدّته وضيق أفقه وسخافاته واستقامته الطفلة؟ أتعتقدين أنك نجحت في طمري تحت أوراق «سقوطهم

إلى القمة» مستعيراً عنوان رواية لغادة كانت تكتبها، وينعى عليها ترددها وذوبان العمر بالحرمان، فإذا كان حراماً عليه يداها.. فهل حروفها حرام على عينيه؟؟

يقول لها: «**أنت أيتها المرأة قبل ألف مرة من أن تكوني أديبة وكاتبة، أنت الأديبة والكاتبة والذكية التي تجعل منك ألف امرأة!!**».

ويرسل إليها هدية من علب السجائر... ويعلق: «إذا وصلتك فلا تنفخي مع دخانها اعتزازي بك وبكل شيء لك ومنك وعنك...».

* * *

وفي رسالة كتبها إليها من القاهرة.. نلاحظ المقطع الذي كتبه فيها «غسّان» مشبهاً حالته معها بحالة الملك الفارس في لعبة الشطرنج، يريد أن يربح المعركة وحيداً على رقعة الشطرنج ومعذباً، بعيداً عن جواده وقلعته، ومع ذلك فهو يقاتل بكل دمائه النبيلة ليتجنب التلطخ بوحل الهزيمة..!! التراجع موت، وحياته ملتصقة على ذؤابة رمحه، ويدرك أنه إن فُقد النصر خسر كل شيء يعتز به... يقول لها: أريدك بمقدار ما ترفضين ذلك، وأنت ترفضين ذلك بمقدار ما تريدين الاحتفاظ بنا معاً، أنت وأنا نريد أن نظل معاً بمقدار ما يضعنا ذلك في اختصام دموي مع العالم...!»

ويشبه نفسه بالجريح في الميدان، يبحث في جراحه عن حطام الرصاص ويخشى أن ينزع الشظايا كي لا ينبثق النزف، فالشظية قد تكون صمام أمان من نهاية قادمة... ويضيف:

«ليس ثمة إلا أن أنتظرك في غيابك وفي حضورك... وتحت تطاير الكلمات من شفاهنا وبين التصاقهما، وثمة حقول من طحلب غير مرئي اسمه الانتظار تنمو على راحتي يدينا حين تمطر فوقهما المصافحة..».

ويلمّح إلى علاقتهما الحميمة التي استمرت تسعة شهور، ويلتمس منها أن تتمسك إلى الأبد بدرعها أكثر مما يستطيع أي رداء مبتكر و«قصير» أن يفعل، فلتقتحم العالم بمنقار صقر دون أن تحتمي بحصان طروادة..!! وليس لها إلا أن تطرح ترددها الأنثوي فتكسب عظمة جمالها الصاعق الأخاذ المفعم بالكبرياء. وأنها إذا نسيت يوماً اسمه ولون عينيه، فسيكون ذلك موازياً لفقدان وطن...!! وسيظل يناضل لاسترجاعها لأنها حقه وماضيه ومستقبله الوحيد..!!

وتكتب له أن أروع ما في علاقتهما أنها لم تكن، فيرفض ذلك ويعدّ سفرها تهرباً، ويحاول إقناعها أنهما ما داما استسلما للعلاقة بإصرار إنسانين وتبادلا خطأ الجبن فلا مجال للنكوص. لم يكن يريد أن يقوّض أسرة بناها ولم تسئ له، أما هي فقد

كانت خائفة على مصيرها في حين كان خائفاً على مصير غيره، فبدت علاقتهما بين التواصل المؤلم والبتر، وهو أشد قسوة من الحسم بالهجر أو الاستسلام.

*   *   *

وفي رسالة يشبّه «غسان» نفسه بأحد أبطال قصصها «حازم» لكنه أكثر شجاعة منه في وجه العدو وأقل منه شجاعة في وجه الحب، وقد بدا في هذه الرسالة مضطرباً لا يستطيع أن يسيطر على عواطفه، وقد سدّ حبها أمامه السبيل إلى الكتابة والإبداع، فهو - كما يقول - مفلس في الحب والإبداع والمال، وعلى الرغم من ذلك كله مازال يرعاها، ويتحسّر أنه تركها تغادر، فأمست الكلمات عبثاً، في حين أن وقع يدها على جبينه كان أبداً ولادة لشيء رائع متوهج.

ومما يلفت النظر رسالته لها تحت استعارة غير طبيعية، فقد وجهها إلى أخته «فائزة» ولم يرسلها بالبريد، بل سلّمها إلى «غادة» في ساعة غضب وقال: إنها لكِ.

تُرى.. ما المسوّغ ليكتبها باسم أخته إذا كان سيسلمها إلى غادة باليد؟؟... وإذا كان حريصاً على تمويه العلاقة بينهما... فلماذا يكتب عنها في زاوية «أوراق خاصة» ويجاهر بها؟؟

من هنا، يُمكن أن ننفذ إلى حقيقة تلك الرسائل... وأعتقد أن الكاتبين «غسّان» و «غادة» اصطنعاها لتكون مادة أدبية تخلّد حبهما الرمزي، ولا أدري أكان غسان يكتب قاصداً تلك الرموز في هذه اللعبة الأدبية، أم أنه عبّر عنها بعفوية تشي بمقاصده اللا شعورية..؟

الدلائل كلها تشير إلى أن «غسّان كنفاني» كتب أكثر هذه الرسائل مابين عامي (١٩٦٧ - ١٩٦٨) أي في مرحلة النكسة التي كان لها انعكاس على حياته ورسالته، فقد صدمه ضياع الوطن، وخاب أمله في كل شيء في الحياة، لكنه كان يرفض الهزيمة، وأعتقد أن ما كتبه للأديبة غادة يتجاوز علاقة الحب بين رجل وامرأة، فغادة في هذه الرسائل وفي رؤيته ليست امرأة من لحم ودم، إنها رمز للوطن المصدوم مثله والضائع، ورأى في محنتها بعد موت والدها محنة الوطن نفسه، فقد خرجت من دمشق مقهورة تحت وطأة الضغط الاجتماعي، منفية رغماً عنها، فمدّ لها يد العون في بيروت، وكان شديد الإعجاب بذكائها وتطلعاتها ونزعتها إلى الرفض والتغيير، وكان وقع النكسة مؤلماً عليه وعليها، فكانت الرسائل رمزاً للوطن المهزوم.

كانت حياتها كوطنه سلسلة من الهرب إلى المنافي وهرباً من الواقع، وكان يريد لها أن تظل قربه لأنها تمثل في نظره المضحية، شأن وطنه الذي استُلب وانتهك، وكان يلتمس من

بقائها قربه أن تنحاز إلى الثورة على الواقع المهين لا الهرب من المواجهة.

صحيح أن ضياعه بعد النكسة أفقده الأمل بالأمة التي كثيراً ما رمز إليها «غسّان» بالمرأة، لكنه ظل يتمسك بالأمل ويرفض الهزيمة والاستسلام، والمرأة هي الأم والأخت والملجأ، مثلما الوطن هو الملجأ، فهي في نظره تجسيد لهذا الوطن ولهذه الأمة التي خذلت أحلامه، إنه يحبها كما يحب الوطن فهي تمثل في نظره معنى وجوده، لأنها مثله مبدعة وربة إلهام، وهو حين يطلب منها أن تتخذ قراراً حاسماً بشأن علاقتهما كان يرمز إلى علاقته بالوطن والانتماء إلى الأمة، فهو يحبها، ويريد منها أن تدعم رؤيته الثورية، لكن الوطن استسلم في النهاية، ومورست عليه عملية ولادة قيصرية، أشار إليها في واقعة إنجاب أخته الطفل في رسالته الموجهة إليها، والطبيب الجراح كان أجنبياً، ويشير «غسان» في أكثر من موضع إلى أنه استبدل بالمرأة الوطن، وقد آثرت الأمة (الممثلة بالأم أو الأخت) التسليم للأمر الواقع أي للقدر، فرفضت «غادة» أن تحطّم كيان «غسّان» الأسري، وداست قلبها مع أنها تحبه، فالوطن معه، وهو ينبض مع حركات أصابعه، لكنه في آخر المطاف لا تذهب معه لممارسة العمل الثوري إلى أبعد مداه. والوطن يستسلم للهزيمة مثلما استسلمت غادة لقدرها بالهرب، ولم تتخذ قراراً ثورياً

حاسماً، لأن رسالة الأمومة تدفعها إلى التطلع إلى مستقبلها ومستقبل غسان المناضل، فهي تُشفق على مصير الأمة الممثلة بغسان العائلي.

أما هو فيرفض مغادرة الساحة، ويظل يقاتل على أرض هشّة ولو كلّفه ذلك زلزلة ذلك الكيان الوطني الذي يحاول أن يداري مستقبله في مواجهة التحديات وتكالب الأعداء. والوطن المتمثل بغادة ينكر أن تكون هناك علاقة حب تربط بين المناضل وبينه حين اتخاذ قرار حاسم تترتب عليه نتائج خطيرة، إنه منطق المهزومين - كما يقول - أما الثوريون فتزيدهم المحن مضاءً مهما كانت التضحيات.

لقد اختار «غسّان» الوطن منفاه مثلما اختارت غادة الهرب، لكن قلبه سيظل ينبض مع العمل الثوري، مثلما ظل قلب غادة ينبض مع غسان، وقلمها المبدع يشعل الحرائق أينما حلّ، لكن لا في ساحة المواجهة المباشرة التي يطمح غسان أن تكون فيها قربه، بل في ساحة أوسع وانتماء إنساني وقومي أشمل من المواجهة الثورية المباشرة.

* * *

إن هذه الرسائل في اعتقادي هي أبعد ما تكون عن المباشرة، خاصة لدى «غسّان كنفاني» لأنني لم أطلع على رسائل «غادة

السمان». ويجب أن تُقرأ قراءة رمزية، هي رسائل حب في ظاهرها، لكنها أبعد من أن تكون موجهة إلى «غادة» الإنسانة. فهي فيها رمز للأنثى وللأم والأمة، لذلك كان وجودها إلى جانبه في محنته بعد النكسة هو وجود للوطن والأمة، منها يستمد فعل الكتابة ومسوّغاتها، وغيابها، يعني إفراغ الكلمات من معانيها، وغيابها يعني التفرد والضياع وفقدان الأمل.

لقد اختارت «غادة» المنفى وتخلّت عنه، مثلما وقع الوطن في منفى الاحتلال بعد نكسة حزيران... وإن دور المرأة في الرسائل كمعشوقة وأم وأخت يتجاوز علاقة الحب بين ذكر وأنثى، فالمرأة رمز للخصب والعطاء، وابتعادها عنه وتغريبها يعني ذلك الشرخ الكبير بين آماله التي يبنيها عليها كرمز للوطن والجماهير... هو يريد منها أن تمارس العمل الثوري، وهي بحكم أنها رمز للأمومة والخصب تفكر بمستقبل أكثر أمناً له ولها.

وإن ما ورد في رسالته عن ولادة أخته «فايزة» ولادة قيصرية بإشراف طبيب أجنبي، ويفضل موت الطفل على موت أخته.. وهي رمز للأمة والأمومة حيث ملجؤه الوحيد في الحياة.. فهو يفضل بقاءها على أن تموت.. إن العملية القيصرية رمز للتدخل الأجنبي في مسيرة القضية الفلسطينية...

يقول «غسّان» : (أقف الآن على هذا المرتفع في حياتي، وأنظر إليها قاحلة مليئة بالشوك والتوحد، وتمتد في برودة الماضي والمستقبل بلا نهاية، ويبدو أنني أحاول أن أستبدل بالوطن المرأة، لكن كل ما حدث لم يكن إلا اقتياداً أعمى إلى هذه النهاية، لقد حاولت منذ البدء أن أستبدل بالوطن العمل، ثم العائلة، ثم الكلمة، ثم العنف، ثم المرأة، وكان دائماً يعوزني الانتساب الحقيقي...

كنت أريد أرضاً ثابتة أقف فوقها، ونحن نستطيع أن نخدع كل شيء ما عدا أقدامنا، إننا لا نستطيع أن نقنعها بالوقوف على رقائق جليد هشّة معلقة بالهواء.).

غادة السمان في رؤيته تجسيد للوطن... يقول: (لقد عذبها الكثيرون في حياتها وهي وحيدة، ولا تستطيع أن تردم الهوة بينها وبين العالم إلا بالرجال، ألم أردمها أنا بطفلين...

إنها تحبني إلى حدّ لا تريد فيه أن تقوّض حياتي، لكن من الذي قال لها إن هروبها لن يفعل...؟؟

من أجلها تحديت العالم والناس ونفسي...كتبت لها مالم أكتبه في حياتي).

* * *

أليس ذلك الكلام يعني بوضوح أن المرأة أصبحت لديه رمزاً للوطن؟؟

أعتقد أن فهمنا للرسائل لا ينجلي إلا إذا حللنا رموزها، وقرأناها قراءة واعية، فهي من أروع ما سطرته يراع أديب عاكسه القدر، وتنكّرت له الدنيا، وضاع حلمه وحيداً كالملك في لعبة الشطرنج الذي تفرّق عنه جنوده.

أديب واحد من الذين علّقوا على الرسائل أدرك بثاقب نظره أن الكتاب حافل بالرموز، وأنه يجب أن يُقرأ قراءة خاصة، أما أولئك الذين استغرقوا في تحليله على أنه رسائل غرام... فأيدوا أم رفضوا.. وأعتقد أنهم استسلموا بيسر لوجهه المباشر الظاهري وابتعدوا عما في الأعماق.

تُرى هل كانت «غادة السمان» تدرك ما وراء السطور..؟

وهي الكاتبة الذكية المبدعة التي تحيل كل شيء إلى رواية...

أليس ما نقرأ بقلم «غسّان كنفاني» رواية بطلها هو نفسه...

والبطل الآخر هو الوطن ممثلاً بالمرأة رمز العطاء؟؟

أجل... كانت «غادة» تدرك جيداً ذلك حين نشرت الرسائل... وقد رأت في نشرها إغناء لرسالة غسان النضالية، وتجاوزاً لبعدها الظاهري من خلال أنها تجسد علاقة عابرة بينهما يمكن أن يجد فيها الناس فرصة للانتقاد، إن هذه الرسائل في اعتقادي من أقوى ما كتبه «غسّان كنفاني» في التعبير عن رسالته الثورية إذا تمّ فهمها على الوجه الصحيح.

*   *   *

رسائل الشاعرة «نازك الملائكة»

«الملامح النقدية والإنسانية فيها»

(١٩٢٣ - ٢٠٠٧)

غيّب الموت في القاهرة الشاعرة والناقدة البارزة «نازك الملائكة» عن عمر يناهز أربعة وثمانين عاماً تحفل بالعطاء الأدبي المبدع، وفي قلبها غصتان: غصة انهيار وطنها «العراق» الذي كتب لها القدر أن تشهد مأساته في آخر حياتها، وغصة ما آل إليه الشعر الحر الحديث الذي أرست قواعده وأسسه في كتابها (قضايا الشعر المعاصر) فأنكرت ما وصل إليه من تدهور من المتطفلين عليه.

تتحدث «نازك» عن طفولتها وتعليمها وموهبتها الشعرية التي برزت مبكراً في مذكراتها. فتؤكد أنها ولدت في عام ١٩٢٣م ببغداد، وهي كبرى أخواتها وإخوتها، درست في المدارس الرسمية، وتخرجت من الثانوية عام ١٩٣٩م. وقد ظهر ميلها المبكر للغة العربية والإنكليزية والموسيقى. وكان

والدها مدرساً للغة العربية، ووالدتها شاعرة تنظم الشعر بالأسلوب التقليدي، وقد شجعاها على الكتابة، ووفرا لها الأحوال المناسبة منذ السابعة، فنظمت أولى قصائدها بالعامية، وفي العاشرة نظمت أولى قصائدها باللغة الفصيحة، وكانت منذ طفولتها ، أميل إلى الرصانة والجد ورهافة الحس تجنح إلى التمرد والمعارضة.

اختار لها والدها اسم «نازك» تيمناً بالمناضلة السورية «نازك العابد»، وتوسماً بأنها ستنال شهرة مماثلة في مستقبلها. **أما لقب «الملائكة» فقد أطلقه جيران أسرتها على أهل بيتها بعدما لاحظوا سلوكهم الهادئ كالملائكة.**

درست «نازك» في دار المعلمين العليا ببغداد، وبعد تخرجها عُينت مدرّسة في كلية التربية لمادة النقد الأدبي. وغادرت العراق إلى بيروت إثر ثورة «عبد الكريم قاسم» وتعرفت بزميلها الدكتور «عبد الهادي محبوبة» وتزوجا عام ١٩٦١م. وعادا إلى العراق لتأسيس جامعة في «البصرة» وانتدبت لإلقاء محاضرات في الشعر في معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة، وفي عام ١٩٨٥ م أصيبت الشاعرة بمرض عضال، واستقرت مع زوجها وولدها الوحيد في القاهرة حتى وفاتها عام ٢٠٠٧م.

* * *

على الرغم من الجدل الذي دار حول ريادتها الشعر العربي الحديث أو الحر كما سمته فقد عدّت رائدة له إلى جانب شعراء آخرين مثل: بدر شاكر السياب وعبد المعطي حجازي وخليل شيبوب وسواهم. واعترفت بأنها حين ادعت لنفسها هذه الريادة لم تكن قد اطلعت على المحاولات الشعرية لمن سبقوها، لكنها أول من حدّد أسسه في نظرية متكاملة، وأول من جمع بين النظرية والتطبيق في هذه المحاولة فأثارت ردود فعل عنيفة، وأحدثت الانقسام في جسد الشعر العربي بعد وحدته الموروثة.

التزمت «نازك» التفعيلة أساساً للشعر الحديث، ولكنها لم تخرج عن أوزان الشعر العربي، لكن المحدثين من الشعراء خرجوا عن القيود التي وضعتها. فكتبت تقول: [إن الشعر الحر شعر موزون جاء على أوزان العرب تماماً في الأصل، ولست مسؤولة عما صار إليه الشعر الحرّ اليوم، فأنا أقرأ منه نماذج في الصحف يضطرب وزنها بنشر ويدور، سامح الله هؤلاء الشعراء..!].

كانت «نازك الملائكة» شاعرة وناقدة وناثرة إبداعية، لكن الدارسين اهتموا بشعرها ونقدها، ولمسوا أن نقدها جمع بين النقد الأكاديمي والنقد الإبداعي الذاتي الذي يعكس تجربتها الشعرية، ويرى أحد النقاد: أن شعرها يترجم صوراً حقيقية عن الذات والواقع، ويترجم ما يعتمل في داخلها وأعماقها من ذات

منطوية مختزنة من طفولتها المبكرة، حيث الوحشة والاغتراب اللذان تحس بهما الذات العراقية، أما التمرد فقد كان طبيعة فيها منذ نشأتها، كانت منزوية وعنيدة، متمسكة بآرائها قد يضايق معلماتها، مع قدرتها على الكتمان والصمت][١].

لكن هذه السمات والمؤثرات التي ارتسمت على كيانها النفسي لم تسلمها إلى القنوط بل فجّرت فيها، إضافة إلى تنشئتها الأسرية والروح الوطنية والثورة على الواقع بأشعار شاءت لها أن تتحرر من القيود، وتعبر عن أعماقها بلا عوائق.

وقد استطاعت «نازك» خلال رسائلها أن تعزز آراءها النقدية والإنسانية، ونلاحظ أنها لم تكتب رسائلها بنَفَس إبداعي، بل كانت ترى فيها وسيلة تواصل وظيفي، لا يستحق النشر، فتكتب في إحدى الرسائل إلى الأديب الأردني «عيسى الناعوري» وتقول: [إنها آراء عابرة وغير منسقة، إنها كلام أو جزء من حوار بيني وبينك، وليست مقالاً يستأهل النشر، وإذا أردتَ أن تحتفظ برسالتي فافعل، فقد يتاح لك نشرها بعد عشرين سنة، إذا كان الجمهور آنذاك سيهتم بشيء مثلها، إن انعدام الزمن وحده الذي يجعل الرسائل الشخصية قيِّمة].

---

(١) كتاب «نسوة ورجال» للدكتور : سيار الجميل.

على الرغم من أن رسائلها لا تدخل دائرة الأدب الإبداعي، فإنها تلقي أضواء على حياتها، وتغني بما ورد فيها من آراء نقدية وإنسانية ملامح فكرها النقدي ورؤيتها الإنسانية.

وأبرز ما تتسم به رسائلها البساطة في التعبير والوضوح والتحفظ بما تمليه المراسلة الرسمية بين الأدباء والكتّاب، فلا تفتح «نازك» قلبها على مصراعيه، وإنما تتحدث عن مشاعرها العامة مما يتعلق بآلامها خاصة بعد وفاة والدتها وما أحدثته من أثر في نفسها، وحرصها على نشر بعض ما نظمته وفاء لها.

تكتب للناعوري: [لا أدري كيف أشكر لك أيها الأخ عنايتك النبيلة بمواساتنا في الفاجعة المحزنة التي ألمّت بنا، وغيّرت وجه حياتنا، وتلاعبت بأحلامنا، فقد كان لرسالة التعزية التي بعثتَ بها إليّ وقع جميل على أحزاننا الحارة. فقرأنا وشكرنا حظنا الذي يهيئ لنا مثل صداقتك في مثل هذه الظروف].

وتضيف مشيرة إلى وصول نسخة من قصيدة نُشرت لأمها في زمن وفاتها: كانت قصيدة والدتي التي نشرت في مجلة (القلم الجديد) آخر ما نشر لها، وقد حملتُ العدد معي إلى «لندن» آملة أن تتحسن صحة والدتي، فأطلعها عليها، لكن الموت لم يمهلها فأغمضتْ عينيها قبل أن أريها إياه... وها أنا قد عدت به وضممته إلى حزمة الذكريات الأخرى العزيزة التي خلفتها أمي بعد وفاتها المبكرة التي لم يسبقها تمهيد ولا إنذار].

وتعكس رسائلها بوضوح اهتماماتها القومية والاجتماعية، فتكتب رسالة مؤرخة في ١٩٥٣/٢/٥ [بغداد تمر بفترة انفعال شديد نادر المثيل بسبب تتويج الملك العزيز، والحق أنني لم أشهد طوال حياتي شعباً يحب ملكاً إلى هذا الحدّ، وقد كان منظر الجماهير الهاتفة مثيراً في بغداد يوم أقسم الملك اليمين، إنه شيء تقصر اللغة عن وصفه، وقد تضاءلت إلى جانبه مظاهر الزينة التي كلّفت الحكومة ثلاثة ملايين دينار، فما قيمة المهرجانات إلى جانب هذا النهر الجارف من حب جماهير الشعب].

لكنها تلتفت إلى الواقع البائس للجماهير، فتضيف:[لقد وقفت أراقب الكتل المندفعة من الناس في افتتان لا حدّ له، إنهم قوة هائلة لهؤلاء الجماهير، ولو ألبسناهم أحذية وكسونا أجسامهم التي خشنها البرد والحر وثقفناهم. لكن دعنا من الأحلام المؤلمة التي لا فائدة منها، ولنعد إلى الحديث عن الأدب والشعر].

وفي رسالتها هذه نقد خفيٌّ للحكم الملكي في العراق، ولم تكن أكثر رضا عن حكم عبد الكريم قاسم، الذي أيدت ثورته في بواكيرها ثم عارضته بعد أن ارتمى في أحضان الشعوبية - كما تقول - واضطرت إلى مغادرة وطنها في مرحلة حكمه.

وفي رسائلها اهتمام بالغ بالقضية الفلسطينية تعزز بموقف والدتها التي خصصت أكثر شعرها لخدمة فلسطين...

تكتب «نازك» في رسالة أخرى.. فتقول:[وما يهمك أن تعلم ولاشك أن أكثر شعرها (والدتها) في فلسطين، وأن الحيرة تتملكني وأنا أقلب مجموعاتها الشعرية المكدسة أمامي، فهي كانت شاعرة فلسطين بحق].

وفي النقد تبرز في رسائل «نازك» بعض آرائها النقدية التي تعزز مسيرتها الأدبية.

تكتب في إحدى رسائلها:[يوشك النقد المعاصر أن يكون محض اتجاهات ذاتية، ألا ترى أن المجلة التي يديرها ناقد أدبي تستطيع أن توجه النقد توجيهاً فعّالاً].

وتشير إلى أن الشعراء الروّاد لم يضعوا للشعر الحرّ مبادئ نظرية تضبط أصوله، فهي في دعوتها احتذت طبيعة الشعر الإنكليزي وخصائصه، إذ يعتمد المقطعية في الوزن، شأن اعتماد الشعر الحر على التفعيلة الشعرية العروضية التي تتألف من مقاطع.

ثمة إرهاصات مشتركة كانت تدفع بالشعراء قبل «نازك» كما دفعتها إلى الثورة على البيت الشعري التقليدي ذي الشطرين والقافية الواحدة بدافع التحرر من صرامة شروط هذا الشكل الشعري الذي يقيد حرية الشاعر، ويصرفه عن حرية التعبير بحثاً عن البنى الملائمة للوزن.

تحدثنا الشاعرة «نازك» عن تجربتها حين نظمت أول قصيدة لها في الشعر الحر بعنوان (الكوليرا).. فتقول: [أحسست بأني أحتاج إلى أسلوب آخر، أعبّر به عن إحساسي... جلست حزينة لا أدري كيف أستطيع التعبير عن مأساة الكوليرا التي تلتهم المئات من الناس في «مصر»، وما إن انتهيت من القصيدة التي أثارت احتجاج والدي وأمي وأختي. أما أنا فقد انطلقت في نظم الشعر الحر... ولم أنبذ شعر الشطرين كما فعل كثير من الشعراء المندفعين الذين أحبوا الشعر الحر].

لاشك أن «نازك» راسلت عدداً من الأدباء ممن ارتبطت بهم برابطة الصداقة والقربى. وننتظر أن يتم الكشف عن الرسائل المجهولة التي تعزز آراء الشاعرة النقدية والأدبية وتوجهاتها الإنسانية وتطلعاتها الوطنية؛ فهي تعد وثائق مهمة في تعرّف مراحل مسيرتها الحياتية والأدبية.

*   *   *

فن الرسالة في أدب
جبران خليل جبران

تُعد الرسائل المتبادلة بين الأديب «جبران خليل جبران» والأديبة «مي زيادة» نصوصاً إبداعية في فن الرسالة الرومانسية، واتجاهاً جديداً في الأدب العربي الذي عرف الرسالة وأفرز لها تراثاً أصيلاً لم يدرس بعد.

و«جبران خليل جبران» أحد أبرز مؤسسي المدرسة المهجرية الإبداعية ومن روّاد التجديد في الأدب، حرص على أن يهب التعبير الأدبي ثوباً من المعاصرة يبرز تجديده في مقالاته التي كان ينشرها.

وقد سعى كل من ميخائيل نعيمة وأمين الريحاني وجبران إلى تجديد الأدب العربي وتخليصه من الصنعة، ويبدو أن هؤلاء المجددين تأثروا بأفكار الأديب الأمريكي «إمرسن» المتسامية والفردية، ونادوا بالرجوع إلى الفطرة والحس العفوي والخيال، وهي عناصر نجدها ماثلة أيضاً في الفكر الشرقي الصوفي الذي

دعا إلى وحدة الوجود أو الطبيعة. فالعالم في نظرهم كالروح الإلهية الشاملة التي خلقته. له كليته التي نلحظها في الطبيعة ونظامها المثالي، وفي الإنسان المتناسق خلقه مع الطبيعة والنقي في جوهره مثلها، ولا يمكن فهم الإنسان والطبيعة إلا بالتصوف، عندما يشعر الإنسان بوحدة الوجود فيمتزج بالحب الإلهي من خلال اندماجه بالوجود وتوحده به.

لقد بدا تأثير الكتّاب أمثال «وايتمان - وبليك» واضحاً في آثار «جبران» من خلال ابتعاده عن الصنعة والتحرر في استعمال اللغة واعتماد أشكال فنية متحررة، وفي اتجاهه الرومانتيكي إلى الوحدة والتفرد والهرب من المجتمع إلى قلب الطبيعة وعدم الانسجام مع المجتمع، كما يتجلّى ذلك واضحاً في ديوانه «الموكب» وتعكس رسائل «جبران» إلى «مي» هذه السمات بوضوح.

لم تكن المراسلة بين الأديبين مستمرة، فقد تخللتها فترات انقطاع تتجاوز أحياناً السنتين، وكان الحب المتبادل بينهما صوفياً سامياً وعميقاً بل بدا كل منهما يبحث عن الحب في قلب الآخر، وتأتي هذه العلاقة في إطار فلسفة الوجود التي تبناها جبران فهو يقول لـــ«مي»: (الأفضل أن نبقى هنا، في هذه السكينة العذبة، هنا نستطيع أن نتشوق حتى يدنينا الشوق من قلب الله..).

ولم يكن هذا اللون من الحب غريباً عن تراثنا العربي، فهو يذكّرنا بالحب العذري الذي يقوم على الحرمان والعفة والتلذذ بالعذاب الذي يسببه التمنع والصدّ والبعاد. وحين كتب أندريه جيد قصته المشهورة «الباب الضيق» خشي ألا يتمثل العرب من ترجمتها قيم ذلك الحب العفيف الذي يدعو إليه. فردّ مترجمها طه حسين برسالة ضافية أكّد فيها أن العرب هم الذين ابتدعوا هذا اللون من الحب العفيف، وهم أقدر الناس على تمثله والأخذ به.

حب جبران ومي هو امتداد لذلك الإرث العربي الذي حصّن كل منهما من التبذل، وعزّز لديهما تلك القيم السامية التي تتخطّى حدود الحس، والزمان والمكان، لقد بدأت صلة مي بجبران من طريق الفكر والنشر، فأبدت إعجابها بمقالاته.. ومراسلاته.. كما أبدت بصراحة نقدها لبعض نتاجه كما يتضح من الرسائل، غير أن جبران استقبل نقدها بقلبه الكبير، ولم يظهر أي جفوة أو ردّة فعل قاسية تجاه ما كتبته، بل احتوى ما أبدته بسعة صدر.. فخاطبها قائلاً: (كيف لا أقبل وخزة صغيرة من يد عطرة مفعمة بالجواهر..؟ ... فأنا أقبل كل ما تقولينه لاعتقادي بأنه يجمل بنا ألاَّ نضيف فتراً واحداً إلى هذه المسافة الشاسعة بيننا، بل نحاول تقصيرها بما وضعه الله فينا من الميل إلى الجميل والشوق إلى المنبع والعطش إلى الخالد...).

ويفتح «جبران خليل جبران» في الرسالة نفسها المؤرخة في ١٢ حزيران ١٩١٩ م باباً للمكاشفة بحبه يقول لها: (ما أجمل رسائلك يا مي وما أشهاها فهي كنهر من الرحيق يتدفق في الأعالي، ويسير مترنماً في وادي أحلامي.... بل هي كقيثار أورفيوس تقرب البعيد وتبعد القريب، وتحول بارتعاشاتها السحرية الحجارة إلى شعلات متقدة والأغصان اليابسة إلى أجنحة مضطربة...).

وفي رسالة مؤرخة في ٢٥ تموز ١٩١٩م يصارحها علناً برابطة الحب التي يكنها تجاهها: (في هذا التفاهم بين روحين يا «مي» أغنية عميقة هادئة نسمعها في سكينة الليل، فتنتقل إلى ما وراء الليل، إلى ما وراء النهار، إلى ما وراء الزمن، إلى ما وراء الأبدية.. لقد حاولت في ما تقدم إبلاغك ما لا... ولن يبلغك إياه إلا ما شابهه في نفسك، فإن كنتُ أتيت سراً معروفاً لديك، كنتُ من أولئك الذين قد حبتهم الحياة، وأوقفتهم أمام العرش الأبيض).

وترى «مي زيادة» في هذه الرسالة نذيراً لعاصفة حب طالما خافت التورّط فيه، أو ترى فيها نموذجاً من رسائل حب كثيراً ما أرسل مثلها أدباء ومعجبون بذكائها وجمالها قبل جبران، بل أرعبها ما في الرسالة من تودّد صادق خشيت عواقبه، فهو حب ملك على «جبران» قلبه وخياله على الرغم مما كانت تعرف

عنه من تعلقه بعدد من النساء مثل «ماري هاسكل» التي رعته، وميشيلن معلمة الفرنسية التي أحبها. إضافة إلى نزعتها الشرقية المحافظة، وانطوائها، إذ نشأت في بيئة متدينة تعيب على الفتاة أن تُظهر مشاعرها، ولذلك نجدها في رسائل لاحقة تدوس قلبها، وتحاول أن تضع لجبران حدوداً في إظهار مشاعره نحوها. ولعلها من خلال تجاربها السابقة مع أدباء راسلوها وكاشفوها بحبهم أدركت بحسّها المرهف مايُمكن أن تسببه تلك المراسلات من مسّ بسمعتها، وهي تدرك جيداً أن مثل هذه الرسائل ستدخل التاريخ، وستكون آثاراً أدبية يقرؤها الناس، فكانت كما تقول «سلمى الحفار الكزبري» تتردد في إظهار مشاعرها وتخشى الانطلاق على سجيتها في مراسلته، وهذا مما يؤكد أن ميّاً وجبران كانا يدركان أنهما عبر هذه الرسائل يبدعان نصوصاً أدبية خالدة، ومن هنا كان حرصهما على التأنق في صوغ هذه الرسائل، وكتابتها بصياغة عربية أدبية مع أنهما يجيدان أكثر من لغة، ولو شاءا الاكتفاء بأن يظهرا مشاعرهما المتبادلة لكتباها بلغة أخرى كالإنكليزية أو الفرنسية بعيداً عن دائرة النشر والتعميم باللغة الأم.

وأعتقد أنهما أقدما بهذه الرسائل على تجربة مواهبهما الأدبية وإظهارها في هذا الفن جرياً على عادة الأدباء الكبار من أمثال: جورج صاند ومدام دي ستايل. لقد آثرت «مي» الحدّ من جموح

«جبران» في إظهار حبّه مع أنها لم تكن في أعماقها ترفض أن تسمع من كلماته أرق ما كُتب من صيغ الإطراء والتقدير والحب، فقد أحبته بحنوّ غير أنها حذرته لإفراطه بمكاشفتها على الورق. بل كفّت عن مراسلته خمس سنوات حتى وافاه منها رسالة مؤرخة في ١١ حزيران عام ١٩١٩. فتشجّع «جبران» وأرسل إليها كتاباً يحوي بعض رسومه مع دراسة نقدية لها، ودعاها في رسالة أخرى لزيارة نيويورك وحضور معرض فني سيقام فيها، ويعاتبها في رسالة لاحقة على تحفظها من إظهار مشاعره النفسية التي سمّتها «النشيد الغنائي» ويؤكد لها أنها وإن لم تستجب لدعوته في زيارة نيويورك فإنها كانت ماثلة معه بالروح، ويرجوها أن تحذف كلمة «سيدي» من معجمها في مخاطبته برسائلها، ويلتمس تليين قلبها القاسي... فيقول: (لم تكتفِ صديقتي، بل ظلت واقفة بالمرصاد، فلم أقل كلمة إلا ذيلتها بالتعنيف، ولم أحدق بشيء إلا أخفته وراء القناع، ولم أمد يداً إلا ثقبتها بمسمار...! بعد ذلك قنطت، وليس بين عناصر النفس أمرّ من القنوط... وماذا أقول عن رجل أوقفه الله بين امرأتين... امرأة تحوك من أحلامه اليقظة وامرأة تحوك من يقظته الأحلام.).

ويبدو أن «مي» لطّفت من لهجتها في رسائل لاحقة، وأظهرت له بعض عواطفها، فكتب إليها: (أما اليوم، فقد حرّك

ملاكي بركتي، ووجدت من يلقيني في الماء... أسير وفي يدي يد حريرية الملمس ولكنها قوية وذات إرادة خاصة... وبين آونة وأخرى التفت فأرى عينين مشعشعتين تداعبهما ابتسامة جارحة بحلاوتها.).

ويشجعها على إظهار المزيد من مشاعرها نحوه وقد أبدت حنوها وسألته عن صحته.. فيقول في مقطع من رسالة لاحقة: (أمن أصالة الرأي أن تحجب المرأة الممتازة قلبها ونفسها عن بصر الناس وبصيرتهم، إن الله قد بعثك إليَّ روحاً وعقلاً، ونحن بحاجة إلى أنوار روحك وإلى نار عقلك، فلمَ ياترى لا تعطينا منهما في آن واحد...).

وترسل إليه صورتها التي طلبها منها... فيعلق: (ما أجمل هذه الصورة يا «مي»، وما أحلى هذه البنية، وما أوضح دلائل الذكاء في عينيها، لماذا يا ترى لم أحصل عليها من قبل... إن في عيني جوعاً وعطشاً إلى الصور أمثال هذه، فأي متى تشبع عيناي... وأي متى ترتوي؟). إلاّ أنه يضيق باللهجة الرسمية التي بدت في رسالتها فيقول: (الله... الله يا دنيا، لقد انحدرت بنا حروب الدهر حتى صرنا أهلاً لأن ننعت بكريم الشيم الأجل الأمجد...) ويعلّق على سخرية «مي» من نزوعه الصوفي في حبه، فيقول: (قد يختلج جسدي في بعض الأحايين اختلاج أوراق الخريف، أما روحي فتبقى مستسلمة إلى أحلامها الهادئة، إن الله

يبني تلك المنازل - يريد منازل الحق بتعبير صوفي - من عناصر لا يتأثر جوهرها من هياج عناصر أجسامنا، بل تظل مغمورة بطمأنينة علوية...).

وفي رسالة مؤرخة في (٥ / تشرين الأول/ ١٩٢٣م) يعزو «جبران» سبب توتر العلاقة بينه وبين «مي» إلى عجز اللغة عن الصيغ الأدبية في الرسائل: (يجب ألاَّ نتعاتب، يجب أن نتفاهم، ولا نستطيع التفاهم إلا إذا تحدثنا ببساطة الأطفال، أنتِ وأنا نميل إلى الإنشاء بما يلازمه من المهارة والتفنن والتنميق والترتيب، والصداقة والإنشاء لا يتفقان بسهولة، القلب يا «مي» شيء بسيط ومظاهره عناصر بسيطة، أما الإنشاء فمن المركبات الاجتماعية.).

في هذا المقطع يبرز «جبران» جوهر نظريته في تجديد الأدب، يريد أن يقوم التعبير السليم على البساطة، وهو يؤثر أن يقول لمي بصدق وبساطة: (أنت تحّيين فيّ وأنا أحيا فيك). بعيداً عن التنميق الذي يفسد جوهر الأدب، ويطلب منها أن تصدق ما يكنّه لها، ولا ترى فيه ضرباً من الشطحات الضبابية أو الرصف البلاغي، ويعاتبها إذ تقابل مشاعره بضرب من الشك، ويستنكر أن يكون في أعماقها «مي» أخرى تحاكم بعقلها لا بقلبها، إنه يطلب حبها ببساطة بعد أن عجزت بلاغته البيانية عن غزو قلبها، وفي رسائل لاحقة يرسل إليها صوراً لعذارى

جميلات ألهمن كبار الفنانين من أمثال: مايكل أنجلو ودي شيفان، وترتفع نغمة المصارحة في رسائله: (**أحب صغيرتي غير أني لا أدري بعقلي لماذا أحبها، ولا أريد أن أدري بعقلي، يكفي أنني أحبها بعقلي وروحي**.).

وقد يمتزج حبها لديه بحنان المرأة الأم (تسألين عن صحتي، وعندما تسألين عنها تتحول بنيتي إلى أم كلّها حنان) وتجد «مي» نفسها أمام عاشق غارق في الحب حتى أذنيه: (أفكر فيكِ يا ماري كل يوم وكل ليلة، أفكر فيك دائماً، وفي كل فكر شيء من اللذة وشيء من الألم، والغريب أنني ما فكرت فيكِ يا مريم، إلا قلتُ في سري: تعالي واسكبي جميع همومك هنا... هنا على صدري).

ويرسل إليها حقيبة صغير تعبيراً عن حبه، فيُساء تأويل الهدية، وتنزعج «مي»، فيعتذر عن تصرّفه، وتخبره أنها قصت شعرها، فيرجو الله أن يغفر لها جريمتها لأنه يعشق شعرها، ويترنم بجماله مثلما يترنم بسحر عينيها الدعجاوين، ويعزيها عن وفاة والدها في عام ١٩٢٩م، لكنه لا يتوقع أن الموت سيلاقيه بعد سنتين، ويضع حداً لهذه العلاقة المتأججة عن بُعد دون لقاء. أما «مي» فتصدمها وفاته، وتكتب على رسم أرسله إليها: «هذه مصيبتي الكبرى» وتعتلّ أعصابها، وتنهار، فينقلها ذووها إلى مصح في لبنان، ثم تعود إلى القاهرة عليلة النفس والجسد، إلى

أن لحقت بمن أحبّته حتى الموت، وظل ذلك الحب الروحاني النبيل والخالد الذي منحنا أروع ما دبجته أقلام المحبين من رسائل.

* * *

إن رسائل «جبران خليل جبران» للكاتبة «مي زيادة» تعدّ باباً جديداً للتجديد الأدبي، بعد أن غدت الرسالة في الأدب العربي تثقلها القيود والتصنع والصنعة البيانية والاستهلالات المتكلفة، فتح فيها «جبران» الباب لتطبيق مبادئ المدرسة المهجرية في التعبير الأدبي الصادق والعفوي، والخيال المبدع، وأكّد من خلال حبه لـِ «مي» مبدأ وحدة الوجود، فالكون كله يتجلّى في جمال امرأة، وفي الجمال تتمثل عظمة الإله وهو الذي غرس فينا الحب، لنختار بقلوبنا لا بعقولنا، فكأن الحب قدر عصّي على التفسير كما يقول، و «جبران» في رسائله يدعو إلى التحرر من القيود الاجتماعية الزائفة، ويسيغ للإنسان رجلاً كان أم امرأة، أن يصرّح بمشاعره لأنها من الله وإرادته فينا. فالبشر متساوون لكن الزيف الاجتماعي أفسد طبيعتهم، وعلمهم الكبت والمراءاة، إنَّ الطبيعة في جوهرها نقية طيبة، والعقل مرفوض في تقسيمه العالم والحكم عليه.

لقد وضع «جبران» لفن الرسالة أعرافاً جديدة فحررها من العبارات التقليدية الكاذبة، وقرّبها من الصدق والبساطة وجعل

من اللغة معادلاً موضوعياً للواقع، وبدا أثر الرومانطيقية شديداً في رسائله التي كان يشفعها برسومه التي تنهل من المعين ذاته، غير أن أثر التراث العربي الأدبي في هذه الرسائل لا يجحد، ولاسيما سير المحبين العذريين وآثارهم، فقد بدا «جبران» واحداً منهم، وإن كان أكثر إدراكاً منهم لفلسفة الحب، وصلته بالصوفية ووحدة الوجود بحكم ثقافته العصرية، واطلاعه الواسع، إضافة إلى ذلك فإن رسائل «جبران» تُعد مرجعاً ممتازاً لمعرفة آرائه وميوله واتجاهاته، فقد ضمّنها فيضاً من التأملات المتعلقة بالفن والحياة والثقافة والنشاطات الأدبية، في الثلث الأول من القرن العشرين، وآراءه في بعض ما ينشر، فقد بدت فيها ألوان من رفضه لأساليب التعبير الاتباعية لدى بعض الشعراء، مثلما برز فيها تعلقه بالفن لدى الشعوب البدائية لأنه يقوم على العفوية والصدق، ولاسيما فن شعوب الشرق القديمة كالكلدانيين والفينيقيين والمصريين الذين يعتز في بعض رسائله بإبداعهم وتراثهم الحضاري.

ولم يكن اهتمامه بالفن المعاصر أقل من ذلك، فقد أبرز تعلقه بالموسيقى المعاصرة (بكل أسف أقول إنني لا أحسن الضرب على آلة من آلات الطرب، لكنني أحب الموسيقى، ولي ولع خاص بدرس قواعدها ومبانيها والتعمق بتاريخ نشأتها وارتقائها، فإن أبقتني الأيام سأكتب رسالة طويلة في الدوائر العربية

والفارسية... ولي ميل للموسيقى الغربية.. غير أني أُفضّل القطع المعروفة بالسيمفوني والسوناتا والكنتانا على الأوبرا، والسبب خلو الأوبرا من البساطة الفنية التي تناسب أخلاقي، واسمحي لي أن أغبط يدك على عودك، وعودك على يدك. وأرجوك أن تذكري اسمي مشفوعاً باستحساني كلما ضربتِ نغم النهوند على الأوتار، فهو نغم أحبه ولي رأي فيه يشابه رأي كارليل في النبي محمد r)، و«جبران» معجب بباحثة البادية - ملك حفني ناصيف - يشاركها الدعوة إلى تحرير المرأة يقول: (لم أرَ في حياتي وجهين في مرآة واحدة، وجه امرأة يخفي نصفه ظلّ الأرض، ووجه امرأة يغمره نور الشمس).

ولجبران.... آراء وتعليقات حول أعماله الأدبية في هذه الرسائل، يقول في كتابه «النبي»: (هو ولادتي الثانية... هو الفكرة الوحيدة التي تجعلني حرياً بها لوقوف أمام الشمس، لقد وضعني هذا «النبي» قبل أن أحاول وضعه، وألّفني قبل أن أفكر في تأليفه).

إضافة إلى ذلك بعض تعليقاته الثقافية وتطلعاته التي تكشف سعة اطلاعه، وعمق تجربته الأدبية وغناها، ويبدو أنه وجد في كتابات «مي» ما عزّز عشقه بعبقريتها ومواهبها الأدبية، فعشقها روحاً وجسداً، لكنّه ظلّ ذلك الحب الذي يغذيه الحرمان وتلهبه المسافات.

* * *

الرسائل الأدبية(*)

عند الكاتب جبران خليل جبران

كانت الرسائل تحتلّ - وما زالت - مكانة متميزة في نتاج الأدباء، فهي وسيلة تواصل وظيفي أو نفعي، لأنها جزء من روح الكاتب ووسيلة للتعبير الإبداعي عن رؤيته الفنية، إذ يتفاوت احتفاء الأدباء برسائلهم الخاصة، بعضهم يكتب الرسالة الوظيفية العادية مستبعداً مراسلاته في دائرة أدبه حتى لو وجهها إلى أديب مثله، تلك هي الرسائل الحياتية العابرة التي ينزع الأديب عنها غلالة الأدب ويتحرر من أغلاله فيمارس عادات أي إنسان في التواصل.

لقد احتلت الرسائل مع الرواد مكانة مرموقة إلى أن انحسرت بعد اختراع وسائل التواصل السريعة والحديثة، ومما يلفت النظر حرصُ الأديب جبران خليل جبران على أن يكتب رسائله

(*) رسائل جبران التائهة ... جمعها: رياض حنين... منشورات: مؤسسة نوفل /لبنان/ عام ١٩٨٣م. في (٢١٧) صفحة من القطع الكبير.

بقلم المبدع، فهو يرى أن الرسالة تعبير عن الذات الإبداعية حتى ولو كانت لغرض وظيفي نفعي كتوجيهاته التي يضمّن بها بعضَ رسائله لطبع كتبه في «دار الهلال» التي يشرف عليها «إميل زيدان».... ففي هذه الرسائل النفعية لا يتخلى عن قلمه الأدبي، وعن الاحتفاء بفن كتابة الرسالة. وكأنه كان على وعي تام بأن تلك الرسائل ستغدو جزءاً من تراثه الأدبي؛ فهو يجرد من نفسه رقيباً أدبياً عليها، ويتحرى في كتابتها الجمال الفني، ولا نغالي إذا حكمنا بأنه كان يفرض على رسائله لوناً من الرقابة الاجتماعية والخلقية، إذ يندر ما يطلق فيه العنان لنفسه ليتحدث بصراحة عن أسرار حياته الخاصة.

من هنا يكتنف الغموض أكثر رسائله الموجهة إلى النساء اللواتي أحبّهن أو عقد معهن صداقات أدبية وإنسانية، كما يصعب تعرّف طبيعة علاقته بالآخرين على المستوى الإنساني، وإن كان يحرص على إبداء وجهة نظره في القضايا الوطنية والاجتماعية والأدبية بوضوح، وذلك يعود إلى نزعته المثالية الرومانسية في النظر إلى الإنسانية والمجتمع، بعيداً عن الواقع.

وإذا أبعدنا واستثنينا رسائله إلى «مي زيادة» وهي رسائل تعرّف أبعاد العلاقة الإنسانية التي ربطته بها، فإن بقية رسائله إلى من راسلهم عبثت ببعضها يد الزمن فضاعت، ولم تبق إلاّ

رسائل معدودة نشر بعضها، وهي [تسمح بفهم «جبران» أكثر، وتوضيح رؤيته بتحفظ، لأنها لا تغوص إلى الحميميات من عالمه، لأنه حرص أن يضع ستاراً بين تلك الحميميات والناس، فبدت مموّهة.].

*

راسل «جبران» نساء كثيرات منهن: أخته مريانا، وسلطانة ثابت، وجوزفين بيبودي، وماري هاسكل، وإميل ميشال المعروفة بميشيلين، وشارلوت تلر، ومي زيادة، وماري عيسى الخوري، وماري يني، وماري قهوجي، وماريبيتا لوسن، وغيرهن... بعضهن كانت له معهن علاقات حب ومودة وتأثير فيه بوصفه فناناً، لقد راسل «جبران» ماريبيتا لوسن التي اتخذها «موديلاً» لرسومه... وكانت هذه الرسائل تفصح عن العلاقة بينهما من خلال التعبير المتواصل عن صداقة جمعت بينهما، فكانت تناديه بالعم، وكان يعتبرها في رسائله بمنزلة ابنته، وفي تلك الرسائل التي بلغت (١٨) رسالة، والمكتوبة باللغة الإنكليزية يلقبها بالأميرة أو الملاك الصغير [يحزنني إلى حدّ تعجز الكلمات عن تبيانه أن أعلم أنك منحرفة الصحة، لماذا تمرض الملائكة الصغار الحلوين؟؟]. ويلمح إلى أن مرضها قد يكون شعلة حب في القلب [هل كان حقاً الملاك فيك هو المريض، أم

ذلك الشخص الصغير الآخر؟.. أفضل ألاَّ أدعو ذلك الشخص باسمه الحقيقي]. ويتضح من رسائله إليها أنها كانت ترتبط بصديق آخر [يؤسفني أن صديقك قد أُصيب بحادث بسيط، وآمل أن يشفى، وهو بلا ريب سيشفى لأنك تتولين تمريضه].

أما عن صلته بــ(غيتريد باري) فهي غامضة، كانت تسكن بالقرب منه في «بوسطن»، وكانت عشيقته السرية، واستمرت العلاقة بينهما إحدى وعشرين سنة، وكتب إليها ستاً وستين رسالة مازالت مخطوطة، ويحتفظ بها قريبه النحات «خليل جبران».

وعن علاقته بماري عزيز أرملة عيسى الخوري الثرية، فهي علاقة عمل، أرادت «ماري» أن تستقطب أدباء المهاجر من أعضاء الرابطة القلمية، وتستغلهم، فكانت تجمعهم في صالونها الأدبي، وباعتهم بثمن باهظ مدعية كما تقول: «مريانا فاخوري» أنها صاحبة فضل في إبداع جبران.

ولعل أبرز رسائل «جبران» إلى النساء، تلك التي وجهها إلى «جوزفين بيبودي» وقد التقاها في معرض للصور في بوسطن عام ١٨٩٨م، وأعجبت به، ويبدو أنه أحبّها، وهي التي ألهمته كتابة «النبي».

يصف «جبران» في إحدى رسائله كيف تعرّف إليها... فيقول: [تلك الليلة سألت السيد «داي» عَنْ هذه السيدة في الثوب

الأسود، فقال لي: إنها الآنسة «بيبودي»، وهي شاعرة شابة، وأختها رسّامة، فقلت: يا للعائلة السعيدة!! كم أحب أن أتعرّف إليها].

وفي رسالة أخرى، يعتذر لها عن انقطاع رسائله بسبب سفره إلى سورية، ثم يحدثها عن جمال سورية، وسكون الحياة فيها...

ولعله حدّث صديقه «جميل معلوف» عنها في رسالة له عام ١٩١٢م. ووصف لها جلسة رومانسية معها: [دعتني بالأمس سيدة أميركية إلى العشاء، وهي شاعرة وجميلة قلباً وقالباً، ولها ميل طبيعي إلى استدرار محاسن الحياة، وفي نفسها مجاعة إلى كل ما هو جميل ولذيذ، جلسنا إلى المائدة، ولم يكن بيننا ثالث، وكنا نأكل ونتحدث، حتى إذا ما انتهينا، أشعلتُ سيكارة ثم ألحقتها بأخرى.. وصديقتي تتأملني بلذة، وعلى ملامحها ابتسامة تشابه ابتسامة الحقول للربيع... وبعد قليل حوّلت شاعرتنا عينيها نحو شيء غير منظور في فضاء الغرفة، وقالت بهدوء: أتعلم يا جبران بأن هذه أول مرة تمنيت فيها أن أكون رجلاً، قلت: ولماذا...؟؟

قالت: لأن الرجال يتمتعون بالحياة بلا خوف ولا وجل، ويصعدون إلى قمم اللذات، ويهبطون إلى أعماقها، غير ناظرين إلى ما يقال عنهم، أما نحن النساء فيراقب بعضنا بعضاً، وننتقد بقساوة جارحة ما نفعله حسناً كان أم قبيحاً.].

وتستمر الرسالة، فيفهم منها أنه قضى ليلته مع صديقته يشربان القهوة ويدخنان، وحين نبهها إلى أنها تكثر من التدخين، أجابت كما يقول بهذه الكلمات البديعة: [إن اللذة الحقيقية في هذه الحياة لا تصل إلينا إلا عن طريق الألم].

كان لجبران مراسلات مع شخصيات نسائية بارزة في عصره... مثل «الفيكونتس سيسيليا أوف لوتتبرغ» وهي مستشرقة معروفة في المجتمع الأوروبي، ولا نجد في رسائله إليها تلك المشاعر الذاتية الخاصة، فهو يحدثها عن بلده، وينتقد ميل أبنائها إلى التفرنج، وإن كان المتفرنجون من شبانها هم الذين أقاموا نهضتها المعاصرة، ثم يعلق على ذلك فيقول: [إن الأمم كالشجر تنبت وتتعالى ثم تبلغ مبلغها، فتعطي ثماراً جيدة ورديئة، ثم تمر عليها السنون فتشيخ وتجف جذوعها وفروعها... واليوم بعد أن داست أقدام ابن السبيل جذوع تلك الكرمة، وأتلف اللصوص سياجها، يمر عابر طريق فيجدها قد أورقت ثانية...].

ثم يضيف: [تلك معجزة لم يأت التاريخ بمثلها، ولا يستعظمها سوى مَنْ عرف مآسي الأجيال التي مرت بها من أيام نبوخذ نصر وعهد السلطان عبد الحميد!].

نلاحظ أن «جبران» في مراسلاته مع المرأة مثالي النزعة، فهو يجلّها، ويداعب مشاعرها الوجدانية، ويتقرب إليها،ويثني

عليها، ويرى فيها ملاكاً يجمّل الحياة شأن الرومانسيين، ويسند رأسه المتعب إلى صدرها، ويكاشفها بآلامه الجسدية والنفسية وخاصة في السنوات الأخيرة من عمره، حين برحت به الآلام والأمراض...

يكتب إلى «ماريبيتا»: [أصغي إليّ الآن يا ماريبيتا، يجب ألا تقلقي من أجلي، ولا تضطربي لأي أمر يتعلق بي... من المؤكد أني كنت محظوظاً في العثور على طبيب طيب، لا يفهمني جسدياً فقط، بل عرف شغلي واهتم به]. ويشجعها على مواجهة الحياة بقوة...[ماذا تعنين بقولك: قد هزمت عند كل منعطف في الآونة الأخيرة؟... تعرفين جيداً أنك لست مهزومة؛ إن المرأة التي وهبها الله الشيء الكثير، والتي وضع في يدها وقلبها الكبير الكثير لا تتحدث عن الانهزام ولا تحني رأسها].

أما علاقة «جبران» بالرجال خلال رسائله، فقد كانت له روابط وصداقات مع أقرانه في المهجر وفي وطنه، فهم: جميل معلوف، وابن عمه نخلة جبران، ولعل علاقته بهم كانت أكثر من علاقته بالآخرين، كما يتضح من مباسطاته معهما عبر رسائله إليهما، وآخرون مثل: أمين الغريب، ويوسف الحويك، وأمين الريحاني، وأمين مشرق، وأميل زيدان، وميخائيل نعيمة رفيق دربه، وغيرهم ممن ربطته بهم مناسبات عابرة مثل: حنا الظاهر، وأدمون وهبة.

ونلمس أن رسائل «جبران» إلى الرجال تفيض عذوبة، وتعلي شأن الصداقة، وتحفل بالثناء على مَنْ صادقهم، وتشجعهم أمام العوائق، مع نزعة إنسانية نبيلة، فهو يخاطبهم بأخي الحبيب أو العزيز، ويتبع الخطاب بالسلام، وتتناول أكثرها قضايا أدبية واجتماعية وإنسانية عامة، ونصائح وتوجيهات تكشف عن عمق نظر في الحياة، ويقترح في إحدى رسائله إلى أميل زيدان، أن يكثر من نشر القصص والروايات في مجلته الهلال لأن [الشرقي يميل إلى سرد الحكايات بل هو الذي ابتدع هذا الفن، ولأن الناس ملّوا من المقالات والقصائد المعهودة، وتعبوا من القوالب العتيقة].

ويكتب إلى صديق مجهول معلقاً على علاقة زوجية آلت إلى الانهيار: [**أعتقد أن فساد الجامعة البشرية، قد نتج عن لقاء الرجل بنصف غيره، وبقاء المرأة مع نصف سواها... وأعتقد أن ثمرة الزواج الفاسد تكون في أكثر المواطن فاسدة**].

ويضيف: [إن علماء الاجتماع في أوروبا يحاولون اليوم إيجاد السبل إلى تكثير النسل غير ملتفتين إلى المكان الذي تنبت فيه نواة النسل، فلا يهمهم مجيء الطفل من نور المحبة أو من ظلمة الاشمئزاز، بل يهمهم وجود الطفل، وهذا هو الجهل في شرعي **لأن الأمة المؤلفة من مليون نفس جميلة، أفضل من الأمة المؤلفة من مئة مليون نفس منحطة وخاملة**].

ويكتب إلى «أمين الريحاني»: [أما السوريون كافة فهم اليوم أرغب مما كانوا عليه الأمس، والزعماء يزدادون زعامة، والثرثارون ثرثرة... جميع هذه الأمور قد جعلتني أكره الحياة يا أمين، ولولا صراخ الجياع الذي يملأ قلبي لما بقيت دقيقة في هذا المكتب، بل لما بقيت ساعة في هذه المدينة..].

ولعل أهم ما يلفت النظر في رسائل «جبران» نظرته إلى سورية بمفهومها الموحد الذي يضم الهلال الخصيب كله، فهو لا يميّز بينها وبين لبنان وفلسطين، وكان ذلك المفهوم هو السائد آنذاك.

* * *

إن رسائل «جبران خليل جبران» وثائق إبداعية، تتدرج في نتاجه الأدبي، وتلقي أضواء على نفسيته وتطلعاته ومواقفه الإنسانية والوطنية والاجتماعية.

فما أجدرها أن تجمع في كتاب واحد بعد أن تَوزع نشرها في عدد من الكتب، وظلّ بعضها طي الكتمان في أيدي المتاجرين بها، أو دفعَ الإهمال ببعضها إلى الغياب الأبدي.

* * *

الفهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة

آفــاق ثقـافيـة

للرسائل الخاصة التي يكتبها صديق إلى صديق تجمع بينهما وحدة الفكر، وأب إلى ابنه، وولد نازح إلى أمه، وزوج إلى زوجه، وعاشق إلى معشوقته، ورئيس إلى مرؤوسيه، وأديب إلى شاعر، وشاعر إلى ناقد أديب - إن لهذه الرسائل ذات المنازع المختلفة أثرها في الكشف عن الكثير من مكنونات الصدور، وقيمتها أنها تعبر تعبيراً صادقاً عن أحاسيس تختلج في ضمير كاتبها.. ذلك لأن كلماتها تنثال من قلم مرسلها بصورة عفوية.. وكثيراً ما يبوح بأشياء قد لا يبوح بها إذا علم أنها ستذاع وتنشر. ولو أيقن أن أحداً غير الذي كتبت له سيطلع عليها لآثر أن تظل حبيسة في صدره.

وسرُّ ذلك أن الإنسان يكتب إلى من اصطفاه بودِّه وائتمنه على سره، يشعر وكأنه يكتب إلى ذات نفسه.

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
٢٠١٢م

السعر (٥٠) ل.س